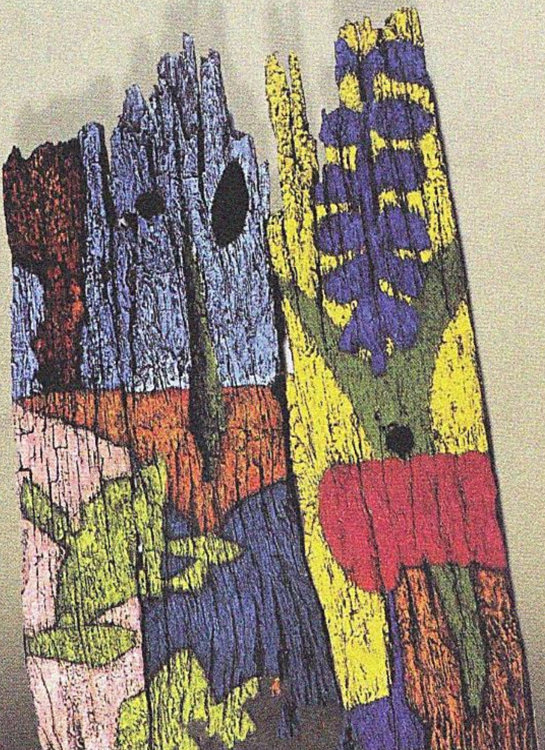
روايات عالمية

تشنوا أتشيبي

أشياء تتداعى

ترجمة : سمير عزّت نصّار



الأهلية

روايات نص الآخر عالمية

تشنوا أتشيبي

أشياء تتداعى

ترجمة : سمير عزّت نصّار

الأهلية

الأهليّة للنشر والتوزيع

المملكة الأردنيّة الهاشميّة ، عمّان
وسط البلد ، خلف مطعم القدس
هاتف ٤٦٣٨٦٨٨ ، فاكس ٤٦٥٧٤٤٥
ص. ب : ٧٧٧٢ عمّان / الأردن
e - mail : alahlia@nets.jo

أشياء تتداعى
ترجمة: سمير عزّت نصّار

الطبعة العربيّة الأولى ، ٢٠٠٢

تصميم الغلاف : **زهير أبو شايب / الأردن**

الصفّ الضوئي :
التنضيد والإخراج : دار النسر للنشر والتوزيع

أتشيبي (١٩٣٠ -)

ولــد تشينــوا أتشيبــي في ١٦/ نوفمبر/ ١٩٣٠ فـي أوجيدي ، على بعد بضعة أميال إلى شمال شرق أونيتشا . كان أبوه وكيل كنيسة . وهذا يعني أنه كان يتعلّم في مدرسة الإرسالية التبشيرية أيام الأسبوع كما كان مسؤولاً عن كنيسة القرية في نفس الوقت . وقد داوم أطفال أتشيبي في مدرسة الإرسالية هذه ، ومنها مُنح تشينوا حق الدخول إلى كلية الحكومة في أوموإهيا في ١٩٤٤ .

في ١٩٤٨ ، دخل تشينوا كلية الجامعة في إبدان ، حيث درس الإنجليزية والتاريخ والدين ، وحصل على درجة B.A في ١٩٥٣ . بعد التخرج ، انضم إلى خدمة الإذاعة النيجيرية كمنتج أحاديث (١٩٥٧) ليصبح رئيس قسم الأحاديث (١٩٥٧) ومراقب المنطقة الشرقية (١٩٥٩) . وفي ١٩٦١ ، عُيِّن مديراً للخدمات الخارجية كمسؤول عن صوت نيجيريا وانتقل إلى لاجوس .

وتشينوا أتشيبي رجل كثير الترحال . ففي ١٩٦٠ ، تلقى منحـــة روكفلر التي مكنته من السفر كثيراً في شرق ووسط أفريقيا ، وفي ١٩٦٣ ، مُنح جائزة يونسكو ثانية للسفر ودراســة النزعــات الأدبية في الولايات المتحدة والبرازيل وبريطانيا . كما أنه قام بالعديد من الرحلات على حسابه الخاص داخل وخارج نيجيريا .

تزوج تشينوا بكريستين ـ ولهما الآن ثلاثة أطفال . وهو يعبد أسرته . وينادي بتعزيز الروابط والمسؤوليات المتعلقة بالعائلة الموسّعة التي لدينا في نيجيريا . وله أخت أكبر منه يقول عنها : «روت لي قصصاً كثيرة حينما كنتُ صغيراً حتى يمكنني القول إنها هي التي عرّفتني على متعة وفن رواية القصص» .

بين ١٩٥٨ ، ١٩٦٤ ، كتب أتشيبي أربع روايات . نُشـــرت رواية : **أشياء تتداعى** في ١٩٥٨ . وفي ١٩٦٠ نُشرت رواية : **لم يعد مطمئناً** ، التي خطط لها بالأصـل وكتبهـا كجزء مـن أشياء تتداعى . ونشرت رواية : **سهم الله** في ١٩٦٤ وهي نفـس السنة التي ظهرت فيها : **تشيكي والنهر** (التي يدعوها «رواية للفتيان») وقدّمها إلى مطبعة جامعة أوكسفورد للنشر .

تُرجمت الروايتان الأوليان ـ **أشياء تتداعى ، لم يعـد مطمئناً** ـ إلى الألمانية والإيطالية والإسبانية والسلوفينية والروسية والعبرية والفرنسية والتشيكية والمجرية .

إن ما يلفت الانتباه في الأدب النيجيري الآن هو أن أغلب الروائيين أشخاص يعملون طيلة النهار في مكاتب . وهذه السمة تلفت النظر بطريقتين واضحتين : أولاً ، يستطيع هؤلاء الروائيين ولديهم الطاقة (العقلية والجسمانية) للكتابة إضافة إلى العمل العادي : ثانياً ، العمل في مكتب في لاجوس أو إبدان أو إنوجو ، أو العيش في عزلة عن المجتمع ، لم يعزل **أتشيبي** ولا **ألوكو** ولا **إكوينسي** ولا **نزيكوو** عن مضمون أدب مجتمعاتهم سريعة التغيير .

الجزء الأول

فصل ١

أحرز أوكونكوو شهرةً واسعة في جميع أنحاء القرى التسع وحتى فيما وراءها . وقد قامت شهرته على إنجازات شخصية راسخة . فحين كان شاباً في الثامنة عشرة ، حاز لقريته على شرف عظيم بتغلبه على الهر أمالينز . كان أمالينز المصارع العظيم الذي لم يقهره أحد ، من أوموفيا إلى مباينو طيلة سبع سنوات . كان يدعى الهر لأن ظهره ما كان يلمس الأرض أبداً . وهو الرجل الذي طرحه أوكونكوو أرضاً في قتال وافق الرجل العجوز على أنه أشرس قتال منذ أن تصارع مؤسس بلدتهم مع روح البراري مدة سبعة أيام وسبع ليال .

قرعت الطبول وعزفت المزامير وحبس المشاهدون أنفاسهم . كان أمالينز فناناً ماكراً ، لكن أوكونكوو كان زلقاً كسمكة في الماء . برز كل عصب وكل عضل في سواعدهما ، وفي ظهريهما وأفخاذهما ، وكاد أن يُسمع انشدادها إلى حد نقطة الانكسار . في النهاية ، طرح أوكونكوو الهر أرضاً .

حدث ذلك قبل سنين عديدة ، عشرين عاماً أو أكثر ، وأثناء هذا

الوقت ، انتشرت شهرة أوكونكوو كحريق غابة أثناء هبوب رياح الحرور/ هارماتان . كان طويلاً وضخماً ، أضفى عليه حاجباه الكثّان وأنفه العريض مظهراً صارماً جداً . وهو يتنفس تنفساً ثقيلاً ، وقد قيل أن زوجاته وأطفاله كانوا يسمعون صوت تنفسه أثناء نومه وهم في أكواخهم البعيدة عن كوخه . حين يمشي ، لا يكاد عقباه أن يمّسا سطح الأرض ، فيبدو أنه يمشي على نوابض ، كأنه يوشك أن ينقض على شخص ما . وفعلاً ، كثيراً جداً ما قفز منقضاً على الآخرين . وهو يشكو من تلعثم طفيف في النطق ، وحين يغضب ولا يستطيع أن ينطق كلماته بسرعة كافية ، يستعمل قبضتيه . وهو لا يصبر على الرجال الفاشلين . ولم يصبر على أبيه .

مات أونوكا ، فهذا هو اسم أبيه ، منذ عشر سنوات . كان أثناء حياته كسولاً ومبذراً وعاجزاً تماماً عن التفكير في الغد . فإذا توفر مال بين يديه ، ونادراً ما يحدث هذا ، كان يشتري به فوراً قرعات نبيذ نخيل ، ويدعو جيرانه فيلهون . وقد قال دائماً إنه كلما رأى فم رجل ميّت ، رأى حماقة ألا يأكل الإنسان ما لديه أثناء حياته . كان أونوكا مديوناً بالطبع ، فقد استدان من كل جارٍ له مبلغاً من المال تراوح بين بضع ودَعَات حتى مبالغ كبيرة حقاً .

كان طويلاً لكنه نحيل جداً ومحني الظهر قليلاً . واكتسى بملامح هزيلة وحزينة إلاّ عندما يشرب أو يعزف على نايه . كان ماهراً جداً في العزف على الناي ، فكانت أسعد لحظات حياته هي الأيام الواقعة بعد قمرين أو ثلاثة أقمار من الحصاد حينما يُحضِر الموسيقيون آلاتهم ،

فيتحلقون حول موقد النار . فيعزف أونوكا معهم ، ووجهه يشعّ غبطةً وطمأنينة . وقد تطلب قرية أحياناً من فرقة أونوكا الموسيقية وراقصيها الإيجووجوو أن يأتوا إليها ويمكثوا فيها ويعلموهم ألحانهم . فيذهبون إلى مثل هؤلاء المضيفين لفترة تطول إلى ثلاثة أو أربعة أسواق ، ويعزفون الموسيقى ويحتفلون . وقد أحب أونوكا الارتحال الجيد والرفقة الجيدة ، وأحب الموسم الذي تنحبس فيه الأمطار وتشرق فيه الشمس كل صباح بجمال باهر . ولا يكون الطقس حاراً جداً أيضاً ، لأن رياح الحرور الباردة الجافة تهب هابطة من الشمال . وقد تكون ريح الحرور في بعض السنين قاسية جداً ويتعلّق سديم كثيف في الجو . فيجلس العجائز والأطفال حول نيران الحطب المشتعلة ، ويدفئون أجسادهم . وقد أحب أونوكا كل هذا ، وأحبّ الحدآت الأولى العائدة مع الموسم الجاف ، والأطفال الذين يغنون أغاني الترحيب بها . فيتذكر طفولته ، وكيف كان غالباً ما يهيم على وجهه باحثاً عن حدأة تبحر على مهل في صفحة السماء الزرقاء . وحالما يعثر على واحدة ، يغني لها بكل كيانه ، مرحباً بعودتها من رحلتها الطويلة الطويلة ، ويسألها إنْ كانت جلبت إلى موطنها أية قطع قماش .

كان ذلك منذ سنين خلت ، عندما كان شاباً . أما أونوكا الرجل الناضج ، فكان فاشلاً . كان فقيراً ولا يكاد يوفّر لزوجته وأطفاله ما يأكلونه . فسخر الناس منه لأنه كان صعلوكاً ، وأقسموا ألا يقرضوه مزيداً من المال أبداً لأنه لا يسدد دينه . لكن أونوكا كان ينتمي إلى

ذلك النوع من الرجال الذين ينجحون دائماً في اقتراض المزيد ، وتكويم الديون .

ذات مرة ، أتى جار له يدعى أوكويي لزيارته . كان أونوكا متكئاً على سرير من الطين في كوخه ويعزف على الناي . وثب واقفاً على الفور وصافح أوكويي ، الذي فرش جلد ماعز كان يحمله تحت إبطه ، وجلس . ذهب أونوكا إلى غرفة داخلية وعاد بسرعة حاملاً صحناً خشبياً صغيراً يحتوي على جوزة كولا ، وقليل من فلفل التمساح وقطعة طباشير بيضاء .

صرّح حين جلس : «لدي كولا» ، وناول القرص لضيفه .

أجاب أوكويي وهو يعيد القرص : «شكراً . مَنْ يحضر كولا يحضر الحياة . لكنني أعتقد أن عليك أن تكسرها أنت» .

ـ«كلا ، إنها لك على ما أظن» .

تجادلا على هذا النحو بضع لحظات قبل أن يقبل أونوكا شرف كسر الكولا . في هذه الأثناء ، تناول أوكويي قطعة طباشير ، ورسم بضعة خطوط على الأرض ، ثم لوّن أصبع قدمه الكبير . وبينما كان أونوكا يكسر الكولا ، صلّى داعياً أجدادهما أن يمدوهما بطول الحياة والعافية ، ويحموهما من أعدائهما . حينما أكلا ، تحدثا حول أمور كثيرة : حول الأمطار الغزيرة التي تغرق بطاطا الـ يام ، وحول احتفالات الأجداد القادمة وعن الحرب وشيكة الوقوع مع قرية مباينو . لا يحسّ أونوكا بالسعادة أبداً حين يصل الكلام إلى الحرب .

فهو في الحقيقة جبان لا يطيق رؤية الدم . لذلك غيّر الموضوع ، وتحدّث عن الموسيقى ، فأشرق وجهه . فهو يسمع بأذن عقله إيقاعات الإيكوي والأدودو والأوجيني المتشابكة والمثيرة للدم وبسمع صوت نايه يتلوى داخلاً في هذه الإيقاعات وخارجاً منها ، مزّيناً إياها بنغمة ملّونة وحزينة . فكان التأثير الإجمالي لها مرحاً ورشيقاً ، لكن الإنسان لو التقط صوت الناي في علوه وخفوته وجزّأه إلى نتف صغيرة ، لرأى فيه الأسى والحزن .

كان أوكويي موسيقياً أيضاً . فهو يعزف على الأوجيني . لكنه لم يكن فاشلاً مثل أونوكا . إنه يملك مخزناً كبيراً مليئاً باليام وثلاث زوجات . وسيحصل الآن على لقب إيديميلي ، ثالث أعلى الألقاب في البلاد . والاحتفال بهذا اللقب غال جداً ، لذلك راح يجمع كل موارده . وكان هذا في الحقيقة هو سببٌ زيارته لاونوكا . فسلّك حلقه وبدأ :«شكراً على الكولا . لعلك سمعت باللقب الذي أنوي الحصول عليه قريباً» .

بعد أن تحدث أوكويي حتى الآن بلغة بسيطة ، راح يوشيّ جمله الست التالية بلغة الأمثال . ففن الحديث يتبوأ لدى الإيبو مكانة رفيعة جداً ، والأمثال هي زيت النخيل الذي تؤكل الكلمات معه . كان أكويي محدثاً ذلق اللسان فتحدث طويلاً ، لافّاً حول الموضوع ثم داخلاً فيه في النهاية . بايجاز ، كان يطلب من أونوكا أن يعيد إليه مائتي وَدَعَة اقترضها منه قبل أكثر من عامين . وما أن أدرك أونوكا ما يقصده صديقه ، حتى انفجر ضاحكاً . قهقه عالياً وطويلاً ورنّ صوته

صافياً كالأوجيني ، وترقرت الدموع في عينيه . ذُهل زائره ، وجلس صامتاً . في النهاية ، تمكّن أونوكا من الرد وسط تفجرات متجددة من المرح .

قال :«أنظر إلى ذلك الجدار» ، وأشار إلى جدار كوخه القصيّ المفروك بالطين الأحمر حتى أصبح لامعاً . «أنظر إلى خطوط الطباشير تلك» ، رأى أوكويي مجموعات خطوط عمودية قصيرة مرسومة بالطباشير . كانت هناك خمس مجموعات ، شملت أصغرها عشرة خطوط . ولأن أونوكا يتحلى بحسّ دراميّ ، أفسح المجال لفترة صمت قصيرة ، تناول أثناءها قبضة سعوط وعطس بصوت عال ، ثم استأنف :«كل مجموعة هناك تمثل دَيْناً لشخص ، وكل خط عبّارة عن مائة وَدَعَة . كما ترى ، أنا مدين لذلك الشخص بألف وَدَعَة . لكنـــه لم يأت ليوقظني صباحاً من أجلها . سأدفع لك ، لكن ليس اليوم . فحكَماؤنا يقولون إن الشمس تسطع على الواقفين قبل أن تسطع على الراكعين تحتهم . سأدفع ديوني الكبيرة أولاً» . تناول قبضة سعوط أخرى ، كما لو أنه يدفع بذلك ديونه الكبيرة أولاً . فلّف أوكويي جلد ماعزه وغادر .

حين مات أونوكا ، لم يكن قد نال أي لقب على الإطلاق ، وكان غارقاً في الدين حتى أذنيه . فلا عجب إذن في أن يشعر ابنه أوكونكوو بالخجل منه؟ إلا أن الحكم على أي إنسان عند هؤلاء القوم كان لحسن الحظ مبنياً على قيمته الشخصية وليس على قيمة أبيه . وكان واضحاً أن أوكونكوو خُلق للقيام بأعمال عظيمة . كان لا يزال شاباً ،

لكنه اكتسب صيتاً ذائعاً بصفته أعظم مصارع في القرى التسع . وكان مزارعاً غنياً ويملك مخزنين مليئين باليام ، وقد تزوج لتوه زوجته الثالثة . وتوّج كل هذا بحصوله على لقبَيْن كما أظهر شجاعة لا تصدق في حربين بين القبائل . هكذا ، وعلى الرغم من أنه كان ما يزال شاباً ، كان واحداً من أعظم رجالات عصره . كان السنّ موضع احترامٍ وسط قومه ، لكن الإنجاز كان موضع تبجيل . وكما قال الشيوخ ، إذا غسل الطفل يديه ، فهو يستطيع الأكل مع الملوك . ومن الواضح أن أوكونكوو غسل يديه ، وبالتالي أكل مع الملوك والشيوخ . لهذا السبب ، وقع عليه الاختيار للاعتناء بالصبيّ المحكوم عليه بالموت والذي قدمته القبيلة المجاورة قرباناً لقرية أوموofيا تفادياً للحرب وسفك الدماء . وكان اسم الصبيّ سيىء الطالع إيكيميفونا .

فصل ٢

أطفأ أوكونكوو قنديل زيت النخيل وتمدّد فوق سرير الخيزران حين سمع صوت أوجيني ، منادي القرية ، يخترق جو الليل الساكن . جوم ، جوم ، جوم ، دوّى المعدن الأجوف . ثم أعلن المنادي رسالته ، وبعد انتهائه عاد وطرق على آلته مرة أخرى . كانت هذه هي الرسالة : يُطلب من كل رجل في أوموفيا التجمع غداً صباحاً في ساحة السوق . تساءل أوكونكوو عما جرى . فقد تيقن أن خطأ كان قد وقع . إذ استشف في صوت المنادي نبرة مأساة واضحة ، ظلّ يسمعها وهي تخفت تدريجياً مع ابتعاده .

كان الليل هادئاً جداً . وهو هادىء دائماً إلاّ في الليالي المقمرة . العتمة تنطوي على رعب غامض لهؤلاء القوم . حتى لأشجع رجل منهم . فقد حُذّر الأطفال من الصفير في الليل خوفاً من الأرواح الشريرة . كما تصبح الحيوانات الخطيرة أشد شراً ووحشية في الظلام . فالأفعى لا تدعى باسمها في الليل ، لأنها ستسمع هذا . إنها تدعى خيطاً . في هذه الليلة بالذات ، والمسافات تبتلع تدريجياً صوت المنادي ، عاد الصمت يسود العالم ، صمت مرتجّ زاده ترديد كونيّ متعاقب ومتسارع لأصوات ملايين ملايين حشرات الغابة .

في ليلة مقمرة ، تختلف الحال . فأصوات الأطفال المرحة تسمع وهم يلعبون في الحقول المكشوفة . وقد يلهو الشباب أزواجاً في أماكن مستورة أكثر ، ويتذكر الرجال والنسوة العجائز شبابهم . وكما يقول الإيبو :«عندما يسطع القمر يجوع الكسيح إلى المشي» .

لكن هذه الليلة كانت مظلمة وصامتة . وطلب منادي القرية ومعه آلته الموسيقية أوجيني في جميع قرى أوموفيا التسع ، داعياً كل الرجال للحضور إلى ساحة السوق في صباح الغد . حاول أوكونكوو ، وهو مستلق على سرير الخيزران ، أن يخمّن طبيعة الحدث الطارىء ـ حرب مع عشيرةٍ مجاورة؟ بدا أن ذلك هو السبب الأكثر احتمالاً ، ولم يكن هو يخشى الحرب . فقد كان رجل أفعال ، رجل حرب . وخلافاً لأبيه ، كان يستطيع أن يحتمل منظر الدم . وفي آخر حرب خاضتها أوموفيا ، كان أول مَنْ أحضر إلى قريته رأساً بشرياً . وكان ذلك رأسه الخامس ، مع أنه لم يشخ بعد . وفي المناسبات الجليلة ، كجنازة رجل مشهور من أهل قرية ، يشرب نبيذ النخيل من رأسه البشري الأول .

في الصباح ، امتلأت ساحة السوق . لابد أن هناك حوالي عشرة آلاف رجل ، وكلهم يتكلمون بأصوات خافتة . أخيراً ، نهض أوجبويفي أيزيوجو ووقف وسطهم وجأر أربع مرات :«أوموفيا كوينو» ، وتوجه كل مرة نحو جهة مختلفة وبدا أنه يدفع الهواء بقبضة مكّورة . فأجاب في كل مرة عشرة آلاف رجل «يا ا !» ثم خيم صمت مطبق . كان أوجبويفي إيزيوجو خطيباً مفوّهاً ويُختّار دائماً للتحدث في مثل هذه المناسبات . مرّر يده فوق رأسه أبيض الشعر ومسد لحيته البيضاء . ثم أصلح من وضع قطعة قماشه التي تمر تحت إبطه الأيمن وتنعقد فوق كتفه الأيسر .

جأر مرةً خامسة :«أوموفيا كوينو» ، فصاح الجمهور مجيباً . ثم فجأة ، كرجل أصابه مس ، أطلق يده اليسرى مشيراً في اتجاه مباينو ، وقال من خلال أسنان لامعة مطبقة بإحكام :«أبناء الوحوش الكاسرة أولئك تجرؤوا على قتل بنت من أوموفيا» . نكس رأسه وصرف بأسنانه ، وسمح لهمهمة غضب مكبوتٍ في أن تكتسح الحشد . حينما بدأ من جديد ، كان الغضب قد أمحى من وجهه وحوّمت محله ابتسامة معيّنة ، مرعبة وشريرة أكثر من الغضب . بصوت صاف خال من الانفعال ، أخبر أوموفيا كيف أن ابنتهم ذهبت إلى السوق في مباًينو وًقتلت . قال إيزيوجو بأن تلك المرأة هي زوجة أوجبويفي أودو ، وأشار إلى رجل يجلس إلى جانبه منكس الرأس . فصاح الحشد بغضب وتعطش للدم .

تكلم كثيرون آخرون ، وتقرّر في النهاية سلوك سبيل العمل المألوف . أُرسل فوراً إنذاراً نهائيّاً إلى مباينو يطالبها بالاختيار بين الحرب من جهة ، أو تقديم صبيّ وعذراء كتعويض من جهة أخرى .

أوموفيا مرهوبة الجانب من جميع جيرانها . إنها قوية في الحرب والسحر ، وكهنتها ورجال الطب فيها مرهوبو الجانب في جميع البلاد المحيطة بهم . فأفتك دواء سحريّ حربّي لديها قديم قدم القبيلة نفسها . ولم يعرف أحد مدى قدَمه . لكن هناك اتفاقاً عاماً في الرأي حول نقطة واحدة ـ العنصر الفعّالَ في ذلك الدواء السحريّ كان امرأة عجوزاً لها ساق واحدة . في الحقيقة ، كان الدواء السحريّ نفسه يدعى أجادي ـ نوايي ، أو امرأة عجوز . وله مقام في وسط أوموفيا ، في بقعة خالية . ولو بلغ الغباء بشخص وجرؤ على المرور إلى جانب المقام بعد الغسق ، لرأى بالتأكيد المرأة العجوز تحجل حوله .

لذلك خافت جميع العشائر المجاورة ، التي تعرف هذه الأمور طبعاً ، أوموفيا ولم تجرؤ على شنّ الحرب ضدها قبل أن تحاول أولاً التوصل إلى تسوية سلمية معها . من الإنصاف لقرية أوموفيا أن نسجل أنها لم تخرج مطلقاً للحرب إلاّ إذا كانت قضيتها واضحة وعادلة واعتبرها وحيها ـ وحي التلال والكهوف ، كذلك . وقد ظهرت فعلاً مناسبات منع فيها الوحي أوموفيا من شن حرب . ولو خالفت العشيرة أمر الوحي لـهُزمت بالتأكيد ، لأن أجادي ـ نوايي المرهوب الجانب لا يمكن أن يخوض ما تدعوه قبيلة إيبو قتال لوم .

لكن الحرب التي هددت القبيلة بشنها الآن كانت حرباً عادلة . حتى العشيرة المعادية أدركت ذلك . هكذا ، وحينما وصل أوكونكوو المقيم في أوموفيا إلى مباينو بصفته مبعوث الحرب المتكبر والمتغطرس ، عومل بشرف واحترام شديدين ، وعاد بعد يومين مع غلام عمره خمسة عشر عاماً وعذراء شابة . كان اسم الغلام إيكيميفونا ، الذي لا تزال قصته المحزنة تروى في أوموفيا حتى يومنا هذا .

اجتمع الشيوخ ، أو نديتشي ، ليستمعوا إلى تقرير عن مهمة أوكونكوو . في النهاية ، قرروا ، كما كان يتوقع الكل أن يحدث ، أن تذهب الفتاة إلى أوجبويفي أودو كي تحلّ محل زوجته القتيل . أما الغلام ، فكان من نصيب العشيرة ككل ، ولم يكن ضرورياً الاستعجال في البت بمصيره . لذا طُلب من أوكونكوو الاعتناء به في غضون ذلك ، نيابة عن العشيرة . هكذا عاش إيكيميفونا في بيت أوكونكوو مدة ثلاث سنوات .

كان أوكونكوو يدير بيته بقبضة من حديد . فعاشت زوجاته ، خصوصاً زوجته الصغرى ، في خوف دائم من مزاجه الناري ، وكذلك عاش أطفاله

الصغار . قد لا يكون أوكونكوو في أعماق فؤاده رجلاً قاسياً . لكن الخوف كان يسيطر على حياته بأكملها ، الخوف من الفشل والضعف . وكان هذا الخوف أعمق وأكثر حميمية من خوفه من آلهة شريرة ذات نزوات ، ومن خوفه من السحر ، ومن الغابة وقوى الطبيعة الحقودة حمراء الأسنان والبراثن . كان خوف أوكونكوو أعظم من كل هذه . لم يكن خوفاً خارجياً ، بل كان خوفاً يستقر عميقاً في نفسه . الخوف من نفسه لئلا يبدو مشابهاً لأبيه . حتى حين كان فتى صغيراً ، كان مستاء من فشل أبيه وضعفه ، ولا يزال حتى الآن يذكر كم قاسى حين أخبره أحد رفاق لهوه بأن أباه أجبالا . على ذلك النحو عرف أوكونكوو ، لأول مرة ، أن أجبالا لم يكن مجرد اسم آخر للمرأة ، بل يمكن أن تعني أيضاً رجلاً لم يتقلّد لقباً في حياته . هكذا سيطرت على أوكونكوو عاطفة واحدة ـ كراهية كل ما أحبّه أبوه أونوكا . وأحد هذه الرقة ، والآخر البطالة .

أثناء موسم الزراعة ، يعمل أوكونكوو في حقوله يومياً من صياح الديك إلى أن يبيت الدجاج في أقنانه . كان قوياً جداً ونادراً ما أحس بالتعب . لكن زوجاته والأطفال الصغار لم يكونوا أقوياء مثله ، لذلك قاسوا من ذلك . لكنهم لم يجرؤوا على الشكوى علانيةً . كان عمر ابن أوكونكوو الأول ، نوويي ، آنذاك اثني عشر عاماً ، لكنه كان يثير في نفس أبيه قلقاً عميقاً بسبب كسله المبكّر . أو على الأقل ، هكذا بدا في نظر أبيه ، فحاول أن يصلح من شأنه بحثّه وضربه على نحو متواصل . فحوّل ذلك نوويي إلى شاب حزين الوجه .

تجلى ازدهار أحوال أوكونكوو في بيته . فقد كان يملك مجموعة من الأكواخ مقامة على مساحة كبيرة مسوّرة بسياج سميك من الطين الأحمر .

يقع كوخه الخاص ، أو أوبيّ ، مباشرة خلف البوّابة الوحيدة في السور الأحمر . كان لكل زوجة من زوجاته الثلاث كوخها الخاص بها ، وشكّلت هذه الأكواخ الثلاثة هلالاً خلف الأوبيّ . كان مخزن الغلال مبنياً في الطرف الأقصى من الأسوار الحمراء ، حيث تظهر في داخله أكداس الـ يام في صفوف طويلة مبيّنة مدى نجاحه . في طرف المجمّع المقابل ، أقيمت سقيفة للماشية ، كما بنت كل زوجة ملحقاً صغيراً إلى جانب كوخها لتربية الدجاج . قرب مخزن الغلال ، قامت دار صغيرة ، «دار الدواء» أو المقام ، حيث يحتفظ أوكونكوو بالرموز الخشبية لآلهته الشخصية وأرواح أجداده . كان يعبدها بتقديم أضاحي من جوز الكولا والطعام ونبيذ النخيل ، ويرفع إليها صلواته نيابة عن نفسه وزوجاته وأطفاله الثمانية .

هكذا جاء إيكيميفونا إلى منزل أوكونكوو حين قُتلَتْ ابنة أومووفيا في مباينو . وعندما أحضره أوكونكوو إلى البيت في ذلك اليوم ، استدعى زوجته الكبرى وسلّمه إليها .

قال لها :«إنه مُلْك العشيرة . لذلك ، اعتني به» .

سألتْ :«هل سيقيم طويلاً معنا؟»

أرعد أكونكوو :«إفعلي ما يُقال لك يا امرأة» ، وتأتأ :«متى أصبحت واحدة من نديتشي أومووفيا؟»

هكذا قادت أم نوويي الصبي إيكيميفونا إلى كوخها دون أن تطرح أسئلة أخرى .

أما بالنسبة إلى الصبي نفسه ، فكان خائفاً جداً . لم يفهم ما حدث له أو ما فعله . فمن أين له أن يعرف أن أباه شارك في قتل إحدى بنات أومووفيا؟

كل ما عرفه هو أن بضعة رجال وصلوا إلى دارهم ، وتحدثوا إلى أبيه بنبرات خافتة ، وفي النهاية أخرجوه من البيت وسلّموه إلى رجل غريب . بكت أمه بمرارة ، لكنه كان مندهشاً جداً إلى حد أنه لم يبك . هكذا قاده الغريب ، مع فتاة ، قاطعين مسافة بعيدة جداً عن موطنهما عبر دروب الغابة الموحشة . ولم يعرف مَنْ هي الفتاة ، ولم يرها بعد ذلك أبداً .

فصل ٣

لم تكن بداية حياة أوكونكوو كبداية الحياة التي كانت عادةً لكثيرين غيره من الشباب . فهو لم يرث عن أبيه مخزناً للغلال . إذ لم يكن هناك في الحقيقة مخزن ليرثه . وقد رويت القصة في أوموفيا عن ذهاب أبيه ، أونوكا ، ذات مرة ليستشير وحي التلال والكهوف لكي يكتشف لماذا كان حصاده بائساً دائماً .

كان الوحي يدعى أجبالا ، والناس يقصدونه من أقصى البلاد وأدناها لاستشارته . كانوا يأتون حين يلازم سوء الحظ خطواتهم بعناد أو عندما ينشب نزاع مع جيرانهم . فيأتون ليعرفوا ما يخبئه لهم المستقبل أو لاستشارة أرواح آبائهم الراحلين .

كان الطريق إلى المقام حفرة مستديرة في جانب تل ، أكبر بقليل فقط من فتحة مستديرة لمدخل قن دجاج . فيزحف المتعبدون وأولئك الذين أتوا يسعون إلى المعرفة من الإله على بطونهم من خلال الفتحة ليجدوا أنفسهم في فضاء مظلم لانهائيّ في حضرة أجبالا . ولم يحدث مطلقاً أن شاهد أحدٌ أجبالا ما عدا كاهنته . لكن ، لم يخرج أحد ممن زحفوا إلى داخل مقامه المرعب دون أن يسيطر عليه الخوف من جبروته . فكاهنته

تقف إلى جانب النار المقدسة التي أشعلتها في قلب الكهف وتعلن عن إرادة الإله . لا تشتعل النار ملتهبة . وقطع الجذوع المتوهجة تعمل على إضاءة قوام الكاهنة المعتم إضاءة غامضة .

يأتي رجل أحياناً لاستشارة روح أبيه الميت أو أحد أقربائه الميتين . وقد قيل إن هذه الروح ، حين تظهر ، يراها على نحو غامض ، لكنه لا يسمع صوتها أبداً . وادعى بعض الأشخاص أنهم سمعوا الأرواح تطير وتخفق بأجنحتها على سقف الكهف .

قبل سنوات طويلة ، حين كان أوكونكوو لا يزال صبياً ، ذهب أبوه ، أونوكا ، لاستشارة أجبالا . كانت الكاهنة في تلك الأيام امرأة تدعى تشيكا . كانت مفعمة بقوة إلهها ، ومرهوبة الجانب جداً . فوقف أونوكا أمامها وبدأ يروي قصته .

قال بحزن :«كل سنة ، وقبل أن أزرع أي بذور في التربة ، أضحي بديك لآني ، مالك كل الأرض . هذا هو قانون آبائنا . وأذبح أيضاً ديكاً في مقام إيفيجيوكو ، إله اليام . وأقطع الشجيرة وأشعل النار فيها عندما تجفّ . وأبذر اليام عندما تسقط الأمطار الأولى ، وأسندها إلى أعواد عندما تظهر أطرافها اللولبية المعرّشة الصغيرة . وأعشّب ـ» .

صاحت الكاهنة :«اهدأ» ، وكان صوتها رهيباً عندما تردد صداه في الفراغ المظلم . «أنت لم تأثم بحق الآلهة أو بحق آبائك . وحين يسود السلام بين المرء وآلهته وأجداده ، يكون حصاده جيداً أو سيئاً بناءً على قوة ذراعه . أنتَ يا أونوكا مشهور بين كل العشيرة بضَعف سيفك ومعزقتك .

فحين ينطلق جيرانك حاملين فؤوسهم لقطع أشجار الغابات العذراء ، تبذر أنت اليام في المزارع المستنفذة التي لا تتطلب جهداً لإعدادها . إنهم يعبرون سبعة أنهار ليعدّوا مزارعهم ، بينما تظل أنت في البيت وتقدّم القرابين إلى تربة نافرة . عد إلى منزلك واشتغل كرجل» .

كان أونوكا رجلاً سيىء الطالع . كان تشيّه أو إلهه الشخصي رديئاً ، ولازمه حظه الشرير إلى القبر ، أو بالأحرى إلى موته ، إذ لم يكن له قبر . فقد مات من تورم تمقته إلهة الأرض . وعندما يصاب رجل بتورم في المعدة والأطراف ، لا يُسمح له في الموت في البيت . بل يُحمل إلى غابة الشر ويترك هناك كي يموت . وتروى قصة عن رجل عنيد جداً عاد مترنحاً إلى بيته فاضطر القوم إلى أن يحملوه مرة أخرى إلى الغابة ويربطوه إلى شجرة . فقد كان المرض بغيضاً للأرض ، لذا لم يكن بالإمكان دفن الضحية في أحشائها . فمات وتعفّن فوق الأرض ، ولم يُدفن الدفن الأول أو الثاني . هكذا كان مصير أونوكا . وعندما حملوه بعيداً ، أخذ نايه معه .

مع وجود أبٌ كأونوكا لأوكونكوو ، لم تتح له بداية حياة عملية أتيحت لكثيرين غيره من الشباب . فهو لم يرث مخزن غلال أو لقباً ، أو حتى زوجة صغيرة . لكن ، وعلى الرغم من هذه الظروف الصعبة ، إلاّ أنه بدأ يرسي ، حتى أثناء حياة أبيه ، الأسس لمستقبل مزدهر . كان هذا بطيئاً وموجعاً . لكنه ألقى بنفسه فيه كالممسوس . كان بالفعل ممسوساً بالخوف من سيرة أبيه المزرية وموته المخزي .

عاش في قرية أوكونكوو رجل موسر له ثلاثة مخازن ضخمة ، وتسع

زوجات وثلاثون ولداً . وكان اسمه نواكيبي ويتقلد لقباً يأتي قبل أرفع لقب يمكن أن يحرزه أي رجل في العشيرة . وقد عمل أوكونكوو لحساب هذا الرجل كي يحصل على بذوره الأولى من اليام .

حمل زقا مملوءاً بنبيذ النخيل وديكاً ، وذهب إلى نواكيبي . فدعا هذا جارَيْن مسنين من جيرانه ، وابنيه الكبيرين اللذين كانا موجودين في أوبيّه . قدّم جوزة كولا وفلفل تمساح ، وأديرا على الحاضرين كي يعاينهما الجميع ثم أرجعهما إليه . كسر أوكونكوو الجوزة قائلاً :«لتكتب لنا الحياة جميعاً . إننا نصلي من أجل الحياة والأطفال وحصاد جيد والسعادة . ستحصل على ما هو خير لك وسأحصل أنا على ما هو خير لي . فلتجثم الحدأة وليجثم النسر أيضاً . وإذا قال أحدهما للآخر : لا ، ليكسر جناحه» .

بعد أن أكلوا جوزة الكولا جلب أوكونكوو نبيذ نخيل من زاوية الكوخ حيث وضعه ووقف في وسط الجماعة . وخاطب نواكيبي ، داعياً إياه :«أبانا» .

قال :«ننا آيي . أحضرتُ لك هذه الكولا الصغيرة . وكما يقول قومنا ، مَنْ يوقّر العظيم يمهّد السبيل نحو عظمته هو . وقد أتيت لأقدّم لك احترامي واسألك معروفاً أيضاً . لكن ، لنشرب النبيذ أولاً» .

شكر الجميع أوكونكوو وأخرج الجاران قرنيهما من كيسي جلد الماعز اللذين يحملانهما . تناول نواكيبي قرنه المعلّق في عوارض السقف الخشبية . وخطا ابنه الأصغر ، الذي كان أحدث الموجودين سناً ، إلى وسط الكوخ ، ورفع الزقّ على ركبته اليسرى وبدأ يصب الخمر . ذهبت

الكأس الأولى إلى أوكونكوو الذي يجب أن يذوق نبيذه قبل أي شخص آخر . ثم شربت الجماعة ، بدءاً بأكبرهم سناً . عندما شرب الجميع قرنين أو ثلاثة ، استدعى نواكيبي زوجاته . ولم تكن بعضهن في الدار ، فأتت أربع منهن فقط .

سألهن :«هل أناسي موجودة؟» أجَبْن بأنها قادمة . كانت أناسي الزوجة الأولى ولا يجوز أن تشرب الأخريات قبلها ، لذلك وقفن منتظرات .

كانت أناسي امرأة متوسطة العمر ، طويلة وقوية البنية . وتلوح السلطة في مظهرها وتشي كل بوصة فيها بأنها الحاكمة بين النساء في عائلة كبيرة ومزدهرة . وقد لبست خلخال ألقاب زوجها ، الذي يحق للزوجة الأولى فقط أن تلبسه .

اتجهت نحو زوجها وتقبلت القرن منه . ثم جثت على إحدى ركبتيها ، وشربت رشفة وأعادت القرن . نهضت ، ودعته باسمه وعادت إلى كوخها . شربت الزوجات الأخريات بالطريقة نفسها ، حسب ترتيبهن الصحيح ، ثم مضين .

ثم تابع الرجال الشرب والحديث . فتحدث أوجبويفي أيديجو عن الخمّار أوبياكو الذي تخلّى فجأة عن تجارته .

قال وهو يمسح رغوة النبيذ عن شاربه بقفا يده اليسرى :«لابد أن وراء هذا أمراً . لا بد أن هناك سبباً لذلك . فالضفدعة لا تقفز في وضح النهار بلا سبب» .

قال أكوكاليا :«يقول البعض إن الوحي حذّره من أنه سيقع من فوق نخلة ويقتل نفسه» .

قال نواكيبي :«كان أوبياكو دائماً غريب الأطوار . وقد سمعت أنه ذهب لاستشارة الوحي قبل سنوات عديدة حينما لم تمض على وفاة أبيه مدة طويلة . قال الوحي له :«أبوك المتوفي يطلب منك أن تضحي بعنزة له» . هل تعلمون ماذا أجاب الوحي؟ قال :«اسألوا أبي المتوفي إنْ كانت لديه دجاجة حينما كان على قيد الحياة» . ضحك الجميع من أعماق قلوبهم ما عدا أوكونكوو ، الذي ضحك قلقاً لأن المرأة العجوز ، كما يقول المثل ، تشعر دائماً بالقلق لدى ذكر العظام الجافة في الأمثال . فقد تذكر أوكونكوو أباه .

أخيراً ، رفع الشاب الذي كان يصبّ النبيذ في قرن امتلأ إلى نصفه من الثمالة البيضاء غليظة القوام ، وقال :«ما نأكله انتهى» . فأجاب الآخرون :«رأينا هذا» . فسأل :«مَنْ سيشرب الثمالة؟» قال إيديجو :«مَنْ لديه شاغل يشغله» ، ورمق ابن نواكيبي الأكبر إيجويلو وفي عينيه تألق خبيث .

اتفق الجميع على أن يشرب إيجويلو الثمالة . فقَبل القرن المملوء إلى نصفه من أخيه وشربه . فكما قال إيديجو ، كان لدى إيجويلو ما يشغله فعلاً ، فقد تزوج زوجته الأولى قبل شهر أو شهرين . ومن المفروض أن ثمالة نبيذ النخيل غليظة القوام مفيدة للرجال الذين يدخلون على زوجاتهم .

بعد أن شرب النبيذ كله ، بسط أوكونكوو صعوباته أمام نواكيبي .

قال : «أتيت إليك طالباً العون . قد تكون خمنت ما هو . لقد نظفت مزرعة ، لكن ، ليس لدي يام لأبذره . وأنا أعرف ماذا يعني أن يطلب رجل من آخر أن يأتمنه على يامه ، خصوصاً في هذه الأيام التي يخشى فيها الشباب العمل الشاق . أنا لا أخشى العمل . لقد قالت السحلية ، التي قفزت من شجرة الإيروكو العالية إلى الأرض ، إنها ستمدح نفسها إنْ لم يمدحها أحد . لقد بدأت أعتمد على نفسي في سن كان معظم أترابي فيه ما يزالون يرضعون من أثداء أمهاتهم . وإذا منحتني بعض بذور يام فلن أخذلك» .

سلّك نواكيبي حلقه . «يسرني أن أرى شاباً مثلك في هذه الأيام التي أصبح فيها شبابنا مائعين . لقد قصدني كثير من الشبان طالبين اليام لكنني رفضت لأنني عرفت بأنهم سيلقون البذور في باطن الأرض ويتركون الأعشاب تخنقها . حين أقول لهم لا ، يظنون أنني قاسي القلب . لكن الأمر ليس كذلك . فالطائر إينيكي يقول إنه منذ أن تعلّم الناس الرماية دون أن يخطئوا ، تعلّم هو الطيران دون أن يحط على الأرض . لقد تعلمتُ أن أبخل بيامي . لكن باستطاعتي أن أثق بك . وأعرف هذا وأنا أنظر إليك . وكما قال آباؤنا ، يمكنك أن تميّز ذُرة ناضجة من مظهرها . سأعطيك ضعف أربعمائة بذرة يام . إذهب وهيىء مزرعتك» .

شكره أوكونكوو مراراً وتكراراً وذهب إلى بيته وهو سعيد . لقد عرف أن نواكيبي لن يرفض طلبه ، لكنه لم يتوقع أن يكون كريماً إلى هذا الحد . إذ لم يأمل في الحصول على أكثر من أربعمائة بذرة . إن عليه الآن أن يكوّن

مزرعة أكبر . وأمل في الحصول على أربعمائة بذرة يام أخرى من أحد أصدقاء أبيه في إيسيوزو .

كان العمل بالمحاصصة طريقة بطيئة جداً في بناء مخزن غلال خاص بأي إنسان . فبعد كل الكَدْح ، يحصل الإنسان على ثلث المحصول فقط . لكن لا توجد طريقة أخرى بالنسبة إلى شاب لا يملك أبوه ياماً . ومما زاد الطين بلّة في حالة أوكونكوو أنه تعيّن عليه أن يعيل أمه وأختين من محصوله الضئيل . فإعالة أمه تعني أيضاً إعالة أبيه . إذ لم يكن من المعقول أن تطبخ أمه وتأكل بينما زوجها يتضور جوعاً . هكذا كان على أوكونكوو ، وهو يكافح يائساً في سن مبكرة لبناء مخزن غلال عن طريق المحاصصة ، أن يعيل أيضاً بيت أبيه . كان هذا شبيهاً بصب حبوب في كيس مليء بالثقوب . وقد كدحت أمه وأختاه بجد كبير ، لكنهن كن يزرعن غلال نساء ، مثل الكوكو ـ يام والفول والقريسة . أما اليام ، ملك المحاصيل ، فكان غلّة الرجال .

كانت السنة التي حصل فيها أوكونكوو على ثمانمائة بذرة يام من نواكيبي أسوأ سنة وعتها ذاكرة الأحياء . فلم يحدث أي شيء في أوانه ، بل بكّر أو تأخّر أكثر من اللازم . بدا كأن العالم جنّ جنونه . فالأمطار الأولى تأخرت عن موعدها ، وحين هطلت دامت فترة قصيرة جداً فقط . وعادت الشمس اللاهبة أشدّ قسوة مما عُرف عنها في أي وقت آخر ، وأحرقت كل الخضرة التي نبتت مع الأمطار . واشتعلت الأرض كالفحم الساخن وشوت جميع اليام الذي كان قد زُرع . وككل المزارعين الجيدين ، بدأ

أوكونكوو يبذر مع الأمطار الأولى . وكان قد بذر أربعمائة بذرة حينما جفّت الأمطار وعادت الحرارة . فراح يراقب السماء طوال النهار بحثاً عن علامات سحب ماطرة ويقضي الليل ساهراً . في الصباح ، كان يعود إلى حقله ويرى المحاليق تذوي . حاول وقايتها من حرارة الأرض المحرقة بإحاطتها بحلقات من أوراق نبات السيسال السميكة . لكن حلقات السيسال جفّت في نهاية النهار وأصبحت رمادية بتأثير الحرارة . فبدّلها كل يوم ، وصلى كي يهطل المطر في الليل . لكن الجفاف استمر طيلة ثمانية أسابيع سوق وقُتل اليام .

لم يكن بعض المزارعين قد زرعوا يامهم بعد . وكان أولئك هم الكسالى المهملون الذين يؤجلون دائماً إعداد حقولهم قدر الامكان . فأصبحوا في هذه السنة هم الحكماء . وقد تعاطفوا مع جيرانهم بهزّ رؤوسهم كثيراً ، لكنهم كانوا في أعماقهم مسرورين لما اعتبروه بُعد نظر منهم .

زرع أوكونكوو ما تبقى لديه من بذور اليام حين عاد المطر أخيراً . خامره عزاء وحيد . فالبذور التي زرعها قبل الجفاف كانت بذوره الخاصة ، حصاد العام الماضي . فظلّت لديه الثمانمائة بذرة التي حصل عليها من نواكيبي والأربعمائة بذرة من صديق أبيه . هكذا سيبدأ بداية جديدة .

لكن السنة جنّ جنونها . فقد هطل المطر كما لم يهطل من قبل أبداً . وانصبّ مدراراً من السماء لعدة أيام وليالٍ متتاليات مشكلاً سيولاً عنيفة ،

وجُرفت أكوام اليام . واقتلعت الأشجار من جذورها وظهرت شقوق عميقة في كل مكان . ثم هدأ عنف المطر . لكنه استمر من يوم إلى آخر دون انقطاع . لم تظهر دورة الشمس التي تأتي عادة في منتصف الموسم الماطر . وأنبتت اليام أوراقاً وارفة خضراء ، لكن كل المزارعين عرفوا أن الدرنات لن تنمو دون أشعة الشمس .

في تلك السنة ، كان الحصاد حزيناً مثل جنازة ، وبكى كثير من المزارعين وهم يستخرجون اليام المتعفن التعيس . وربط مزارع قماشه حول غصن شجرة وشنق نفسه .

ظل أوكونكوو يتذكر تلك السنة المأساوية طيلة حياته ورعشة باردة تسري في بدنه . وقد عرته الدهشة دائماً حين كان يفكر كيف أنه لم يغرق تحت ثقل اليأس . هو يعرف أنه مقاتل شرس ، لكن تلك السنة كانت كافية لتحطيم قلب أسد .

ردد دائماً :«لأنني نجوت من تلك السنة ، فسأنجو من أي شيء» . وعزا هذا إلى إرادته التي لا تلين .

وقد قال له أبوه أونوكا ، الذي كان مريضاً أثناء شهر الحصاد الرهيب ذلك :«لا تيأس . أنا أعرف أنك لن تيأس . فلك قلب رجل مفعم بالكبرياء . والقلب ذو الكبرياء يستطيع أن يتجاوز فشلاً يكون من نصيب الناس عامة ، لأن فشلاً كهذا لا يحطم كبرياءه . فالفشل الأصعب والأكثر مرارة هو الفشل الذي يصيب الإنسان وحده» .

كان أونوكا دائماً على ذلك النحو في أيامه الأخيرة . فقد زاد حبه للكلام مع تقدّم السن والمرض . فأعيى ذلك صبر أوكونكوو إلى حد يفوق الوصف .

فصل ٤

قال رجل عجوز :«حين ينظر المرء إلى فم ملك ، يخيل إليه أنه لم يرضع مطلقاً من ثدي أمه» . وقد تكلم ذلك العجوز عن أوكونكوو الذي ارتقى فجأة من الفقر المدقع وسوء الحظ ليصبح واحداً من سادة العشيرة . لم يحمل الشيخ ضغينة لأوكونكوو ، بل احترمه في الحقيقة لجده ونجاحه . لكنه صدم ، مثله في ذلك مثل معظم القوم ، لفظاظته في التعامل مع الناس الأقل نجاحاً . فقبل أسبوع فقط خالفة شخص في الرأي أثناء اجتماع للأقارب عقدوه لمناقشة الاحتفال بعيد الأجداد القادم . فقال أوكونكوو دون أن ينظر إلى الرجل :«إن هذا الاجتماع للرجال» . فالرجل الذي خالفه في الرأي لا يحمل أية ألقاب . لذلك السبب دعاه امرأة . إن أوكونكوو يعرف كيف يقتل روح رجل .

انحاز الجميع في اجتماع الأقارب إلى جانب أوسوجو حين دعاه أوكونكوو امرأة . وقال أكبر الرجال الحاضرين سناً بصرامة بأن أولئك الذين كَسرت روحٌ خيّرة نوى نخيلهم يجب ألا ينسوا أن يتواضعوا . اعتذر أوكونكوو على ما بدر منه ، واستؤنف الاجتماع .

لكن لم يكن صحيحاً أن روحاً خيّرة هي التي كسرت نوى نخيل أكونكوو . فقد كسرها هو نفسه . فأي إنسان يعرف صراعه المرير ضد الفقر والشقاء لم يكن يستطيع القول إنه كان محظوظاً . وإن وُجد رجل يستحق نجاحه ، فإن ذلك الرجل هو أوكونكوو . ففي سن مبكّرة ، اكتسب شهرته كأعظم مصارع في كل البلاد . ولم يكن هذا حظاً . وأقصى ما يمكن للإنسان قوله هو أن تشيّه أو إلهه الشخصي كان طيباً . لكن لدى شعب الإيبو مَثَل مفاده أن الرجل حين يقول نعم يقول تشيّه نعم أيضاً . وقد قال أوكونكوو نعم بقوة شديدة ، فوافقه تشيّه . وليس تشيّه فحسب ، بل عشيرته أيضاً ، لأنها تحكم على الرجل بناء على ما فعلته يداه . لذلك السبب اختارته القرى التسع كي ينقل إلى أعدائها رسالة حرب إلاّ إذا وافقوا على تقديم صبيّ وعذراء تكفيراً عن قتل زوجة أودو . كان خوف أعداء أوموفيا منها عميقاً إلى حد أنهم عاملوا أوكونكوو معاملة ملك وأحضروا له عذراءً منحت إلى أودو كزوجة ، والصبي إيكيميفونا .

قرر الشيوخ أن يوضع إيكيميفونا تحت رعاية أوكونكوو لفترة من الزمن . لكن أحداً لم يفكر أن الفترة ستطول إلى ثلاث سنوات . فقد بدوا أنهم نسوا كل شيء عنه فور اتخاذ القرار .

كان إيكيميفونا في البداية خائفاً جداً . حاول مرة أو مرتين الفرار ، لكنه لم يكن يعرف من أين يبدأ . فكر بأمه وأخته البالغة من العمر ثلاث سنين وبكى بحرقة . عطفت عليه أم نوويي كثيراً وعاملته كواحد من أطفالها . لكن كل ما كان يقوله : «متى سأعود إلى البيت؟» وحين سمع أوكونكوو

أنه رفض أن يأكل أي طعام ، دخل الكوخ وفي يده عصا كبيرة ووقف فوقه بينما راح الغلام يبتلع اليام وهو يرتعد . بعد لحظات ، ذهب إلى خلف الكوخ وبدأ يتقيأ متألماً . فمضت أم نوويي إليه ووضعت كفيها على صدره وظهره . مرض مدة ثلاثة أسابيع سوق ، وعندما استرد عافيته ، بدا كأنه تغلب على خوفه الشديد وحزنه .

*

كان الغلام بحكم طبيعته مفعماً بالحياة ، وقد اكتسب تدريجياً شعبية في منزل أوكونكوو ، خصوصاً لدى الأطفال . ولم يعد ابن أوكونكوو ، نوويي ، الذي كان يصغره بعامين ، يفارقه تماماً ، فقد بدا له أنه عارف بكل شيء . كان باستطاعته أن يصنع ناياً من ساق خيزران وحتى من عشب الفيل . وكان يعرف أسماء جميع الطيور وينصب فخاخاً لقوارض الآجام الصغيرة . كما كان يعرف من أي أشجار تصنع أقوى الأقواس .

حتى أوكونكوو نفسه أصبح مولعاً جداً بالغلام ـ في سريرته طبعاً . فأوكونكوو لا يبدي أبداً أي عاطفة علنية ، إلاّ اذا كانت عاطفة الغضب . فإبداء الحنان علامة على الضعف ، والشيء الوحيد الذي يستحق الإظهار هو القوة . لذلك عامل إيكيميفونا كما عامل كل شخص آخر ـ بيد ثقيلة . لكن لم يكن هناك أدنى شك في أنه أحب الغلام . فأحياناً ، حين يذهب إلى اجتماعات القرية الكبيرة أو احتفالات الأجداد الجماعية ، كان يسمح لإيكيميفونا بمرافقته ، كابن له ، حاملاً مقعده وكيسه المصنوع من جلد الماعز . وبالفعل ، دعاه إيكيميفونا أبي .

أتى إيكيميفونا إلى أوموفيا في نهاية الموسم الرغد الواقع بين الحصاد

والزرع . وقد شفي في الواقع من مرضه قبل أيام فقط من بداية أسبوع السلام . وكانت تلك أيضاً هي السنة التي انتهك فيها أوكونكوو السلام ، وعاقبه على ذلك ، كما جرت العادة ، إيزياني ، كاهن ربة الأرض .

أثارت زوجة أوكونكوو الصغرى غضبه المبرّر ، عندما ذهبت إلى بيت صديقتها كي تضفّر شعرها ، ولم تعد في وقت مبكر لتطبخ وجبة العصر . لم يعرف أوكونكوو في البداية أنها غير موجودة في البيت . وبعد أن انتظر الطبق عبثاً ، ذهب إلى كوخها ليرى ما كانت تفعله . لم يكن هناك أحد في الكوخ وكان الموقد بارداً .

سأل زوجته الثانية ، التي خرجت من كوخها لتجلب ماء من الوعاء العملاق الموضوع في ظل شجرة صغيرة في وسط مجمّع الأكواخ : «أين أوجيوجو؟»

ـ «ذهبت لتضفر شعرها» .

عضّ أوكونكوو شفتيه والغضب يجيش في صدره .

سأل بهدوء وضبط نفس غير عاديين : «أين أطفالها؟ هل أخذتهم معها؟»

أجابت زوجته الأولى ، أم نوويي : «إنهم هنا» . فانحنى أوكونكوو ونظر في داخل كوخها . كان أطفال أوجيوجو يأكلون مع أطفال زوجته الأولى .

ـ «هل طلبت منكِ إطعامهم قبل أن تذهب؟»

كذبت أم نوويي : «نعم» ، محاولةً أن تخفف من طيش أوجيوجو .

عرف أوكونكوو أنها لا تقول الحقيقة . خطا عائداً إلى أوبيّه في انتظار عودة أوجيوجو . حين عادت ، انهال عليها ضرباً بقسوة شديدة . فقد نسي في غمرة غضبه أن الأسبوع كان أسبوع السلام . ركضت زوجتاه الأوليان خارجتين من كوخيهما فزعتين وتوسلتا إليه بحرمة الأسبوع المقدّس . لكن أوكونكوو لم يكن الرجل الذي يكفّ عن ضرب شخص قبل أن ينهيه ، حتى ولا خوفاً من إلاهة .

سمع جيران أوكونكوو صراخ زوجته ، فأوصلوا أصواتهم من فوق جدران المجمّع متسائلين عن الأمر . أتى بعضهم ليجلوا الأمر بنفسهم . فلم يحدث أن سمع أحد بشخص أقدم على ضرب أي شخص في الأسبوع المقدس .

قبل حلول المغيب ، زار إيزياني ، كاهن ربه الأرض ، آني ، أوكونكوو في أوبيّه . فأحضر أوكونكوو جوزة كولا ووضعها أمام الكاهن .

-«أبعد عني جوزة الكولا . لن آكل في بيت رجل لا يكنّ احتراماً لآلهتنا وأجدادنا» .

حاول أوكونكوو أن يشرح له ما فعلته زوجته ، لكن إيزياني لم يبدِ اهتماماً بذلك . كان يحمل في يده عصا قصيرة دق بها على الأرض ليؤكد نقاطه .

قال حينما تكلم أوكونكوو :«اسمع ، أنتَ لست غريباً في أوموفيا . وأنت تعلم جيداً ، كما أعلم أنا ، أن أجدادنا قضوا بأننا ، قبل أن نزرع أية غلال في الأرض ، يجب أن نراعي حرمة أسبوع لا يوجه أي رجل فيه إلى

جاره كلمة سوء . إننا نحيا بسلام مع زملائنا تكريماً لربة الأرض العظيمة التي بلا بركتها لن تنمو غلالنا . لقد ارتكبت شراً عظيماً» . وأنزل عصاه على الأرض بشدة . «أخطأت زوجتك ، لكن ، حتى لو دخلتَ الى أوبيّك ووجدت عشيقها فوقها ، فإنك ترتكب شراً عظيماً إنْ أنتَ ضربتها» . هبطت عصاه على الأرض مرة أخرى . «إن الشر الذي ارتكبتَه يمكن أن يدمّر العشيرة بأكملها . فربة الأرض التي أهنتها قد ترفض أن تمنحنا بركتها ، فنهلك كلنا» . تغيّرت لهجته من الغضب إلى إصدار أمر . «ستحضر غداً إلى مقام آني عنزةً واحدة ودجاجة واحدة وقطعة قماش ومائة وَدَعَة» . ثم نهض وغادر الكوخ .

فعل أوكونكوو ما قاله الكاهن . حمل إليه أيضاً زقاً مليئاً بنبيذ النخيل . في أعماقه كان نادماً . لكنه لم يكن الرجل الذي يتجول مخبراً جيرانه بأنه كان مخطئاً . هكذا قال الناس عنه إنه لا يكنّ احتراماً لآلهة العشيرة . وقال أعداؤه إن حظه الحسن أدار رأسه . ودعوه بالطائر الصغير نزا الذي نسي نفسه بعد وجبة دسمة إلى حد أنه تحدّى تشيّه ، إلهه الشخصي .

لا يجري أي عمل خلال أسبوع السلام . ويزور الناس جيرانهم ويشربون نبيذ النخيل . ولم يتحدثوا في هذه السنة إلا عن النسو ـ آني الذي اقترفه أوكونكوو . إذ كانت هذه أول مرة منذ سنوات طويلة ينتهك فيها رجلٌ السلام المقدس . حتى الشيوخ لا يتذكرون سوى مناسبة أو مناسبتين مشابهتين حدثتا ذات مرة في الماضي المعتم .

راح أوجبويفي أيزيودو ، الذي كان أكبر الرجال سناً في القرية ، يخبر ضيفَيْن قدما لزيارته أن عقوبة انتهاك سلام آني أصبحت لينة جداً في عشيرتهم .

قال :«لم يكن الأمر دائماً هكذا . حدثني أبي بأنه رُوي له أن أي رجل ينتهك السلام في الماضي كان يُجر على الأرض في القرية إلى أن يموت . لكن هذه العادة أُلغيت بعد فترة ، لأنها أفسدت السلام التي قصدت أن تحافظ عليه» .

قال أحد الشابين :«أخبرني شخص أمس أنه إثم كبير في بعض العشائر أن يموت رجل خلال أسبوع السلام» .

قال أجيويفي إيزيودو :«هذا صحيح حقاً . فلدى أوبودواني تلك العادة . إذا مات رجل خلال أسبوع السلام فإنه لا يدفن بل يطرح في غابة الشر . إنها عادة سيئة يتبناها أولئك الناس لأنهم يفتقرون إلى الفهم . إنهم يطرحون أعداداً كبيرة من الرجال والنساء دون دفن . وما هي النتيجة؟ تمتلىء عشيرتهم بالأرواح الشريرة لهؤلاء الموتى غير المدفونين ، والجائعة الى إيذاء الأحياء» .

بعد أسبوع السلام ، يبدأ كل رجل وعائلته بتنظيف الغابة من الأشجار لإعداد مزارع جديدة . فتترك الشجيرات المقطوعة كيما تجفّ ثم تضرم فيها النار . حين يرتفع الدخان إلى عنان السماء ، تظهر الحدآت مقبلة من جهات مختلفة وتحلّق فوق الحقول المحترقة في وداع صامت . فالفصل الماطر يقترب وسترحل بعيداً إلى حين عودة الفصل الجاف .

أمضى أوكونكوو الأيام القليلة التالية في تهيئة بذور اليام . فحص كل حبّة يام بعناية ليقرر إنْ كانت صالحة للبذار . فيقرر أحياناً أن حبة يام معينة أكبر من أن تشكّل بذرة واحدة فيشقّها بالطول بمهارة بسكينه الحادة . وقد

ساعده ابنه البكر ، نوويي ، وإيكيميفونا بجلب اليام في سلال طويلة من المخزن وعدّ البذور المهيأة في مجموعات مكّونة من أربعمائة بذرة . في بعض الأحيان ، أعطى أوكونكوو كلاً منهما بضع حبّات من اليام لإعدادها للبذار . لكنه وجد دائماً أخطاء في عملهما ، وأشار إلى هذه الأخطاء بلهجة مفعمة بالتهديد .

سأل نوويي :«هل تعتقد أنك تقطع اليام للطبخ؟ إذا قطعت حبّة أخرى بهذا الحجم ، فسأكسر فكك . أنت تظن أنك ما زلت طفلاً . لقد بدأت أملك مزرعة حين كنت في سنك» . وقال لإيكيميفونا :«وأنتم ، ألا تزرعون اليام في المكان الذي أتيت منه؟» وأوكونكوو يعرف في أعماقه أن الأولاد ما زالوا أصغر من أن يفهموا تماماً فن إعداد بذور اليام الصعب . لكنه فكر أن الإنسان لا يستطيع أن يبدأ في وقت مبكر جداً . فاليام رمز الرجولة ، وكل مَنْ يستطيع أن يطعم عائلته اليام ، من حصاد إلى آخر ، فهو رجل عظيم حقاً . وقد أراد أوكونكوو لابنه أن يكون مزارعاً عظيماً ورجلاً عظيماً . وسيستأصل علامات الكسل المقلقة التي اعتقد أنه رآها فيه .

لن أقبل أن يكون لي ابن لا يستطيع أن يرفع رأسه عالياً في اجتماع العشيرة . وأفضّل أن أخنقه بيديّ هاتين . وإذا وقفت تحدّق فيّ على هذا النحو فسيحطم أماديورا رأسك» .

بعد بضعة أيام ، وحينما أصبحت الأرض رطبة بعد هطول المطر مرتين أو ثلاث مرات بغزارة ، ذهب أوكونكوو وعائلته إلى المزرعة ومعهم سلال بذور اليام ومجارفهم وسيوفهم ، وبدأ الزرع . أقاموا أكواماً مفرودة من الطين في خطوط مستقيمة في جميع أنحاء المزرعة وبذروا اليام فيها .

كان اليام ، ملك الغلال ، ملكاً مرهقاً جداً . فهو يتطلب عملاً شاقاً وعناية متواصلة يومياً لمدة ثلاثة أو أربعة أشهر قمرية من صياح الديك إلى حين عودة الدجاج إلى أقنانه . وتحتاج الأطراف الخضراء الوليدة إلى الحماية من حرارة الأرض بحلقات من أوراق السيسال السميكة . وحين تزداد غزارة الأمطار ، تزرع النسوة الذرة والبطيخ والفول بين أكوام اليام . ثم تسندن نبتات اليام في البداية بعصي صغيرة ، وفيما بعد ، بأغصان شجر طويلة وكبيرة . ويعشبن المزرعة ثلاث مرات من حياة اليام ، لا قبلها ولا بعدها .

ثم أتت الأمطار حقاً ، غزيرة ومتواصلة إلى حد أنه حتى صانع المطر في القرية لم يعد يدّعى بأنه قادر على التدخل . فليس بوسعه الآن إيقاف المطر ، تماماً كما لم يكن سيحاول جلبه في ذروة الموسم الجاف ، دون التعرّض لخطر شديد يداهم صحته . فالحركية الشخصية المطلوبة لمواجهة قوى تطرفات الطقس هذه أقوى بكثير من أن يتحملها الكيان البشري .

لذا لا يتدخل أحد في مجرى الطبيعة في وسط الموسم الماطر . وينصب المطر في بعض الأحيان على شكل صفائح سميكة من المياه بحيث تبدو الأرض والسماء مندمجتين في بلل كليّ واحد . عندئذ ، لا يمكن التأكد مما إذا كان هدير رعد أماديورا الخافت يأتي من الأعلى أو من الأسفل . وفي أوقات مثل هذه ، يتحلّق الأطفال في كل كوخ من الأكواخ ذات سقوف القش التي لا يحصيها العدّ في أوموفيا ، حول نار طبخ

أمهاتهم ويروون الحكايات ، أو يجلسون مع آبائهم في أكواخهم يستمدون الدفء من نيران الحطب ، ويشوون ويأكلون الذرة . وتلك فترة راحة قصيرة بين فصلِ الزرع المرهق الشاق وشهر الحصاد الذي لا يقل عنه إرهاقاً ، لكنه شهرٌ غلال عامر بالمسَّرة .

بدأ إيكيميفونا يحسّ كأنه واحد من أفراد أسرة أوكونكوو . وقد ظلّ يفكر بأمه واخته البالغة من العمر ثلاث سنوات ، فتنتابه لحظات من الحزن والانقباض . لكنه أصبح ونوويي متعلقين أحدهما بالآخر بعمق شديد إلى حد أن أصبحت مثل تلك اللحظات أقل تكرراً وأخف إيلاماً . كان لدي إيكيميفونا معين لا ينضب من الحكايات الشعبية . حتى تلك التي كان نوويي يعرفها من قبل كانت تروى بنضارة جديدة ونكهة محلية لعشيرة مختلفة . وقد ظل نوويي يذكر هذه الفترة بحيوية شديدة حتى نهاية حياته . ويذكر حتى كيف ضحك عندما أخبره إيكيميفونا أن الإسم الصحيح لكوز الذرة المشتمل على حبّات قليلة متفرقة هو ايزي - أجادي - نوايي ، أو أسنان امرأة عجوز . واتجه ذهن نوويي فوراً إلى نوايكي ، التي كانت تعيش إلى جوار شجرةٍ يودالا . فقد كانت لها ثلاثة أسنان فقط وتدخن غليونها دائماً .

تدريجياً ، خف المطر وتباعدت فترات هطوله ، وعادت السماء والأرض إلى الانفصال مرة أخرى . وسقط المطر رذاذاً رقيقاً ومائلاً بين أشعة الشمس والنسيم الهادىء . لم يعد الأطفال يمكثون في داخل بيوتهم بل راحوا يتراكضون في الجوار منشدين :

«المطر يهطل ، الشمس تشرق ،

ونادي Nnadi يطبخ ويأكل وحده» .

وقد تساءل نوويي دائماً مَنْ يكون نادي هذا ولماذا يعيش وحيداً ، يطبخ ويأكل . في النهاية ، قرر أن لا بد أن نادي يعيش في أرض قصة إيكيميفونا المفضّلة تلك ، حيث النمل يقيم مملكة رائعة والرمال ترقص دائماً وأبداً .

فصل ٥

كان عيد اليام الجديد يقترب وأموفيا في مزاج احتفالي . كان هذا العيد مناسبة لتقديم الشكر إلى آني ، ربة الأرض ومصدر كل الخصب . فآني تلعب في حياة القوم دوراً أكبر من دور أيّ من الآلهة الأخرى . فقد كانت الحكَم النهائي في قضايا الأخلاق والسلوك . والأهم من ذلك أنها كانت على اتصال وثيق بآباء العشيرة الراحلين الذي أودعت أجسامهم الأرض .

كان عيد اليام الجديد يجري كل سنة قبل بدء الحصاد لتكريم ربة الأرض وأرواح أجداد العشيرة . ولا يمكن أكل اليام الجديد قبل تقديم نصيب منه إلى تلك القوى . وكان الرجال والنساء ، صغاراً وكباراً ، يتطلعون بشوق إلى مهرجان اليام الجديد لأنه يمثل بداية موسم الوفرة ـ السنة الجديدة . في الليلة الأخيرة السابقة للمهرجان ، يتخلص الجميع من يام العام الماضي المتبقي في حوزتهم . فالعام الجديد يجب أن يبدأ بيام طازج حلو المذاق ، وليس بمحصول السنة الماضية المنكمش المتليّف . فتغسل جيداً جميع قدور الطبخ ، وأوعية القرع والطاسات الخشبية ، وخاصة الهاونات الخشبية التي يسحق فيها اليام . ويكون فو ـ فو اليام مع

حساء الخضار الطبق الرئيسي في الاحتفال . فتطهى كميات كبيرة من ذلك إلى حد أنه مهما أكلت العائلة ومهما أكل الأصدقاء الكثيرون والأقارب المدعوون من القرى المجاورة ، فإن كميات كبيرة منه تبقى في نهاية النهار . وتروى دائماً قصة رجل غني وضع أمام ضيوفه كومة من الفو ـ فو ، مرتفعة إلى حد أن الجالسين في جانب منها لم يتمكنوا من رؤية ما كان يحدث في الجانب الآخر ، وأن أحدهم رأى أول مرة صهره الذي حضر أثناء الوليمة وجلس في الجانب الآخر في ساعة متأخرة من المساء فقط . عندئذ فقط ، تبادلا التحية وتصافحا فوق ما تبقى من الطعام .

لذا كان مهرجان اليام الجديد مناسبة بهيجة في جميع أنحاء أمووفيا . وكان يتوقع من كل رجل قوي الذارع ، كما يقول شعب الإيبو ، أن يدعو أعداداً كبيرة من الضيوف من النواحي البعيدة والواسعة . وكان أوكونكوو دائماً يدعو أقارب زوجاته ، ولأن لديه الآن ثلاث زوجات ، يشكل ضيوفه مجموعة كبيرة إلى حد ما .

لكن أوكونكوو ، على نحو ما ، لا يتحمس أبداً كثيراً للأعياد كغالبية الناس . كان أكولاً جيداً وفي وسعه شرب قرعة أو قرعتين كبيرتين مليئتين بنبيذ النخيل . لكنه كان دائماً يحسّ بعدم الارتياح لتبطله عدة أيام في انتظار وليمة والانتهاء منها . فهو سيكون أسعد كثيراً جداً وهو يعمل في مزرعته .

بقي على حلول المهرجان ثلاثة أيام فقط . ففركت زوجات أوكونكوو الجدارن والأكواخ بالتراب الأحمر إلى أن عكست النور . ثم رسمن عليها أشكالاً بالأبيض والأصفر والأخضر الداكن . ثم بدأن بصبغ أنفسهن بخشب الكام ورسمن أشكالاً سوداء جميلة على بطونهن وظهورهن .

وزّين الأطفال أيضاً ، خصوصاً شعورهم التي قصت بأشكال بديعة . وتحدثت النسوة بانفعال عن أقاربهن الذين دُعوا ، وتقافز الأطفال فرحاً وهم يفكرون بتدليل زوارهم القادمين من وطن أمهاتهم لهم . انفعل إيكيميفونا أيضاً بنفس المقدار . وبدا مهرجان اليام الجديد في نظره حدثاً أكبر بكثير هنا مما هو عليه في قريته ، التي أصبحت مكاناً نائياً وغامضاً في مخيلته .

ثم انفجرت العاصفة . فجأة ، وجد أكونكوو ، الذي كان يتسكع على غير هدى في مجمّع أكواخه ، كاظماً غيظه ، متنفساً لغضبه .

سأل :«مَنْ قتل شجرة الموز هذه؟» .

خيم صمت على مجمّع الأكواخ فوراً .

ـ «مَنْ قتل هذه الشجرة؟ أم أنكم كلكم صمّ بكمّ؟»

كانت الشجرة في الحقيقة مفعمة بالحياة . لكن زوجة أوكونكوو الثانية قطفت أوراقاً قليلة منها فقط لتلفّ بها بعض الطعام ، ذكرت ذلك . وبلا أية مناقشة ، أوسعها أوكونكوو ضرباً وانصرف عنها هي وابنتها الوحيدة وهما تبكيان . لم تتجرأ أي من الزوجتين الأخريين على التدخل بأكثر من ترديد عرضي ومتردد متوسلتين إليه من مسافة معقولة :«يكفي هذا يا أوكونكوو» .

بعد أن شفى أوكونكوو غليله على هذا النحو ، قرر الخروج إلى الصيد . كانت لديه بندقية عتيقة صدئة صنعها حدّاد ماهر عاش في أوموفيا قبل أمد بعيد . لكن أوكونكوو ، رغم أنه كان رجلاً عظيماً يعترف الجميع بجسارته ، لم يكن صياداً . فهو في الحقيقة لم يقتل ببندقيته فأراً .

لذا ، عندما نادى على إيكيميفونا ليحضر له بندقيته ، تمتمت زوجته ، التي انتهى لتوه من ضربها ، بشيء عن بنادق لم تصب هدفها أبداً . ولسوء حظها سمعها أوكونكوو ، فركض بجنون داخلاً غرفته بحثاً عن البندقية المعبأة ، ثم خرج راكضاً وصوّبها نحوها وهي تتسلق بارتباك سور المخزن الواطىء . ضغط على الزناد فانطلق صوت انفجار عال اقترن بعويل زوجاته وأطفاله . ثم رمى البندقية من يده وقفز إلى داخل المًخزن ، وهناك كانت المرأة تستلقي مرتعدة الفرائص ومرتعبة لكن دون أن تصاب بأذى . فأطلق تنهيدة عميقة ومضى مع بندقيته .

على الرغم من هذه الحادثة ، جرى مهرجان اليام الجديد في دار أوكونكوو بفرح كبير . في صباح ذلك اليوم الباكر ، حين قدّم قربانه من اليام الجديد وزيت النخيل لأجداده ، طلب منهم أن يحموه ويحموا أطفاله وأمهاتهم في السنة الجديدة .

في أثناء النهار ، وصل أصهاره من القرى الثلاث المجاورة ، وجلب كل فريق معه زقاً ضخماً من نبيذ النخيل . دار الطعام والشراب حتى حلول الليل ، حينما بدأ أصهار أوكونكوو يرحلون قاصدين بيوتهم .

كان اليوم الثاني من السنة الجديدة يوم مباراة المصارعة الكبرى بين قرية أوكونكوو والقرى المجاورة . من الصعب القول أي المناسبتين يتمتع بها القوم أكثر ـ الولائم والزمالة في اليوم الأول أم مباريات المصارعة في اليوم الثاني . لكن امرأة واحدة لم يخامرها شك أبداً في ذلك . كانت هذه المرأة زوجة أوكونكوو الثانية ، إيكويفي ، التي كاد أن يقتلها بطلقة البندقية . فلم يكن ثمة مهرجان في جميع مواسم السنة يبعث في قلبها

السرور مثل مباراة المصارعة . فقبل سنوات طويلة ، عندما كانت غادة القرية ، أسر أوكونكيوو قلبها بتغلبه على الهرّ في أعظم مباراة تعيها الذاكرة الحيّة . ولم تتزوجه آنذاك لأنه كان أفقر من أن يدفع مهر زواجها . لكنها هربت بعد بضع سنوات من بيت زوجها ، وأتت لكي تعيش مع أوكونكوو . حدث كل هذا منذ سنوات عديدة جداً . وإيكويفي الآن امرأة في الخامسة والأربعين من العمر قاست كثيراً في حياتها . لكن حبها لمباريات المصارعة ظل قوياً مثلما كان قبل ثلاثين عاماً .

لم يكن ظهر اليوم الثاني من مهرجان اليام الجديد قد حلّ بعد . فجلست إيكويفي وابنتها الوحيدة ، إيزينما ، قرب النار في انتظار غليان الماء في القدْر . كانت الدجاجة التي ذبحتها إيكويفي لتوها موضوعَةً في الهاون الخشبيّ . بدأ الماء يغلي ، وبحركة سريعة واحدة رفعت إيكويفي القدر عن النار وصبت الماء الغالي فوق الدجاجة . ثم أعادت القدر الفارغ إلى الحشية المستديرة في الركن ، ونظرت إلى راحتَّي يديها اللتين أسود لونهما من السخام . كانت إيزينما تدهش دائماً لقدرة أمها على رفع القدر عن النار بيديها العاريتين .

قالت : «إيكويفي ، هل صحيح أن الناس عندما يكبرون لا تحرقهم النار؟» كانت إيزينما ، خلافاً لمعظم الأطفال ، تنادي أمها باسمها .

أجابت إيكويفي ، وهي مشغولة جداً إلى حد لا يسمح لها في المجادلة : «نعم» . كانت ابنتها في العاشرة من العمر ، لكنها كانت أنضج من عمرها .

- «لكن أم نوويي أوقعت قدر حساء ساخن في ذلك اليوم وانكسر على الأرض» .

قلبت إيكويفي الدجاجة في الهاون وبدأت تنتف الريش .

قالت إيزينما التي انضمت إليها في نتف الريش : «إيكويفي ، جفوني ترّف» .

قالت أمها : «هذا يعني أنك ستبكين» .

قالت إيزينما : «كلا ، إنه هذا الجفن ، الأعلى» .

- «هذا يعني أنك سترين شيئاً» .

سألت : «ماذا سأرى؟»

أرادت إيكويفي منها أن تستنتج بنفسها : «كيف أعرف؟» .

قالت إيزينما أخيراً : «أوهو . أعرف ما هو - مباراة المصارعة» .

أخيراً ، نظّفت الدجاجة . حاولت إيكويفي أن تقتلع منقارها ، لكنه كان قاسياً جداً . استدرات ، وهي على مقعدها الواطىء ، ووضعت المنقار في النار لبضع لحظات . ثم شدته ثاني فخرج بيدها .

نادى صوت من أحد الأكواخ الأخرى : «إيكويفي»» كان صوت أم نوويي ، زوجة أوكونكوو الأولى .

صاحت إيكويفي مجيبة :«هل تلك أنا؟» . فتلك هي الطريقة التي يجيب فيها الناس على النداءات الصادرة من الخارج . إنهم لا يجيبون أبداً بنعم خوفاً من أن يكون المنادي روحاً شريرة .

ـ«هل تعطي إيزينما قليلاً من النار لتحضرها إليّ؟»

كان أطفالها وإيكيميفونا قد ذهبوا إلى الجدول .

وضعت إيكويفي بضع فحمات مشتعلة في قطعة قدْر مكسور فحملتها إيزينما عبر المجمّع النظيف المكنوس إلى أم نوويي .

قالت :«شكراً يا نما» . كانت تقشّر حبات يام جديد ، وبجوارها سلة فيها خضار طازجة وفول .

عرضت إيزينما :«دعيني أشعل لك النار» .

قالت : «شكراً يا إيزيجبو» . كانت غالباً ما تناديها إيزيجبو ، وتعني «الفتاة الطيبة» .

مضت إيزينما إلى الخارج وجلبت بضعة أعواد من كومة حطب ضخمة . كسرتها إلى قطع صغيرة بباطن قدمها وبدأت تشعل ناراً ، نافخة فيها من أنفاسها .

قالت أم نوويي ، وهي ترفع بصرها عن اليام الذي كانت تقشره : «ستنفخين عينيك وتطفئيهما . استعملي المروحة» . ثم نهضت واقفة وسحبت المروحة المعلقة في إحدى دعائم السقف . حالما نهضت ، غرزت العنزة المشاغبة ، التي كانت تأكل بإذعان قشر اليام ، أسنانها في اليام نفسه ، وانتزعت لقمتين وفرّت من الكوخ لتمضغ ما انتزعته في سقيفة الماعز . شتمتها أم نوويي وعادت لتستقر جالسة وتقشر اليام . أرسلت النار التي أشعلتها إيزينما سحب دخان كثيفة . استمرت في تهويتها بالمروحة إلى أن اندلع اللهب . شكرتها أم نوويي وعادت إيزينما إلى كوخ أمها .

في تلك اللحظة تماماً ، بدأ قرع الطبول البعيد يصل إلى سمعهم آتياً من ناحية الإيلو ، ملعب القرية . كان لكل قرية إيلو ، قديم قدم القرية نفسها ، تجري على أرضه جميع الاحتفالات والرقصات الكبيرة . قرعت الطبول إيقاع رقصة المصارعة الذي لا تخطئه الأذن ـ سريعاً وخفيفاً ومرحاً ، فأتى طافياً على الريح .

سلّك أوكونكوو حلقه وحرّك قدميه على إيقاع قرع الطبول . فهو يشعل فيه النار كما ظلّ يشعلها منذ شبابه . ارتعش بشهوة القهر والإخضاع . كان كالرغبة في امرأة .

قالت إيزينما لأمها :«سنتأخر عن المصارعة» .

ـ «لن يبدأوا قبل أن تغيب الشمس» .

ـ «لكنهم يقرعون الطبول» .

ـ «نعم . الطبول تبدأ ظهراً ، لكن المصارعة تنتظر حتى تبدأ الشمس بالغروب . إذهبي وانظري إذا كان أبوك قد أخرج اليام لوجبة بعد الظهر» .

ـ «أخرجها . وأم نوويي بدأت الطبخ» .

ـ «إذهبي وأحضري حصتنا إذن . يجب أن نطبخ بسرعة وإلا تأخرنا عن المصارعة» .

ركضت إيزينما في اتجاه المخزن وأحضرت حبتين من اليام من فوق الجدار الواطىء .

قشرت إيكويفي اليام بسرعة . تشممت العنزة المشاكسة حواليها ، وراحت تأكل القشور . ثم قطعت إيكويفي اليام إلى قطع صغيرة وبدأت

تعدّ حساء، مستخدمة جزءاً من الدجاجة .

في تلك اللحظة، سمعتا شخصاً يبكي خارج مجمّعهما تماماً . كان الصوت شبيهاً جداً بصوت أوبياجيلي، أخت نوويي .

صاحت إيكويفي عبر الفناء موجهة حديثها إلى أم نوويي :

ـ «أليست هذه أوبياجيلي تبكي؟»

أجابت :«نعم . لا بد أنها كسرت جرّتها» .

اقترب البكاء الآن كثيراً، وسرعان ما دخل صفّ الأطفال، وهم يحملون على رؤوسهم جراراً مختلفة الأحجام ومناسبة لأعمارهم . دخل إيكيميفونا أولاً ومعه الجرّة الكبرى، وتبعه مباشرة نوويي ثم أخواه الأصغران . أتت أوبياجيلي في المؤخرة، وعلى وجهها تسيل دموع . وفي يدها حشيّة القماش التي من المفروض أن توضع عليها الجرة وهي على رأسها .

سألت أمها :«ماذا حدث؟»، روت لها أوبياجيلي قصتها المحزنة . فواستها أمها ووعدتها بشراء جرّة أخرى .

همّ أخوا نوويي الصغيران بإخبار أمهما بالقصة الحقيقية، لكن إيكيميفونا حدجهما بنظرة صارمة، فأمسكا لسانيهما . الحقيقة أن أوبياجيلي ظلّت تقوم بحركة الإينيانجا وهي تحمل جرتها . فوازنت الجرّة على رأسها، وطوت ذراعيها على صدرها وبدأت تهزّ خصرها كسيدة صغيرة ناضجة . وحين وقعت الجرة وانكسرت، انفجرت ضاحكة . ولم تشرع بالبكاء إلا عندما اقتربوا من شجرة الإيروكو خارج مجمّع أكواخهم .

كانت الطبول لا تزال تقرع ، ملحّة وبلا تغيير . لم يعد الصوت منفصلاً عن القرية المفعمة بالحياة . كان كنبض قلب القرية . يخفق في الجو ، في أشعة الشمس ، وحتى بين الأشجار ، ويملأ القرية بالإثارة .

صبّت إيكويفي نصيب زوجها من الحساء في طاسة وغطتها . وحملتها إيزينما إليه في أوبيّه .

كان أوكونكوو جالساً على جلد ماعز يتناول وجبة زوجته الأولى . جلست أوبياجيلي ، التي أحضرت هذه الوجبة من كوخ أمها ، على الأرض في انتظار انتهائه منها . ووضعت إيزينما طبق أمها أمامه وجلست مع أوبياجيلي .

صاح أوكونكوو عليها :«إجلسي كامرأة !» . فضمّت إيزينما ساقيها ومدتهما أمامها .

سألت إيزينما بعد فترة مناسبة :«أبي ، هل ستذهب لتشاهد المصارعة؟»

أجاب : «نعم . هل ستذهبين أنتِ؟»

ـ «نعم» .

بعد صمت قصير سألت :«هل أستطيع أن أحضر مقعدك؟»

ـ «لا ، هذه مهمة صبي» .

كان أوكونكوو مولعاً بإيزينما بصفة خاصة . فهي تبدو شديدة الشبه بأمها التي كانت ذات مرة فاتنة القرية . لكن ولعه يظهر في مناسبات نادرة جداً فقط .

قالت إيزينما : «كسرت أوبياجيلي جرتها اليوم» .

قال أوكونكوو بين لقمة وأخرى :«نعم ، أخبرتني بذلك» .

قالت أوبياجيلي :«أبي ، يجب ألا يتكلم الناس وهم يأكلون وإلا دخل الفلفل في المجرى الخطأ» .

ـ «هذا صحيح جداً . هل سمعتِ ذلك يا إيزينما؟ إنك أكبر من أوبياجيلي لكنها أعقل منك» .

كشف الغطاء عن طبق زوجته الثانية وبدأ يأكل منه . أخذت أوبياجيلي الطبق الأول وعادت إلى كوخ أمها . ثم دخلت نكيتشي ، حاملة الطبق الثالث . كانت نكيتشي ابنة زوجة أوكونكوو الثالثة .

من بعيد ، استمر قرع الطبول .

فصل ٦

احتشدت القرية بأكملها في الإيلو ، رجالاً ونساءً وأطفالاً . وقفوا في دائرة واسعة تاركين وسط الملعب خاوياً . جلس شيوخ وعظماء القرية على كراسيهم التي أحضرها إلى هناك أبناؤهم الشباب أو عبيدهم . كان أوكونكوو بينهم . أما البقية فكانوا واقفين ما عدا أولئك الذين حضروا مبكّرين جداً ليؤمنوا أماكن على المنصّات القليلة المصنوعة من زنود خشبية ملساء مرتكزة إلى دعائم متقطاعة .

لم يكن المصارعون قد وصلوا بعد ، فظلّ قارعو الطبول سادة الموقف . وقد جلسوا هم أيضاً أمام دائرة المشاهدين الواسعة ، يواجهون الشيوخ . انتصبت خلفهم شجرة القطن الحريريّ العتيقة الضخمة التي كانت مقدسة . فأرواح الأطفال الطيّبين تعيش فيها في انتظار أن يولدوا . وفي الأيام العادية ، تأتي النسوة الشابات الراغبات في الأطفال ليجلسن في ظلها .

كانت هناك سبعة طبول موزعة وفقاً لأحجامها في سلال خشبية طويلة . راح يقرع عليها ثلاثة رجال بعصيّ خشبية ، متنقلين من طبل إلى آخر على نحو محموم . لقد تلبستهم روح الطبول . اندفع الشباب الذين

يحافظون على النظام ، في مناسبات كهذه ، هنا وهناك ، وهم يتشاورون فيما بينهم ومع قائدي فريقي المصارعة اللذين كانا لا يزالان خارج الدائرة خلف الجمهور . بين فترة وأخرى ، يجرى شابان ، يحملان سعف النخيل ، حول الدائرة الداخلية ويعملان على دفع الجمهور إلى الخلف بضرب الأرض أمامهم ، وضرب سيقانهم ، إنْ ظلّوا عنيدين .

أخيراً ، دخل الفريقان إلى الدائرة وهم يرقصون ، فضج الجمهور بالهتاف والتصفيق . تعالى قرع الطبول إلى حد الجنون . وتماوج الناس مندفعين إلى الأمام . تراكض الشابان المكلّفان بحفظ النظام بسرعة ، ملوّحين بسعف نخيلهم . هزّ الشيوخ رؤوسهم على خفق الطبول وتذكروا أيام شبابهم عندما تصارعوا على إيقاعها المسكر .

بدأت مباريات المصارعة بفتيان الخامسة أو السادسة عشر . كان هناك ثلاثة فتيان فقط من هذا العمر في كل فريق . لم يكن هؤلاء المصارعين الحقيقيين ، بل كانوا هم الذين يهيئون المشهد فقط . انتهت المباراتان الأوليان خلال فترة قصيرة . لكن المباراة الثالثة أثارت ضجة كبيرة حتى بين الشيوخ الذين اعتادوا على ألاّ يظهروا انفعالهم على هذا النحو المكشوف . كانت مباراة سريعة مثل المباراتين الأخريين ، وربما حتى أسرع . لكن قليلاً جداً من الناس شاهدوا ذلك النوع من المصارعة من قبل . فحالما التحم الفتيان ، قام أحدهما بحركة لم يستطع أحد وصفها لأنها كانت سريعة كوميض . وقع الآخر مطروحاً على ظهره . زأر الجمهور وصفق ، فأغرق هذا قرع الطبول المسعور للحظة من الزمن . هبّ أوكونكوو واقفاً على قدميه وعاود الجلوس بسرعة . اندفع ثلاثة شبان من فريق الفتى المنتصر إلى الأمام ، فحملوه على أكتافهم ورقصوا

مخترقين صفوف الجمهور المهلل . وسرعان ما عرف الجميع مَنْ هو الفتى . كان اسمه مادوكا ، إبن أوبيريكا .

توقف قارعو الطبول لفترة استراحة قصيرة قبل المباريات الحقيقية . كانت أجسادهم قد التمعت بالعرق ، فتناولوا المراوح وبدأوا يروّحون على أجسادهم . شربوا ماء أيضاً من جرار صغيرة وأكلوا جوز كولا . عادوا مرة أخرى كائنات بشرية عادية ، يتحدثون ويضحكون فيما بينهم ومع آخرين واقفين قربهم . تراخى الجو الذي كان مشدوداً بالانفعال . بدت الحال كأن ماء صب فوق جلد طبل مشدود . مال كثير من الناس بأنظارهم حولهم ، ربما للمرة الأولى ، فرأوا الواقفين أو الجالسين إلى جوارهم .

قالت إيكويفي للمرأة التي وقفت إلى جانبها كتفاً إلى كتف منذ بداية المباريات :«لم أعرف أن هذه أنتِ» .

قالت المرأة :«لا ألومك ، فأنا لم أر في حياتي مثل هذا الجمهور الكبير من الناس . هل صحيح أن أوكونكوو كاد أن يقتلك ببندقيته؟» .

ـ«هذا صحيح حقاً يا صديقتي العزيزة . ولا أزال عاجزة عن العثور على كلمات مناسبة لرواية القصة» .

ـ«إن التشي الذي يحرسك يقظ جداً يا صديقتي . وكيف حال ابنتي ، إيزينما؟»

ـ« ظلّت بصحة جيدة منذ فترة من الوقت . ربما أتت لتبقى» .

ـ «أعتقد ذلك . كم عمرها الآن؟»

ـ «حوالي عشر سنوات» .

ـ«أعتقد أنها سوف تبقى . فهم عادة يبقون إذا لم يموتوا قبل السادسة» .

قالت إيكويفي وهي تتنهد بعمق : «أدعو الآلهة أن تبقيها» .

كان اسم المرأة ، التي تكلمت ، تشيلو . وهي كاهنة أجبالا ، وحي التلال والكهوف . كانت تشيلو في حياتها العادية أرملة وأماً لطفلين . إنها صديقة عزيزة لإيكويفي وتشتركان معاً في سقيفة واحدة في السوق . وهي مولعة بصفة خاصة بابنة إيكويفي الوحيدة ، إيزينما ، التي تدعوها «بنيّتي» . وكثيراً ما ابتاعت كعكاً وأعطته إلى إيكويفي لتقدمه إلى إيزينما في البيت . ومَنْ يشاهد تشيلو في حياتها العادية لا يكاد يصدّق أنها نفس الشخص الذي يلقي بنبوآته حينما تتقمصها روح أجبالا .

عاد قارعو الطبول ورفعوا عصيهم ، فارتعش الجو وتوتر مثل قوس مشدود .

اصطف الفريقان يواجهان بعضهما بعضاً عبر الخلاء . تقدم أحد الشبان من أحد الفريقين ورقص في وسط الملعب ثم اتجه نحو الجانب الآخر وأشار إلى الذي يريد أن يصارعه . رقص الاثنان عائدين إلى الوسط معاً والتحما .

كان هناك اثنا عشر رجلاً في كل جانب ، فجرى التحدي من جانب إلى آخر . تجول حكمان حول المتصارعين ، وحين رأيا أنهما متكافئان ، أوقفاهما . انتهت خمس مباريات على هذا النحو . لكن اللحظات المثيرة حقاً كانت حين يُطرح رجل أرضاً . فيرتفع صوت الجمهور الهائل ويشقّ عنان السماء منتشراً في جميع الاتجاهات . كان هذا الصوت يُسمع حتى في القرى المجاورة .

كانت المباراة الأخيرة بين قائديّ الفريقَين . وهما من أفضل المصارعين في جميع القرى التسع . وتساءل الجمهور مَنْ الذي سيطرح الثاني أرضاً هذه السنة . قال البعض إن أوكافو هو الأفضل ، وقال الآخرون إنه ليس نداً لإيكيزوي . ففي السنة الماضية ، لم يتمكن أي منهما طرح الآخر أرضاً رغم أن الحكمين سمحا في استمرار المباراة لفترة أطول من العادة . كانا يستخدمان نفس الأسلوب ويرى الواحد منهما خطط الآخر سلفاً . وقد يتكرر هذا ثانية في هذه السنة .

أخذ الغسق يقترب حين بدأت مباراتهما . جنّ جنون الطبول وجنّ الجمهور معها . تدافع الناس إلى الأمام بينما رقص الشابان متجهين إلى داخل الدائرة . وعجزت سعف النخيل عن ردهم إلى الوراء .

مدّ إيكيزوي يده اليمنى . فقبض عليها أوكافو ، والتحما . كانت مباراة شرسة . حاول إيكيزوي جاهداً أن يغرس عقبه اليمنى خلف أوكافو كي يقذف به إلى الوراء وفقاً لطريقة إيجي الماهرة . لكن الواحد منهما كان يعرف ما يفكر فيه الآخر . أحاط الجمهور بقارعي الطبول وابتعلهم ، ولم يعد إيقاعهم المسعور مجرد صوت محض بل خَفْق قلب الناس بالذات .

سكن المتصارعان الآن تقريباً وكل منهما في قبضة الآخر . برزت العضلات في أذرعهما وأفخاذهما وظهريهما وارتعشت . بدا الأمر أنها مباراة متكافئة . وراح الحكمان يتقدمان إلى الأمام لكي يفصلا بينهما حين ركع إيكيزوي ، الذي سيطر عليه اليأس الآن ، بسرعة على إحدى ركبتيه في محاولة للإطاحة بخصمه إلى الخلف فوق رأسه . كانت تلك الحركة غلطة حساب محزنة . ففي مثل سرعة برق أماديورا ، رفع أوكافو ساقه اليمنى ومرّ بها فوق رأس منافسه . انفجر الجًمهور بهدير مرعد . ثم رفع

أنصار أوكافو بطلهم عن الأرض وحملوه على أكتافهم إلى البيت . غنّوا تمجيداً له وصفقت الصبايا : «من سيصارع من أجل قريتنا؟

أوكافو سيصارع من أجل قريتنا .

هل طرح مائة رجل؟

طرح أربعمائة رجل .

هل طرح مائة هرّ؟

طرح أربعمائة هرّ .

أطلبوا منه إذن أن يقاتل من أجلنا» .

فصل ٧

عاش إيكيميفونا في منزل أوكونكوو ثلاث سنوات ، وبدا أن شيوخ أومووفيا نسوا كل شيء عنه . وقد كبر بسرعة مثل ساق يام خضراء في الموسم الماطر ، وامتلأ بنسغ الحياة . انغمس تماماً في عائلته الجديدة ؛ فكان مثل أخ أكبر لنوويي ، حيث بدا منذ البداية كأنه أوقد ناراً جديدة في الصغير . فقد جعله يحس بأنه أصبح راشداً ، ولم يعودا بمضيان الأمسيات في كوخ الأم وهي تطبخ الطعام ، بل يجلسان مع أوكونكوو في أوبيّه ، أو يراقبانه وهو يبزل النخلة من أجل نبيذ المساء . لم يعد أي شيء يبعث السرور في قلب نوويي الآن أكثر من أن ترسل أمه أو زوجة أخرى من زوجات أبيه في طلبه كي يؤدي واحدة من تلك المهام الصعبة والذكورية في البيت ، مثل تكسير الحطب ، أو سحق الطعام . وحين يتلقى نوويي دعوة كهذه عن طريق أخ أو أخت أصغر ، كان يتظاهر بالانزعاج ويتذمر بصوت مرتفع من النساء ومتاعبهن .

كان أوكونكوو مسروراً في أعماقه من التطور الذي طرأ على ابنه ، وعرف أن الفضل في هذا يعود إلى إيكيميفونا . فقد أراد لنوويي أن يكبر

ويصبح شاباً صلباً قادراً على إدارة بيت أبيه بعد رحيله والتحاقه بالأجداد . وأراد له أن يصبح رجلاً مزدهر الحال ، يملك في مخزنه ما يكفي ليغذي الأجداد بالقرابين بانتظام . لذلك كان دائماً يحسّ بالسعادة عندما يسمع ابنه يتذمر من النساء . فهذا يبين أنه سيكون قادراً على التحكم بنسائه في الوقت المناسب . فمهما كان الرجل ناجحاً ، لن يكون رجلاً حقاً إذا عجز عن التحكم في نسائه وأطفاله (وخصوصاً نسائه) . سيكون مثل الرجل في الأغنية ، الرجل الذي كانت لديه عشر زوجات وزوجة واحدة وليس لديه ما يكفي من الحساء لِفو ـ فو ـ ه .

هكذا شجع أوكونكوو الغلامَيْن على الجلوس معه في أوبيّه ، وروى لهما حكايات الأرض ـ حكايات ذكورية حافلة بالعنف وسفك الدماء . عرف نوويي أن من الصواب أن يكون الانسان ذكراً وأن يكون عنيفاً ، لكنه ظلّ ، على نحو ما ، يفضل الحكايات التي اعتادت أمه أن تحكيها ، ولا تزال بلا شك تحكيها لأطفالها الصغار ـ حكايات السلحفاة وطرقها الماكرة ، والطائر إينيكي ـ نتي ـ أوبا الذي تحدى جميع العالم في مباراة مصارعة ليطرحه الهرّ أرضاً في النهاية . تذكر الحكاية التي رددتها أمه كثيراً حول الشجار الناشب بين الأرض والسماء في الماضي السحيق ، وكيف أن السماء حبست المطر سبع سنوات ، إلى أن ذبلت المحاصيل ولم يعد بالإمكان دفن الموتى لأن المجارف كانت تتكسر على الأرض المتحجرة . في النهاية ، أرسلت الأرض النسر ليتوسط لدى السماء ، ويرقق قلبها بأغنية عن معاناة أبناء الرجال . كلما غنت أم نوويي هذه الأغنية ، كان

يحسّ نفسه محمولاً إلى المشهد البعيد في السماء حيث غنّى النسر ، مبعوث الأرض ، طالباً الرحمة . أخيراً ، تحرك قلب السماء بالشفقة ، وأعطت النسر المطر ملفوفاً بأوراق الكوكو ـ يام . لكن ، وفيما هو يطير متجهاً نحو الوطن ، مزّقت مخالبه الطويلة أوراق الشجر وهطل المطر كما لم يهطل من قبل . هطل على النسر بغزارة إلى حد أنه لم يرجع لتسليم الرسالة بل طار إلى أرض بعيدة لمح فيها ناراً . حين وصل إليها ، وجد أنها نار رجل يقدّم قرباناً . فتدفأ بلهبها وأكل أمعاء القربان .

ذلك هو نوع الحكايات الذي أحبّه نوويي . لكنه بات يعرف الآن أنها حكايات للنساء والأطفال الحمقى ، ويعرف أن أباه يريده أن يكون رجلاً . لذلك تظاهر بأنه لم يعد مهتماً بحكايات النساء . وحين أظهر ذلك ، رأى أن أباه سُـرّ ، ولم يعد يوبخه أو يضربه . هكذا راح نوويي وإيكيميفونا يستمعان إلى حكايات أوكونكوو عن حروب قبلية ، أو كيف أنه ، قبل سنوات طويلة ، طارد ضحيته وقهرها وحصل على رأسه البشري الأول . في أثناء حديثه عن الماضي ، كانوا يجلسون في العتمة أو في وهج الحطب المعتم في انتظار انتهاء النساء من طبخهن . وحين ينتهين ، كانت كل واحدة تحضر طاسة من الفو ـ فو وطاسة من الحساء إلى زوجها . فيضاء مصباح زيت ، ويذوق أوكونكوو الطعام من كل طاسة ، ثم يقدّم نصيباً منه إلى نوويي وإيكيميفونا .

على هذا النحو مرت الأقمار والمواسم . ثم أتى الجراد . وهو أمر لم يحدث منذ سنين طويلة عديدة . قال الشيوخ إن الجراد يأتي مرة في كل

جيل ، ويظهر كل سنة لمدة سبعة أعوام ثم يختفي حتى جيل آخر . فيعود إلى كهوفه في أرض بعيدة ، حيث يحرسها جنس من رجال أقزام . وبعد مرور جيل يفتح أولئك الأقزام الكهوف مرة أخرى فيأتي الجراد إلى أوموفيا .

وقد أتى في موسم رياح الحرور/ الهارماتان القارسة بعد جمع المحاصيل ، وأكل العشب البريّ في الحقول .

كان أوكونكوو والصبيان يعملون في إصلاح أسوار المجمّع الخارجية الحمراء . كان هذا أحد الأعمال السهلة التي يجري إنجازها بعد انتهاء موسم الحصاد . إذ كانت الجدران تغطى بطبقة سميكة جديدة من أغصان وأوراق النخيل من أجل وقايتها من فصل الأمطار القادم . عمل أوكونكوو في الجانب الخارجي من السور بينما عمل الأولاد في الجانب الداخلي منه . كانت هناك ثقوب صغيرة تخترق الجدار من جانب إلى الجانب الآخر في مستوياته العليا ، فمرّر أوكونكوو عبر هذه الثقوب حبلاً ، أو تاي ـ تاي ، إلى الصبيين فلفّاه حول دعائم خشبية وأعاداه إليه . بهذه الطريقة ثُبّت الغطاء على السور .

ذهبت النسوة إلى الغابة لجمع الحطب ، بينما ذهب الأطفال الصغار لزيارة أقرانهم في مجمّعات الأكواخ المجاورة . لاحت ريح الهارماتان في الجو وقد بدا أنها تقطّر شعورَ نوم مضبّب على العالم . فراح أوكونكوو والصبيان يعملون في صمت مطبق ، صمت يتحطم حين ترفع سعِف نخيل جديدة إلى السور أو حين تحرك دجاجة مشغولة أوراق شجر جافة

في الجوار في بحثها الدؤوب عن الطعام .

عندئذ ، وعلى نحو فجائي تماماً ، سقط ظل على العالم وبدا أن الشمس اختفت خلف سحابة كثيفة . رفع أوكونكوو بصره متسائلاً عما إذا كانت ستمطر في مثل هذا الوقت من السنة . لكن وفي هذه اللحظة تقريباً ، انفجر ضجيج فرح من جميع الاتجاهات ، ودبّت الحياة واشتعل النشاط في أوموفيا التي كانت غافية في وهج الظهر .

تردد النشيد مرحاً في كل مكان : «الجراد يهبط» ، فترك الرجال والنساء والأطفال عملهم ولهوهم وتراكضوا إلى الخلاء ليشهدوا المنظر غير المألوف . فالجراد لم يأتِ منذ سنوات وسنوات ، والرجال المسنون فقط هم الذين رأوه من قبل .

في البداية ، أتى سرب صغير نسبياً . كان بمثابة الرسُل المبعوثين لاستطلاع الأرض . ثم ظهرت في الأفق كتلة متحركة ببطء مثل صفحة سحابة لا حدود لها سوداء تنساب نحو أوموفيا . وسرعان ما غطت نصف السماء ، ورصّعت الكتلة الصمّاء أعين نور دقيقة كغبار نجوم . كان مشهداً هائلاً ، مليئاً بالقوة والجمال .

انتشر الكل الآن ، وتحدثوا بانفعال ودعوا الآلهة أن يخيّم الجراد في أوموفيا لقضاء الليل . ومع أن الجراد لم يزر أوموفيا منذ سنوات كثيرة ، عرف الكل بالغزيرة بأنه طعام شهي جداً صالح للأكل . أخيراً ، نزل الجراد . حطّ على كل شجرة وعلى كل نصل عشبة ، واستقر على

السطوح وغطى الأرض الجرداء . انقصفت أغصان الأشجار القوية تحت ثقله ، واكتست البلد بأكملها لوناً بنياً ترابياً هو لون السرب الضخم الجائع .

خرج كثير من الناس حاملين سلالهم وحاولوا الإمساك بالجراد ، لكن الشيوخ نصحوهم أن يصبروا حتى حلول الليل . كانوا على حق . فقد استقر الجراد في الشجيرات لقضاء الليل وابتلّت أجنحته بالندى . عندئذٍ خرجت أوموفيا عن بكرة أبيها على الرغم من رياح الحرور القارسة ، فملأ الكل أكياسه وقدوره بالجراد . في الصباح التالي ، شُوي الجراد في قدور صلصالية ثم نُشر في الشمس حتى أصبح جافاً وهشّاً . وعلى مدى أيام عديدة ، أكل أهل القرية هذا الطعام النادر ممزوجاً بزيت النخيل .

جلس أوكونكوو في أوبيّه يمضع الجراد بسعادة مع ايكيميفونا ونوويي ، ويشرب نبيذ النخيل بإفراط حين دخل عليه أوجبويفي إيزيودو . كان إيزيودو أكبر الرجال سناً في هذا الحي من أوموفيا . فقد كان في زمانه محارباً عظيماً جسوراً ، ولا يزال يتمتع حتى الآن باحترام شديد في العشيرة . رفض أن يشارك في وجبة الطعام ، وطلب من أوكونكوو أن يتبادل الحديث معه في الخارج . هكذا خرجا معاً ، والرجل العجوز يتكيء على عصاه . حين أصبحا خارج مدى السمع ، قال لأوكونكوو :

ـ «ذلك الغلام يدعوك أبي . لا تشارك في قتله» .

فوجيء أوكونكوو ، وهمّ بالكلام حين تابع الرجل العجوز :

ـ «نعم ، قررت أوموفيا قتله . أعلن ذلك وحي التلال والكهوف . سيأخذونه إلى خارج أوموفيا كما جرت العادة ، وسيقتلونه هناك . لكنني أريد ألا تكون لك يد في هذا . فهو يدعوك أباه» .

في الصباح الباكر من اليوم التالي ، حضرت إلى بيت أوكونكوو مجموعة من شيوخ قرى أوموفيا التسع ، وقبل أن يبدأوا الحديث بصوت خافت ، أرسل نوويي وإيكيميفونا إلى الخارج . لم يمكثوا طويلاً جداً ، فبعد خروجهم ، جلس أوكونكوو لفترة طويلة جداً ساكناً مسنداً ذقنه إلى كفيه . في وقت لاحق من النهار ، دعا إليه إيكيميفونا وأخبره بأنه سيؤخذ إلى بيته الأصلي في اليوم التالي . سمع نوويي الحديث ، فانفجر باكياً ، فضربه أبوه بسبب ذلك ضرباً مبرّحاً . أما إيكيميفونا ، فقد أحسّ بالحيرة الشديدة . إذ أصبح بيته الأصلي تدريجياً باهتاً وبعيداً جداً . لقد ظلّ يفتقد أمه واخته ، وسيفرحه جداً أن يراهما . لكنه عرف بطريقة ما أنه لن يراهما . وتذكر المرة التي تحدث فيها أشخاص بصوت خافت مع أبيه ، وبدا الآن كأن هذا يحدث مرة أخرى معه .

فيما بعد ، ذهب نوويي إلى كوخ أمه وأخبرها بأن إيكيميفونا سيذهب إلى بيته . أسقطت فوراً مدقة الهاون التي كانت تسحق بها الفلفل ، وطوت ذراعيها على صدرها وتتهدت :«الطفل المسكين» .

في اليوم التالي ، عاد الرجال ومعهم زق خمر . كانوا يرتدون لباسهم الكامل كما لو كانوا ذاهبين إلى إجتماع عشيرة مهم أو لزيارة قرية مجاورة . مرروا أقمشتهم من تحت إبطهم الأيمن ، وعلّقوا أكياسهم المصنوعة من

جلد الماعز وسيوف التحطيب المغمدة في قرابها على الكتف الأيسر . أعد أوكونكوو نفسه بسرعة وانطلق الجمع مع إيكيميفونا الذي حمل زق الخمر . هبط صمت الموت على مجمّع أكواخ أوكونكوو . بدا حتى كأن الأطفال الصغار يعرفون . جلس نوويي طيلة ذلك اليوم في كوخ أمه والدموع تترقرق في مآقيه .

في بداية رحلتهم ، تحدّث رجال أوموفيا وضحكوا من الجراد ومن نسائهم ومن بعض الرجال المخنثين الذين رفضوا القدوم معهم . لكنهم حين اقتربوا من ضواحي أوموفيا ، هبط الصمت عليهم أيضاً .

ارتفعت الشمس ببطء إلى كبد السماء ، وبدأ الدرب الرملي الجاف ينفث الحرارة المدفونة فيه . غردت بعض الطيور في الغابات المحيطة بالمكان . داس الرجال على أوراق الشجر الجافة الساقطة على الرمل . لكن كل شيء آخر كان صامتاً . ثم ترامى من بعيد قرع إيكوي خافت . فعلا وخفت مع الريح ـ رقصة وادعة تنبعث من عشيرة بعيدة .

قال الرجال فيما بينهم :«رقصة أوزو» . لكن أحداً لم يكن متأكداً من أين كانت تأتي . قال البعض إنها من إيزيميلي ، وقال آخرون إنها من آبامي أو أنينتا . وتجادلوا لفترة قصيرة من الوقت وعادوا إلى الصمت ثانية ، وعلت الرقصة المراوغة وانخفضت مع الريح . كان رجل في مكان بعيد يتقلّد لقباً من ألقاب عشيرته مع الموسيقى والرقص ووليمة كبيرة .

ضاق الدرب الآن حتى أصبح خطاً دقيقاً في قلب الغابة . بدأت تحلّ

محل الأشجار القصيرة والنباتات القليلة المتفرقة المحيطة بقرية الرجال الأشجارُ العملاقة والنباتات الكثيفة المعرّشة الموجودة هناك ربما منذ بدء الخليقة ، دون أن يمسسها الفأس ولا النار . رسمت الشمس النافذة من خلال أوراقها وأغصانها أشكالاً من الضوء والظلّ على الدرب الرملي .

سمع إيكيميفونا همساً خلفه واستدار بحدة . صاح الرجل الذي همس وحثّ الآخرين على الإسراع .

قال :«لا يزال أمامنا طريق طويل» . ثم تقدّم هو ورجل آخر إيكيميفونا وحثّا الخطى .

هكذا تابع رجال أوموفيا طريقهم ، مسلّحين بسيوفهم المغمدة ، وسار إيكيميفونا وسطهم ، حاملاً زق نبيذ النخيل على رأسه . مع أنه كان قلقاً في البداية ، إلاّ أنه لم يعد الآن خائفاً . فقد سار أوكونكوو خلفه . فهو لا يكاد يتخيل أن أوكونكوو ليس أباه الحقيقيّ . فلم يولع أبداً بأبيه الحقيقيّ ، وعند نهاية ثلاث سنوات ، أصبح أبوه ذلك نائياً جداً عنه حقاً . لكن أمه وأخته البالغة من العمر ثلاث سنوات . . .بالطبع لن يكون عمرها الآن ثلاث سنوات ، بل ستاً . هل سيعرفها الآن؟ لا بد أنها كبرت تماماً . كم ستبكي أمه من الفرح ، وتشكر أوكونكوو لأنه اعتنى به جيداً على هذا النحو وأعاده إليها . سترغب في الاستماع إلى كل ما جرى له خلال هذه السنين . هل سيتذكر كل ما جرى؟ سيحدثها عن نوويي وأمه ، وعن الجراد . . .فجأة ، خطرت بباله فكرة . قد تكون أمه ماتت . وحاول عبثاً إبعاد الفكرة عن ذهنه . ثم حاول تسوية الأمر بنفس الطريقة التي اعتاد أن

يسويّ بها المسائل المشابهة عندما كان صبياً صغيراً . كان ما يزال يتذكر الأغنية :

إيزي إلينا ، إلينا !

سالا

إيزي ايليكوا يا

ايكوابا أكوا أوليجولي

إيبي داندا نيتشي إيزي

إيبي أوزوزو نيتي إيجوو

سالا

غناها في ذهنه ، ومشى على خفق إيقاعها . إذا انتهت الأغنية مع قدمه اليمنى ، فأمه على قيد الحياة . وإذا انتهت مع اليسرى ، فهي ميتة . لا ، ليست ميتة ، بل مريضة . وانتهت الأغنية مع قدمه اليمنى . إنها حيّة وبخير . وغنى الأغنية مرة أخرى ، فانتهت مع اليسرى . لكن المرة الثانية لا تحسب . الصوت الأول يصل إلى تشوكوو ، أو إله البيت . ذلك قول أثير يردده الأطفال . أحسّ إيكيميفونا نفسه طفلاً مرة أخرى . لا بد أن تفكيره بعودته إلى البيت ، إلى أمه ، هو ما جعله يحسّ بهذا .

سلّك أحد الرجال الذين يسيرون خلف إيكيميفونا حلقه . التفت إيكيميفونا إلى الوراء ، فزمجر الرجل آمراً إياه بالمضي قدماً وعدم التوقف

والالتفات . بعثت لهجته قشعريرة خوف باردة في ظهر إيكيميفونا . فارتجفت يداه بغموض على الزق الأسود الذي يحمله . لماذا انسحب أوكونكوو إلى المؤخرة؟ أحس إيكيميفونا بساقيه تذوبان تحته . خاف أن يلتفت إلى الخلف .

حين سحب الرجل الذي سلّك حلقه سيفه ورفعه ، أشاح أوكونكوو بنظره . سمع الضربة . وقع الزق وانكسر على الرمل . سمع إيكيميفونا يصرخ :«أبي ، قتلوني !» ركض نحوه . سحب أوكونكوو سيفه ، وقد أذهله الخوف ، وجندله . خاف أن يفكروا بأنه ضعيف .

حالما دخل أبوه إلى البيت في تلك الليلة ، أدرك نوويي أن إيكيميفونا قتل ، فشعر بأن شيئاً انهار في داخله ، كانقطاع وتر قوس مشدود . لم يبك . تكّوم فقط رخيّ الجسم . أحس بنفس الشعور الذي أحسّ به منذ فترة ليست بعيدة ، أثناء موسم الحصاد الماضي . كل الأطفال يحبون موسم الحصاد . حين يذهب أولئك القادرون على حمل حتى بضع حبّات يام في سلة ضئيلة الحجم إلى الحقول مع الكبار . وإذا لم يساعدوا في استخراج اليام من الأرض ، فإنهم يجمعون الحطب لشوي اليام الذي سيؤكل في الحقول . وهذا اليام المشويّ المنقوع بزيت النخيل الأحمر والمأكول في المزرعة في الهواء الطلق يكون أشهى من أي وجبة في البيت . ففي يوم كهذا قضاه نوويي في المزرعة خلال الحصاد الأخير ، أحس لأول مرة بانخطاف في داخله شبيه بما يحسّه الآن . كانوا عائدين إلى البيت مع سلال اليام من مزرعة بعيدة عبر الجدول عندما سمعوا

صوت طفل رضيع يبكي في الغابة الكثيفة . خيم صمت مفاجىء على النسوة اللواتي كن يتبادلن الحديث وأسرعن الخطى . كان نوويي قد سمع أن التوأمين يوضعان في أوعية فخارية ويطرحان في الغابة ، لكنه لم يصادف أن مرّ بأي توأمين أبداً . فسرت في جسده قشعريرة غامضة وأحسّ برأسه ينتفخ ، كسائر متوحد في الليل يمر بروح شريرة . انهار شيء في داخله . وهبط عليه هذا الإحساس مرة أخرى حينما خطا أبوه إلى داخل البيت في تلك الليلة بعد قتل إيكيميفونا .

فصل ٨

لم يذق أوكونكوو طعاماً مدة يومين بعد موت إيكيميفونا . راح يشرب نبيذ النخيل من الصباح إلى الليل ، فأحمرّت عيناه وعنفتا مثل عينيّ جرذ أمسك به من ذيله وقذف به بعنف إلى الأرض . دعا ابنه نوويي إلى الجلوس معه في أوبيّه . لكن الصبيّ كان خائفاً منه ، فانسل خارجاً من الكوخ حالما لاحظ أن الكرى بدأ يداعب جفنيه .

لم ينم في الليل . حاول ألا يفكر بإيكيميفونا ، لكنه كلما حاول أكثر ، كلما فكّر فيه أكثر . نهض ذات مرة من سريره وطاف حول مجمّع الأكواخ . لكنه كان ضعيفاً إلى حد أن ساقيه كادتا ألا تحملانه . وأحسّ كأنه عملاق ثمل يسير بساقيّ بعوضة . وسرت بين حين وآخر رعشة انتقلت من رأسه إلى جميع أنحاء جسمه .

في اليوم الثالث ، طلب من زوجته الثانية ، إيكيويفي ، أن تشوي له موز الجنّة . فهيأته بالطريقة التي يحبها ـ مع شرائح من الفول والسمك .

قالت ابنته إيزينما حينما أحضرت الطعام له : «أنت لم تأكل منذ يومين . لذلك يجب أن تنهي هذا» . جلست ومدّت ساقيها أمامها . أكل أوكونكوو الطعام وهو شارد الذهن . فكّر وهو ينظر إلى ابنته البالغة عشر سنوات :

«كان يجب أن تكون ولداً» . ناولها قطعة من السمك .

قال : «إذهبي واحضري بعض الماء البارد» . اندفعت إيزينما إلى خارج الكوخ ، وهي تمضغ السمك ، وعادت بسرعة حاملة طاسة من الماء البارد من جرّة الفخار في كوخ أمها .

تناول أوكونكوو الطاسة منها وجرع الماء دفعة واحدة . أكل بضع قطع أخرى من الموز وأزاح الطبق جانباً .

قال :«أحضري لي كيسي» ، فأحضرت إيزينما له كيس جلد الماعز من طرف الكوخ البعيد . بحث فيه عن قنينة السعوط . كان كيساً طويلاً ، فغاب فيه كل ذراعه تقريباً . احتوى الكيس على أشياء أخرى إلى جانب قنينة السعوط . كان فيه قرن الشرب ، وقرعة شرب أيضاً فاصطدم الوعاءان أحدهما بالآخر وهو يبحث . حين أخرج قنينة السعوط ، ضرب بها بخفة على رضفة ركبته عدة مرات قبل أن يرشّ مقداراً من السعوط على راحة يده اليسرى . ثم تذكر أنه لم يخرج ملعقة السعوط . بحث في الكيس مرة أخرى وأخرج ملعقة مسطحة عاجية صغيرة ، حمل بها السعوط البنيّ إلى منخريه .

حملت إيزينما الطبق في إحدى يديها وطاسة الماء الفارغة في الأخرى وعادت إلى كوخ أمها . قال أوكونكوو لنفسه مرة أخرى : «كان يجب أن تكون ولداً» . عاد ذهنه إلى إيكيميفونا وارتعد . لو أنه فقط يجد عملاً يقوم به لاستطاع أن ينسى . لكنه كان موسم الراحة الواقع بين الحصاد وموسم الزرع التالي . والعمل الوحيد الذي يقوم به الرجال في هذا الوقت هو تغطية جدران مجمّع أكواخهم بسعف نخيل جديد . وقد قام أوكونكوو

بذلك. وأنهى العمل في نفس اليوم الذي غزا فيه الجراد القرية، حين عمل هو في جانب منه وعمل إيكيميفونا ونوويي في الجانب الآخر.

سأل أوكونكوو نفسه: «متى أصبحتَ امرأة عجوزاً مرتعدة، أنتَ المعروف في كل القرى التسع ببسالتك في الحرب؟ كيف يمكن لرجل قتل خمسة رجال في معركة أن يتمزق إرباً لأنه أضاف صبياً إلى عددهم؟ أوكونكوو، لقد أصبحتَ امرأة حقاً».

هبّ واقفاً على قدميه، وعلّق كيس جلد الماعز على كتفه وذهب لزيارة صديقه أوبيريكا.

كان أوبيريكا يجلس في الخارج في ظلّ شجرة برتقال ويصنع غطاء سقف من أوراق نخل الرافية. فتبادل التحيات مع أوكونكوو وقاده إلى داخل أوبيّه.

قال وهو يفرك ويزيل ذرات الرمل الملتصقة بفخذيه: «كنتُ آتياً لزيارتك فور انتهائي من ذلك الغطاء».

سأل أوكونكوو: «عسى الأمر خيراً؟»

أجاب أوبيريكا: «نعم». طالب يد ابنتي سيأتي اليوم وآمل أن نحسم أمر مهر العروس. «أريدك أن تكون موجوداً».

في تلك اللحظة تماماً، دخل ابن أوبيريكا، مادوكا، إلى الأوبيّ قادماً من الخارج، وحيّا أوكونكوو ثم استدار نحو مجمّع الأكواخ.

قال أوكونكوو للغلام: «تعال وصافحني. أدخلت مصارعتك في ذلك

اليوم الكثيرَ من السعادة إلى قلبي» . ابتسم الغلام ، وصافح أوكونكوو ودخل مجمّع الأكواخ .

قال أوكونكوو :«سيقوم بأعمال عظيمة . لو كان لي ولد مثله ، لكنتُ سعيداً . إنني قلق على نوويي . إن طاسة من اليام المسحوق تطرحه أرضاً في مباراة مصارعة . أخواه الصغيران أفضل منه . لكنني أقول لك يا أوبيريكا ، إن أولادي لا يشبهونني حقاً . أين الجذيرات الفتية التي ستنمو عندما تموت شجرة الموز العتيقة؟ لو كانت إيزينما ولداً ، لكنتُ سعيداً . فهي تتحلى بالروح الصحيحة» .

قال أوبيريكا :«أنت تقلق نفسك بلا سبب . الأطفال لا يزالون صغاراً جداً» .

ـ« كبر نوويي إلى حد يمكنه فيه أن يُحبّل امرأة . عندما كنت في سنه كنت مسؤولاً عن نفسي . لا يا صديقي ، إنه ليس صغيراً جداً . فالكتكوت الذي سيصبح ديكاً يمكن تمييزه في نفس اليوم الذي تفقس عنه البيضة . لقد بذلت جهدي لأجعله ينشأ كرجل ، لكن فيه شيئاً كثيراً جداً من أمه» .

فكر أوبيريكا :«شيء كثير جداً من جده» ، لكنه لم يقل هذا . خطر نفس الخاطر ببال أوكونكوو ، لكنه تعلّم منذ فترة طويلة كيف ينبذ ذلك الشبح . فكلما ضايقته فكرة ضعف وفشل أبيه كان يطردها بالتفكير في قوّته ونجاحه . وهذا ما فعله الآن . فقد اتجه ذهنه إلى آخر عرض لرجولته .

سأل أوبيريكا :«لا أستطيع أن أفهم لماذا رفضتَ القدوم معنا لقتل ذلك الولد» .

أجاب أوبيريكا بحدّة: «لأنني لم أرد ذلك. كان لدي عمل أفضل لأقوم به».

ـ«يبدو من صوتك كأنك تعترض على سلطة وقرار الوحي الذي قال إنه يجب أن يموت».

ـ«أنا لا أعترض. لماذا أفعل هذا؟ الوحي لم يطلب مني أن أنفذ قراره».

ـ«لكن واحداً كان لابد أن ينفذه. لو خفنا كلنا من الدم، لما نُفّذ. ماذا تظن بأن الوحي سيفعل حينئذ؟»

ـ«أنت تعرف جيداً جداً يا أوكونكوو أنني لا أخاف من الدم. إذا قال لك أحد إنني أخاف، فهو يكذب. دعني أقول لك شيئاً واحداً يا صديقي. لو كنت مكانك لبقيت في البيت. إن ما فعلته لن يسر الأرض. إنه من نوع الأفعال التي تمحو ربة الأرض بسببه عائلات بأكملها».

قال أوكونكوو: «الأرض لا تستطيع أن تعاقبني لإطاعتي رسولها. فأصابع طفل لا تتسلّخ من قطعة يام ساخنة تضعها أمه في كفه».

وافق أوبيريكا: «هذا صحيح. لكن الوحي إذا قال إن ابني يجب أن يُقتل، فلن أعترض على هذا، كما لن أكون الشخص الذي ينفذه».

كان يمكن أن يستمرا في النقاش لولا دخول أوفويدو في تلك اللحظة. كان واضحاً من عينيه المتألقتين بأنه يحمل أنباءً مهمّة. لكن من سوء الأدب استعجاله. فقدّم إليه أوبيريكا فلقة من جوزة الكولا التي كسرها مع أوكونكوو. أكلها أوفويدو ببطء وتحدّث عن الجراد. حين انتهى من تناول جوز الكولا قال: «الأمور التي تحدث هذه الأيام غريبة جداً».

سأل أوكونكوو :«ماذا حدث؟»

سأل أوفويدو :«هل تعرف أوجبويفي ندولوي؟»

قال أوكونكوو وأوبيريكا معاً :«أوجبويفي ندولوي من قرية إيري» .

قال أوفويدو :«مات هذا الصباح» .

قال أوبيريكا :«هذا ليس غريباً . فقد كان أكبر الشيوخ سناً في إيري» .

وافق أوفويدو :«أنتَ على حق . لكنك كان يجب أن تسأل لماذا لم يقرع الطبل لإخطار أومووفيا بوفاته» .

سأل أوبيريكا وأوكونكوو معاً :«لماذا؟» .

ـ«ذلك هو الغريب في الأمر . هل تعرف زوجته الأولى التي تتوكأ على عصا؟»

ـ«نعم . اسمها أوزويمينا» .

قال أوفويدو :«نعم . كانت أوزويمينا ، كما تعرفان ، أعجز من أن تعتني بندولوي أثناء مرضه . ففعلت ذلك زوجاته الأصغر سناً . وحينما توفي هذا الصباح ، ذهبت إحدى هذه الزوجات إلى كوخ أوزيمينا وأخبرتها . فنهضت عن حصيرتها ، وحملت عصاها وسارت نحو الأوبي . انحنت على ركبتيها وكفيها عند العتبة ونادت على زوجها الذي كان قد مُدّد على حصيرة . نادت عليه ثلاث مرات :«أوجبويفي ندولوي» ، ثم عادت إلى كوخها . حين دخلت عليها الزوجة الصغرى مرة أخرى لتدعوها كي تحضر غسل الجثمان ، وجدتها ممددة على الحصيرة ميتة» .

قال أوكونكوو :«ذلك غريب جداً حقاً . سيؤجلون جنازة ندولوي إلى أن تدفن زوجته» .

ـ«ذلك هو السبب في عدم قرع الطبل لإخطار أوموفيا» .

قال أوبيريكا : «قيل دائماً إن لندولوي وأوزويمينا عقل واحد . وأذكر أنني عندما كنت صبياً صغيراً ، كانت تتردد أغنية عنهما . إنه لم يكن يستطيع فعل شيء دون أن يعلمها به» .

قال أوكونكوو : «لم أكن أعرف ذلك . لقد اعتقدت أنه كان قوياً في شبابه» .

قال أوفويدو : «كان كذلك فعلاً» .

هزّ أوكونكوو رأسه بشك .

قال أوبيريكا : «لقد قاد أوموفيا إلى الحرب في تلك الأيام» .

بدأ أوكونكوو يحسّ بأنه يعود إلى طبيعته السابقة . فكل ما كان يلزمه هو شيء يشغل ذهنه . لو أنه قتل إيكيميفونا أثناء موسم الزرع أو الحصاد الحافل بالعمل ، لما كان الأمر سيئاً إلى هذا الحد ، لكان عقله تركّز على عمله . فلم يكن أوكونكوو رجل فكر بل رجل عمل . لكن ، في غياب العمل ، يحتل الكلام المرتبة الثانية بالأفضلية .

حالما غادر أوفويدو ، تناول أوكونكوو كيسه فوراً وهمّ بالخروج .

قال : «يجب أن أعود إلى البيت لأبزل نخلاتي في فترة بعد الظهر» .

سأل أوبيريكا : «من يبزل نخلاتك العالية لك؟» .

أجاب أوكونكوو : «أوميزوليكي» .

قال أوبيريكا : «أتمنى أحياناً لو أنني لم أقبل لقب أوزو . فمما يدمي قلبي أن أرى هؤلاء الشباب وهم يقتلون النخيل بحجة بزله» .

وافق أوكونكوو : «هذا ما يحدث فعلاً . لكن قانون البلد يجب أن يُطاع» .

قال أوبيريكا : «لا أدري من أين أتينا بذلك القانون . ففي عشائر كثيرة أخرى ، ليس محظوراً على حامل لقب أن يتسلق النخلة . هنا نقول إنه لا يستطيع تسلّق الشجرة العالية ، لكنه يستطيع بزل الأشجار القصيرة وهو واقف على الأرض . إن مثل هذا كمثل ديماراجانا الذي رفض تقديم سكينه لتقطيع لحم الكلب لأن الكلب تابو بالنسبة إليه ، لكنه عرض أن يستعمل أسنانه» .

قال أوكونكوو : «يحسن أن تحافظ عشيرتنا على سمو مكانة لقب أوزو . فلقب أوزو في تلك العشائر الأخرى التي تتحدث عنها لقب حقير الشأن إلى درجة أن كل شحاذ يمكنه أن يناله» .

قال أوبيريكا : «كنت أمزح فقط . ففي قريتي آبامي وأنينتا يساوي اللقب أقل من وَدَعَتين . وكل رجل هناك يضع خيط اللقب على كاحله ، ولا يفقده حتى لو أقدم على جريمة سرقة» .

قال أكونكوو : «لقد لطخوا كلمة أوزو حقاً» .

قال أوبيريكا : «لن يمر وقت طويل قبل أن يأتي أصهاري» .

قال أوكونكوو وهو ينظر إلى موقع الشمس : «سأعود بسرعة» .

كان هناك سبعة أشخاص في كوخ أوبيريكا عندما عاد أوكونكوو . وكان طالب يد الابنة شاباً في حوالي الخامسة والعشرين من عمره ، ومعه أبوه وعمه . كان هناك من جهة أوبيريكا أخواه الكبيران ومادوكا ، ابنه البالغ ستة عشر عاماً .

قال أوبيريكا لابنه : «أطلب من أم أكويكي أن ترسل لنا بعض جوز الكولا» . اختفى مادوكا في مجمّع الأكواخ كالبرق . وتركّز الحديث فوراً حوله ، فاتفق الجميع على أنه حاد كموسى .

قال أوبيريكا بتسامح : «أفكر أحياناً بأنه حادّ أكثر من اللازم . إنه لا يكاد يمشي . وهو دائماً في عجلة من أمره . إذا أرسلته في مهمة ، يطير خارجاً قبل أن يسمع نصف الرسالة» .

قال أخوه الأكبر : «لقد كنتَ أنتَ نفسك كذلك تماماً . وكما يقول قومنا : «عندما تمضغ البقرة الأم العشب ، تراقب العجول الصغيرة فمها» . لقد ظل مادوكا يراقب فمك» .

بينما كان يتكلم ، عاد الفتى ، تتبعه أكويكي ، أخته من أبيه ، حاملة طبقاً خشبياً فيه ثلاث جوزات كولا وفلفل تمساح . أعطت الطبق لشقيق أبيها الأكبر ثم صافحت ، بخجل شديد ، طالب يدها وأهله . كانت في حوالي السادسة عشر وقد نضجت تماماً للزواج . ففحص طالب يدها وأهله جسدها الشاب بأعين خبيرة كأنهم يطمئنون أنفسهم بأنها جميلة وناضجة .

ضُمّ شعرها في منتصف رأسها بتسريحة عُرف فرس . فُرك جسمها برقّة بخشب الكام ، ورُسمت على جميع أجزاء جسدها أشكال سوداء

بالأولي . وأحاطت جيدها بعقد أسود تدلى على شكل ثلاث لفات فوق نهديها الممتلئين الريّانين تماماً . على ذراعيها لبست أساور حمراء وصفراء ، وطوقت خصرها بأربعة أو خمسة صفوف من الجيجيدا ، أو خرز الخصر .

بعدما صافحت الضيوف ، أو بالأحرى مدّت يدها حتى يصافحوها ، عادت إلى كوخ أمها لتساعد في الطبخ .

حذرتها أمها عندما اقتربت من الموقد لتحضر يد الهاون الموضوعة على الجدار : «إخلعي الجيجيدا أولاً . وأنا أقول لك كل يوم بأن الجيجيدا والنار ليسا صديقين . لكنك لا تسمعين أبداً . أنت تكبّرين أذنيك للزينة ، لا للسمع . في أحد هذه الأيام ستشبّ النار في أطَواق الجيجيدا وتشعل خصرك ، عندئذٍ ستتعلمين» .

ابتعدت أكويكي إلى الطرف الآخر من الكوخ وبدأت تخلع خرز الخصر . كان لا بد أن تنجز هذا ببطء وحرص ، بخلع كل خيط لوحده ، وإلا انقطع واضطرت إلى نظم الحلقات الدقيقة الألف مرة أخرى . فركت كل خيط بكفيها نحو الأسفل إلى أن تجاوز ردفيها وانزلق إلى الأرض حول قدميها .

بدأ الرجال في الأوبي بشرب نبيذ النخيل الذي أحضره طالب يد أكويكي معه . كان نبيذاً جيداً جداً وقوياً ، فرغم أن الثمرة الموضوعة في فم الزق لحجز السائل الفوّار ، فار الزبد الأبيض واندلق .

قال أوكونكوو : «هذا النبيذ من صنع خمّار جيد» .

ابتسم طالب يد الفتاة الشابة ، الذي كان اسمه إيبي ، ابتسامة عريضة

وقال لأبيه : «هل تسمع ذلك؟» ثم قال للآخرين : «إنه لن يعترف أبداً بأنني حاذق في بزل النخيل» .

قال أبوه أوكيجبو : «لقد بزل ثلاثاً من أفضل نخلاتي حتى ماتت» .

قال إيبي الذي بدأ يصبّ النبيذ : «حدث ذلك قبل حوالي خمس سنوات ، قبل أن أتعلّم البزل» . ملأ القرن الأول وناوله لأبيه . ثم صبّ للآخرين . أخرج أوكونكوو قرنه الكبير من كيس جلد الماعز ، ونفخ فيه ليزيل أي غبار قد يكون هناك ، وناوله لأيبي كي يملأه .

فيما كان الرجال يشربون ، تحدثوا حول كل شيء ما عدا الأمر الذي اجتمعوا من أجله . بعدما فرغ الزق فقط ، سلّك أبو الشاب حلقه وأعلن الغرض من زيارتهم .

عندئذ ، قدّم له أوبيريكا حزمة صغيرة من عصيّ المكانس . فعدّها اوكيجبو .

سأل : «إنها ثلاثون؟»

أومأ أوبيريكا برأسه موافقاً .

قال أوكيجبو : «أخيراً توصلنا إلى نتيجة» ، ثم التفت إلى أخيه وابنه وقال : «لنخرج كي نتهامس سوية» . نهض الثلاثة ومضوا إلى الخارج . حين رجعوا ، أعاد أوكيجبو حزمة العصيّ إلى أوبيريكا . فعدّها ، وبدلاً من الثلاثين ، كانت هناك خمس عشرة . ناولها إلى أخيه الأكبر ماتشي ، الذي عدّها بدوره وقال : «لم نفكر بأقل من ثلاثين . لكن ، كما قال الكلب : «إذا تنازلتُ لك وتنازلتَ لي ، فهذا لعب» . والزواج يجب أن يكون لعباً

وليس عراكاً . لذا فإننا نتنازل ثانية» . ثم أضاف عشر عصيّ إلى الخمس عشرة وأعطى الحزمة إلى أوكيجبو .

وبهذه الوسيلة ، تحدّد مهر أكويكي أخيراً بعشرين كيس من الوَدَع . وكان الغسق قد هلّ حين توصل الفريقان إلى هذا الاتفاق .

قال أوبيريكا لابنه مادوكا : «إذهب واخبر أم أكويكي بأننا انتهينا» . على الفور تقريباً ، دخلت المرأة تحمل طاسة كبيرة من الفو ـ فو . تبعتها زوجة أوبيريكا الثانية حاملة وعاء من الحساء ، وأحضر مادوكا زقاً من نبيذ النخيل .

فيما راح الرجال يأكلون ويشربون ، تحدثوا عن عادات جيرانهم .

قال أوبيريكا : «في هذا الصباح بالذات ، كنت أنا وأكونكوو نتحدث عن آبامي وأنينتا ، حيث يتسلق حاملو الألقاب الشجر ويسحقون الفو ـ فو لزوجاتهم» .

ـ«إن جميع عاداتهم مقلوبة رأساً على عقب . وهم لا يحدّدون مهر العروس كما نفعل نحن ، بالعصي . إنهم يساومون ويماحكون كما لو أنهم يشترون عنزة أو بقرة في السوق» .

قال أخو أوبيريكا الأكبر : «ذلك سيىء جداً» . لكن ، ما هو حسن في مكان هو سيىء في مكان آخر . ففي أومونسو لا يساومون على الإطلاق ، ولا حتى بعصي المكانس . إن طالب يد الفتاة يستمر في إحضار أكياس الوَدَع إلى أن يطلب منه أهلها التوقف . هذه عادة سيئة لأنها تؤدي دائماً إلى الخصام» .

قال أوكونكوو : «العالم واسع . وقد سمعت حتى أن أطفال الرجل ينسبون في بعض القبائل إلى الزوجة وعائلتها» .

قال ماتشي : «ذلك لا يمكن أن يكون . وبوسعك أيضاً أن تقول إن المرأة تستلقي فوق الرجل عندما ينجبان الأطفال» .

قال أوبيريكا : «إنها كقصة الرجال البيض الذين يشبهون ، كما يقال ، قطعة الطباشير هذه» . ورفع بيده قطعة الطباشير التي يحتفظ بها كل رجل في أوبيّه كي يرسم الضيوف بها خطوطاً على الأرض قبل أن يأكلوا جوز الكولا . «ويقال أيضاً أن ليس لهؤلاء الرجال البيض أصابع في أقدامهم» .

سأل ماتشي : «ألم ترهم أبداً؟»

سأل أوبيريكا : «هل رأيتهم أنت؟»

قال ماتشي : «أحدهم يمر من هنا باستمرار . اسمه أمادي» .

ضحك أولئك الذين يعرفون أمادي . كان مجذوماً ، كان الاسم المهذّب للجذام هو : «الجلد الأبيض» .

فصل ٩

لأول مرة منذ ثلاث ليال نام أوكونكوو . استفاق مرة في منتصف الليل وعاد ذهنه إلى الأيام الثلاثة الماضية دون أن يحسّ بأنها تقلقه . بدأ يسائل نفسه لماذا أحسّ بالقلق أصلاً . كان إحساسه مثل رجل يتساءل في ضوء النهار لماذا بدا له الحلم مخيفاً على هذا النحو في الليل . مدّ جسمه وحكّ فخذه حيث قرصته بعوضة وهو نائم . أزت بعوضة أخرى قرب أذنه اليمنى . لطم أذنه وأمل أن يكون قتلها . لماذا يتجه البعوض دائماً نحو أذن الإنسان؟ حين كان طفلاً صغيراً روت له أمه حكاية عن هذا . لكنها كانت سخيفة مثل جميع حكايات النساء . روت أن ذَكَر بعوض طلب من الأذن أن تتزوجه ، فاستلقت الأذن على قفاها من شدّة الضحك . وسألت الأذن : «كم ستعيش في اعتقادك؟ أنت منذ الآن هيكل عظمي» . انصرف ذكر البعوض ذليلاً ، وظل في كل مرة يمرّ بالأذن يخبرها بأنه ما زال على قيد الحياة .

انقلب أوكونكوو على جنبه وعاد إلى النوم . في الصباح ، أيقظه طارق على بابه .

زمجر : «مَنْ هنا؟» . عرف أنها لابد أن تكون إيكويفي . فإيكويفي

الوحيدة من بين زوجاته الثلاث التي تجرؤ على قرع بابه .

أتى صوتها : «إيزينما تموت» ، وتجمعت في هاتين الكلمتين كل مأساة وأسى حياتها .

قفز أوكونكوو من سريره ، أزاح مزلاج بابه واندفع راكضاً نحو كوخ إيكويفي .

كانت إيزينما تتمدد مرتعشة على حصيرة إلى جانب نار قوية أبقتها أمها مشتعلة طوال الليل .

قال أوكونكوو : «إنها إيبا» ، وتناول سيف التحطيب ومضس إلى الغابة لجمع أوراق الشجر والأعشاب ولحاء الشجر المستخدمة في صنع دواء الإيبا .

ركعت إيكويفي إلى جانب الطفلة المريضة ، وراحت تتحسس بكفها ، بين حين وآخر ،جبينها المبلل المحترق .

كانت إيزينما طفلتها الوحيدة ومحور عالمها . فقد كانت في كثير من الأحيان هي التي تقرر أي طعام ينبغي أن تطبخ أمها . كانت أمها تقدم إليها أطعمة مترفة كالبيض ، الذي يُسمح للأطفال بأكله نادراً ، لأن طعاماً كهذا يغريهم بالسرقة . وحدث مرة ، بينما كانت إيزينما تأكل بيضة ، أن دخل أوكونكوو قادماً من كوخه دون أن يُتوقع قدومه . صدم صدمة عظيمة وأقسم أن يضرب إيكويفي إذا تجرأت وأعطت الطفلة بيضاً مرة أخرى . لكن من المستحيل رفض أي طلب لإيزينما . فبعد توبيخ أبيها ، ازدادت شهية الطفلة للبيض . واستمتعت ، فوق كل شيء آخر ، بالسرّية التي تأكل بها الآن البيض . فأمها تدخلها دائماً إلى غرفة نومهما وتغلق الباب خلفها .

لا تدعو إيزينما أمها نني ، ككل الأطفال . بل تدعوها باسمها المجرد ، إيكويفي ، مثلما يفعل أبوها والكبار الآخرون . فالعلاقة بينهما لم تكن مجرد علاقة بين أم وطفلتها . بل فيها شيء شبيه بالرفقة بين ندين ، زادتها متانة مؤامرات صغيرة مثل أكل البيض في غرفة النوم .

قاست إيكويفي كثيراً في حياتها . فقد أنجبت عشرة أطفال مات منهم تسعة في طفولتهم ، قبل سن الثالثة عادة . وبعد أن دفنت طفلاً تلو الآخر ، أخلى الحزن مكانه لليأس ثم للاستسلام القاتم . أصبح إنجاب الأطفال ، الذي لابد أن يشكّل مجد المرأة المتوّج بالنسبة لإيكويفي ، مجرد عذاب جسديّ خال من الرجاء . وأصبح الاحتفال بتسمية الطفل ،بعد سبعة أسابيع سوق من مولده ، مجرد طقس فارغ . وعبّر يأسها المتعاظم عن نفسه في الأسماء التي أطلقتها على أطفالها . فكان أحدها صرخة مفعمة بالعاطفة ، أونوومبيكو ـ «أيها الموت ، أتوسل إليك» . لكن الموت لم يلقِ بالاً . ومات أونوومبيكو في شهره الخامس عشر . وكان الطفل التالي فتاة ، أوزويمينا ـ «أرجو ألا يتكرر هذا» . ماتت في شهرها الحادي عشر ، ومات بعدها طفلان آخران . عندئذ ، غلب إيكويفي الاحساس بالتحدي ، ودعت طفلها التالي أونووما ـ «فليفعل الموت ما يشاء» . ومات الطفل .

في أعقاب موت طفل إيكويفي الثاني ، ذهب أوكونكوو إلى رجل طب ، كان في الوقت نفسه عرّاف وحي آفا ، ليستفسر عن الخلل . أخبره هذا الرجل بأن الطفل كان أوجبانجي ، أحد أولئك الأطفال الأشرار الذين يدخلون إلى أرحام أمهاتهم بعد الموت كي يولدوا ثانية .

قال : «عندما تحمل زوجتك مرة أخرى ، لا تدعها تنام في كوخها .

دعها تذهب لتقيم مع أهلها . فبهذه الطريقة ستتجنب معذّبها الشرير وتكسر دائرة الولادة والموت الشريرة» .

فعلت إيكويفي ما طلب منها . فما إن حملت حتى ذهبت للعيش مع أمها العجوز في قرية أخرى . هناك ولد طفلها الثالث وخُتن في اليوم الثامن . لم تعد إلى مجمّع أكواخ أوكونكوو إلا قبل ثلاثة أيام من احتفال التسمية . ودعي الطفل أونوومبيكو .

لم يدفن أونوومبيكو حسب الأصول بعد وفاته . فقد ذهب أوكونكوو إلى رجل طب آخر اشتهر في عشيرته بمعرفته الواسعة بالأطفال الأوجبانجيين . كان اسمه أوكاجبوي أويانوا . وكان شخصاً مهيباً جداً ، طويلاً ، ذا لحية مكتملة ورأس أصلع . له بشرة فاتحة اللون وعينان حمراوان وناريتان وهو يصرّ دائماً بأسنانه أثناء استماعه إلى القادمين لاستشارته . سأل أوكونكوو بضع أسئلة عن الطفل الميت . وعن كل الجيران والأقارب الذين قدموا إليهم للتعزية .

سأل : «في أي يوم من أيام السوق ولد؟»

أجاب أوكونكوو : «أويي» .

ـ «ومات في هذا الصباح؟»

قال أوكونكوو : «نعم» ، عندئذ فقط أدرك للمرة الأولى أن الطفل مات في نفس يوم السوق الذي وُلد فيه . لاحظ الجيران والأقارب أيضاً التوافق ، فقالوا فيما بينهم إن هذا بالغ الدلالة .

سأل رجل الطب : «أين تنام مع زوجتك ، في أوبيّك أم في كوخها؟»

ـ «في كوخها» .

ـ «في المستقبل ، أدعها إلى أوبيّك» .

أمر رجل الطب بعدم إقامة الحداد على الطفل الميت . وأخرج سكيناً حادة من الكيس المصنوع من جلد الماعز المتدلي من كتفه الأيسر وبدأ يُمثّل بالطفل . ثم سحبه بعيداً ليدفنه في غابة الشر ، ممسكاً به من كاحله وجاراً إياه على الأرض خلفه . فبعد معاملة كهذه ، سيفكر الطفل مرتين قبل أن يعود ثانية ، إلّا إذا كان من العنيدين الذين يعودون ، حاملين طابع التمثيل بهم ـ أصبعاً ناقصاً أو ربما خطاً غامقاً في المكان الذي شطبته سكين رجل الطب .

عندما مات أونوومبيكو ، كانت إيكويفي قد أصبحت امرأة مفعمة بالمرارة . فامرأة زوجها الأولى أصبح لديها ثلاثة أبناء ، جميعهم أقوياء وأصحاء . وحين ولدت ابنها الثالث ، ذبح أوكونكوو عنزة لها ، كما هي العادة . ولم يكن لدى إيكويفي سوى التمنيات الطيبة . لكن إحساسها بالمرارة تجاه تشيّها كان قد تعاظم إلى حد أنها لم تعد قادرة على الابتهاج مع الآخرين على حظهم الحسن . هكذا ، وفي يوم احتفلت أم نوويي بميلاد أبنائها الثلاثة بإقامة الولائم وعزف الموسيقى ، كانت إيكويفي الشخص الوحيد في الجمع السعيد التي راحت تنتقل من مكان إلى آخر وقد حطت سحابة على جبينها . عزت ضرّتها تصرفها هذا إلى الخبث ، على جري عادة الضرائر . فمن أين لها أن تعرف أن مرارة إيكويفي لم تكن تتدفق إلى الخارج ، باتجاه الآخرين ، بل إلى الداخل ، باتجاه روحها بالذات ، وأنها لا تلوم الآخرين على حسن طالعهم بل تلوم تشيّها الشرير الذي حرمها من هذا الطالع الحسن؟

أخيراً ، ولدت إيزينما ، مع أنها كانت عليلة ، إلاّ أنها بدت مصممة على أن تحيا . في البداية ، قبلتها إيكويفي ، كما قبلت الآخرين ـ بتسليم فاتر الهمة . لكن ، عندما عاشت عامها الرابع والخامس والسادس ، عاد الحب ثانية إلى أمها ، ومع الحبَ جاء القلق . فصممت على رعاية صحة طفلتها ، وكرّست كل وجودها لهذا . وكوفئت بنوبات عرضية من الصحة فارت إيزينما أثناءها بالحيوية كنبيذ النخيل الطازج . بدت إيزينما في مثل تلك الفترات أنها تجاوزت الخطر . لكنها كانت تنتكس فجأة . عرف الجميع أنها أوجبانجي . وهذه النوبات من المرض والصحة نموذجية بالنسبة لنوعها . لكنها عاشت طويلاً إلى حد أنها من المحتمل أن تكون قررت البقاء . فبعضهم يتعب حقاً من دورات الولادة والموت الشريرة ، أو يشفقون على أمهاتهم ، فيبقون . وقد آمنت إيكويفي في أعماقها أن إيزينما جاءت لتبقى . وآمنت بذلك لأن ذلك الإيمان وحده هو الذي أضفى على حياتها نوعاً من المعنى . وتعزز هذا الإيمان عندما استخرج رجل طب قبل سنة أو نحوها إيبي ـ أووا إيزينما . عندئذ ، عرف الجميع أنها ستحيا لأن رباطها بعالم الأوجبانجي انفصم . واطمأن قلب إيكويفي . لكن قلقها على ابنتها كان عظيماً إلى درجة أنها لم تستطع التخلص كلية من خوفها . مع أنها آمنت أن الإيبي ـ أووا الذي استُخرج من باطن الأرض كان حقيقياً ، فإنها لم تستطع تجاهل حقيقة أن بعض الأطفال الشريرين فعلاً يضللون الناس ويجعلونهم يستخرجون إيبي ـ أووا خادعاً .

لكن إيبي ـ أووا إيزينما بدا حقيقياً تماماً . كان حصاة ناعمة ملفوفة في خرقة قذرة من القماش . كان الرجل الذي حفر عليه واستخرجه هو

أوكاجبو نفسه ، المشهور بين جميع أفراد العشيرة بمعرفته بهذه الأمور . لم ترد إيزينما التعاون معه في البداية . لكن هذا كان متوقعاً . فليس ثمة أوجبانجي يسلّم أسراره بسهولة ، وأغلبهم لا يسلموها أبداً لأنهم ماتوا صغاراً جداً ـ قبل أن يصبح بالإمكان توجيه أسئلة إليهم .

سألها : «أين دفنت الايبي ـ أووا كِ؟ أنت تعرفين ما هو . لقد دفنته في الأرض في مكَان لكي تَموتي وتعودي لتعذّبي أمكِ» .

تطلعت إيزينما إلى أمها التي كانت عيناها الحزينتان والمتوسلتان ثابتتين عليها .

هَدَر أوكونكوو : «أجيبي على السؤال فوراً» ، كان يقف إلى جانبها . كما كانت العائلة كلها هناك بالإضافة إلى عدد من الجيران .

قال رجل الطب بصوت بارد واثق : «أتركها لي» . التفت إلى إيزينما . «أين دفنتِ إيبي ـ أووا كِ؟» .

أجابت : «حيث يدفنون الأطفال» ، وتمتم المتفرجون الصامتون لأنفسهم .

قال رجل الطب : «تعالي إذن ودليني على المكان» .

انطلق الجمع مع إيزينما وسار أوكاجبوي خلفها مباشرة . وأتى بعده أوكونكوو ثم تبعتهم إيكويفي . حين وصلوا إلى الطريق الرئيسية ، استدارت إيزينما يساراً كأنها كانت تتجه إلى الجدول .

سأل رجل الطب : «لكنكِ قلت إنه مخبّأ حيث يدفنون الأطفال؟»

قالت إيزينما التي ظهر إحساسها بالأهمية في مشيتها المفعمة بالحيوية

والنشاط : «لا» . كانت تندفع أحياناً راكضة ثم تتوقف فجأة . تبعها الجمع صامتاً . وتساءلت النسوة والأطفال العائدون من الجدول ، وعلى رؤوسهم جرار الماء ، عما كان يحدث ، وعندما شاهدوا أوكاجبوي ، استنتجوا أن الأمر لابد أن يكون متعلقاً بالأوجبانجي . فكلهم يعرفون إيكويفي وابنتها جيداً .

حين وصلت إيزينما إلى شجرة الأودالا الضخمة ، استدارت يساراً إلى داخل الأجمة ، وتبعها الجمع . وبسبب من حجمها الصغير ، شقت طريقها خلال الأشجار والنباتات المعرّشة بأسرع من السائرين وراءها . فامتلأت الغابة بوقع الخطى على أوراق الأشجار الجافة وصوت العصي وإزاحة الأغصان جانباً . توغلت إيزينما أكثر فأكثر وتوغل الحشد معها . ثم استدارت فجأة على أعقابها وبدأت تمشي عائدة نحو الطريق . توقف الجميع ليسمحوا لها في المرور ثم اصطفوا خلفها وساروا وراءها .

قال أوكونكوو مهدداً : «إذا كنت تقودينا جميعاً عبثاً فسوف أضربك ضرباً موجعاً حتى يعود عقلك إليكِ» .

قال أوكاجبوي : «قلت لك دعها وشأنها . أنا أعرف كيف أتعامل معهن» .

قادتهم إيزينما عائدة بهم إلى الطريق ، وتلفتت يساراً ويميناً واستدارت إلى اليمين . هكذا عادوا إلى البيت ثانية .

سأل أوكاجبوي عندما توقفت إيزينما في النهاية أمام أوبي أبيها : «أين دفنت الإييي ـ أوواكِ؟» كان صوته على حاله : هادئاً واثقاً .

قالت إيزينما : «إنه قرب شجرة البرتقال تلك» .

شتمها أوكونكوو بحنق : «لماذا لم تقولي ذلك يا ابنة أكالوجولي الشريرة؟» . تجاهله رجل الطب .

قال بهدوء لإيزينما : «تعالي ودليني على الموقع تماماً» .

قالت عندما وصلوا إلى الشجرة : «إنه هنا» .

قال أوكاجبوي : «أشيري إلى الموقع بأصبعك» .

قالت إيزينما وهي تمسّ الأرض بأصبعها : «إنه هنا» . ووقف أوكونكوو جانباً ، مقعقعاً كالرعد في الفصل الممطر .

قال أوكاجبوي : «أحضروا لي مجرفة» .

حين أحضرت إيكويفي المجرفة ، كان قد نحى كيسه من جلد الماعز جانباً وخلع قطعة القماش الكبيرة وبقي في ملابسه الداخلية ، شريط طويل رفيع من القماش ملفوف حول خصره ، كالحزام ، ماراً بين فخذيه ومثبّتاً في الحزام من الخلف . شرع فوراً بحفر حفرة حيث أشارت إيزينما . جلس الجيران حوله وهم يراقبون الحفرة تتعمق أكثر فأكثر . حلّ محل التربة الداكنة العليا الثرى الأحمر اللامع الذي تفرك به النسوة الأرض وجدران الأكواخ . عمل أوكاجبوي صامتاً دونما كلل ، والتمع ظهره تحت حبّات العرق . ووقف أوكونكوو إلى جانب الحفرة . طلب من أوكاجبوي أن يصعد ويرتاح بينما سيعمل هو . لكن أوكاجبوي قال إنه لم يتعب بعد .

ذهبت إيكويفي إلى كوخها لتطبخ اليام . فقد أخرج زوجها مقداراً من اليام أكبر من المألوف لأنه لابد من إطعام رجل الطب . وذهبت إيزينما معها لمعاونتها في تجهيز الخضار .

قالت : «هناك مقدار كبير جداً من الخضار» .

سألت إيكويفي : «ألا ترين أن القدر مليء باليام؟ أنت تعرفين كيف أن الأوراق تصغر بعد الطبخ» .

قالت إيزينما : «نعم ، لذلك السبب قتلتُ الأفعى السحلية أمها» .

قالت ايكويفي : «صحيح تماماً» .

قالت إيزينما : «أعطت أمها سبع سلال من الخضار لتطبخها وفي النهاية بقيت ثلاث . ولذلك قتلتها» .

ـ «تلك ليست نهاية الحكاية» .

قالت إيزينما : «أوهو . تذكرت الآن . أحضرت سبع سلال أخرى وطبختها بنفسها . وبقيت هناك مرة أخرى ثلاث سلال . فقتلت نفسها» .

في خارج الأوبي ، كان أوكاجبوي وأوكونكوو يحفران الحفرة ليعثروا على المكان الذي دفنت فيه إيزينما إيبي ـ أوواها . جلس الجيران حولهما ، يتفرجون . عمقت الحفرة الآن إلى حد أنهم لم يعودوا يرون الحفّار . بل رأوا الثرى الأحمر الذي ألقاه خارجاً وهو يتكّوم ويرتفع أكثر فأكثر . ووقف ابن أوكونكوو ، نوويي ، قرب حافة الحفرة لأنه أراد أن يستوعب كل ما يحدث .

حلّ أوكاجبوي محلّ أوكونكوو في الحفرة مرة أخرى ، وراح يعمل ، كعادته ، بصمت . شرعت الجارات وزوجتا أوكونكوو يتبادلن الأحاديث . ثم فَقَدَ الأطفال اهتمامهم وبدأوا يلعبون .

فجأة ، وثب أوكاجبوي إلى خارج الحفرة بخفة فهد .

قال أوكاجبوي : «إنه قريب جداً الآن . فقد أحسست به» .

عمّ الجميع انفعال فوري ، ووثب الجالسون وقوفاً .

قال لأوكونكوو : «أدع زوجتك وطفلتك» . لكن إيكويفي وإيزينما كانتا قد سمعتا الضجة . فركضتا خارجتين لتجلوان حقيقة الأمر .

عاد أوكاجبوي إلى الحفرة التي أحاط بها الآن المتفرجون . بعد ملء بضع مجارف أخرى من الثرى ، صدم إيبيي ـ أووا . رفعه بحرص بالمجرفة وألقى به إلى سطح الأرض . فرت بعض النسوة خوفاً عندما ألقي به على الأرض . لكنهن سرعان ما عدن ووقف الجميع يحدّقون في الخرقة من مسافة معقولة . برز أوكاجبوي من الحفرة ، ودون أن يتفوه بكلمة أو حتى يتطلع إلى المشاهدين ، مضى إلى كيسه من جلد الماعز ، وأخرج ورقتين وبدأ يمضغهما . حينما ابتلعهما ، رفع الخرقة من الأرض بيده اليسرى وبدأ يحلّ عقدتها . عندئذ ، وقعت الحصاة الناعمة اللامعة . فالتقطها .

سأل إيزينما : «هل هذه لك؟» .

أجابت : «نعم» . صرخت جميع النسوة بابتهاج لأن متاعب إيكويفي انتهت أخيراً .

حدث كل هذا قبل أكثر من سنة ، ولم تمرض إيزينما منذ ذلك الوقت . لكن ، ها هي ترتعد فجأة في الليل . فقرّبتْها إيكويفي إلى موقع النار ، ومدّت حصيرتها على الأرض وأشعلت ناراً . لكن حالتها ساءت أكثر فأكثر . حين ركعت إلى جانبها ، تتحسس بكفها جبينها المبتل الملتهب ،

صلّت آلاف المرات . ومع أن امرأتيّ زوجها قالتا إنها مجرد إيبا ، إلاّ أنها لم تسمعهما .

عاد أوكونكوو من الغابة حاملاً على كتفه الأيسر حزمة كبيرة من الأعشاب وأوراق الشجر والجذور واللحاء جمعها من الأشجار والشجيرات الطبيّة . دخل إلى كوخ إيكويفي ، وأنزل حمله وجلس .

قال : «أحضري لي قدراً ، واتركي الطفلة وحدها» .

ذهبت إيكويفي لتحضر القدر واختار أوكونكوو أفضل ما في حزمته ، وفقاً لمقاديرها المناسبة ، وقطعها قطعاً صغيرة . ثم وضعها في القدر وصبّت عليها إيكويفي بعض الماء .

سألت عندما صبّت في القدر نصف الماء تقريباً : «هل يكفي ذلك؟»

زأر أوكونكوو فيها : «أكثر قليلاً . . .قلتُ قليلاً . هل أنتِ صماء؟»

وضعت القدر على النار وتناول أوكونكوو سيفه ليعود إلى أوبيّه .

قال وهو يذهب : «يجب أن تراقبي القدر بعناية ، لا تتركيه يغلي ويفور . إذا فار ، ستذهب قوته» . مضى إلى كوخه وبدأت إيكويفي تعنى بالقدر كما لو أنه هو نفسه تقريباً طفل مريض . تنقّل بصرها باستمرار بين إيزينما والقدر الغالي ثم عاد إلى إيزينما .

عاد اوكونكوو عندما أحس أن الدواء غلى كفاية . تفحصه وقال إنه جاهز .

قال : «أحضري لي مقعداً واطئاً لإيزينما وحصيرة سميكة» .

أنزل القدر عن النار ووضعه أمام المقعد . ثم أنهض إيزينما ووضعها

على المقعد ، منفرجة الساقين فوق القدر النافث بخاراً . وألقى الحصيرة فوقهما . جاهدت إيزينما لتفلت من البخار الخانق القوي ، لكنها ثبتت في مكانها . وبدأت تبكي .

عندما أزيحت الحصيرة عنها أخيراً كانت غارقة في العرق . مسحت إيكويفي جسدها بقطعة قماش ورقدت على حصيرة جافة وسرعان ما استغرقت في النوم .

فصل ١٠

بدأت جماهير غفيرة تتجمع في قرية إيلو حالما خفّت حدة حرارة الشمس ولم تعد مؤلمة على الجسم . كانت معظم الاحتفالات الجماعية تجري في مثل ذلك الوقت من النهار ، فحتى عندما يذكر أن احتفالاً سيبدأ «بعد وجبة منتصف النهار» ، يعرف الجميع بأنه سيبدأ بعد ذلك بفترة طويلة ، عندما تخف حرارة الشمس .

كان واضحاً من طريقة وقوف وجلوس الحشد أن الاحتفال خاص بالرجال فقط . لكن كثيراً من النسوة وجدت هناك ، فبَدَوْن من الأطراف كالغريبات . جلس حاملو الألقاب والشيوخ على مقاعدهم بانتظار أن تبدأ المحاكمات . وأمامهم صف من المقاعد لم يجلس عليها أحد . كانت هناك تسعة من هذه المقاعد . وقفت مجموعتان صغيرتان من الأشخاص على مسافة لائقة وراء المقاعد . واجهوا الشيوخ . كان في المجموعة الأولى ثلاثة رجال ، وفي الثانية ثلاثة رجال وامرأة . كانت المرأة هي مجبافو والرجال الثلاثة الذين برفقتها إخوانها . وفي المجموعة الأخرى زوجها ، أوزوولو ، وأقاربه . كانت مجبافو وإخوانها جامدين كتماثيل صب الفنان في وجوههم تحدياً . بينما راح أوزوولو وأقاربه ، بالمقابل ،

يتهامسون فيما بينهم . بدوا كأنهم يهمسون ، لكنهم في الحقيقة كانوا يتحدثون بأعلى أصواتهم . كان كل مَنْ في الحشد يتحدث . وكان المشهد أشبه بسوق . بدا صوت الضجة من بعيد أشبه بهدير تحمله الريح .

دوّى صوت جرس قرصيّ حديديّ مطلقاً موجة من الترقّب بين الحشد . تطلع الجميع باتجاه بيت الإيجووجوو . جوم ، جوم ، جوم ، جوم ، انطلق الجرس القرصي ، وصدرت عن ناي قوي نفخة عالية الطبقة . ثم أتت أصوات الإيجووجو حلقيّة ورهيبة . لطمت الموجة النساء والأطفال وحدث هروب فزع إلى الخلف . لكن هروبهم كان مؤقتاً . فقد كانوا واقفين على مسافة كافية بحيث يمكنهم أن يهربوا لو تقدم أي من الإيجووجوو نحوهم .

دوّى الطبل مرة أخرى وعزف الناي . أصبح بيت الإيجووجوو الآن جحيم أصوات مرتعشة : آرو أوييم دي دي دي داي ! ملأت الجو ، بينما راحت أرواح الأجداد ، التي انبثقت من الأرض لتوها ، تحيي بعضها البعض بلغتها الغامضة . كان بيت إيجووجوو الذي ظهرت منه الأرواح مواجهاً للغابة ، بعيداً عن الحشد الذي رأى فقط واجهة البيت الخلفية مزّينة بأشكال ورسومات رسمتها نساء اخترن خصيصاً لهذه الغاية على فترات منتظمة . لم تر هذه النسوة داخل الكوخ أبداً . كما لم تره أية امرأة أخرى مطلقاً . فقد فركن الجدران الخارجية وطلينها تحت إشراف الرجال . واذا كن تخيّلن ما في داخل البيت ، فانهن احتفظن بخيالاتهن لأنفسهن . فلا تطرح أية امرأة مطلقاً أية أسئلة حول أقوى عبادة وأكثرها سرّية في العشيرة .

آرو أويـيم دي دي دي داي ! تـطايـرت الأصـوات حـول الكـوخ المـقـفـل المظلم مثل ألسنة نار . كانت أرواح أجداد العشيرة قد خرجت . دق جرس الحـديد الـقرصـيّ الآن بصـورة متـواصلة وطـفا صـوت النـاي ، ثابتـاً وقـوياً ، فوق الفوضى .

ثم ظهر الإيجووجوو . فأطلقت النساء والأطفال صرخة مدوية وفررن . كـان هـذا تصـرفـاً غـريـزيـاً . فـأية امـرأة تـفـر دائمـاً فـور ظهـور الإيـجـووجـوو للعيان . وحين ظهرت ، في ذلك اليوم ، تسع من أرواح العشيرة المقنعة كـان ذلك مشـهـداً مرعـباً . حـتى مـجبـافـو فَرّتْ هاربـة واضطر إخـوانهـا إلى إيقافها .

كـان كل واحـد من الإيجـووجـوو يمـثل قـرية من قـرى العـشيـرة . وكـان قائدها يدعى غابة الشر . وقد تصاعد الدخان خارجاً من رأسه .

انحدرت قرى أومووفيا التسع من تسعة أبناء لأب العشيرة الأول . كان غابة الشر يمثل قرية أوميرو ، أو أطفال إيرو ، الذي كان أكبر الأبناء التسعة .

صرخ زعيم الايـجووجوو ، وهو يدفع الهواء بذراعيه الملفوفتين بليف نخيل الرافيا : «أومووفيا كوينو !» فأجاب شيـوخ العشيرة : «ياو !»

ـ «أومووفيا كوينو !»

ـ «يا ا !»

ـ «أومووفيا كوينو !»

ـ «يا ا !»

غرز غـابة الشـر طرف عصـاه المدببـة المخشخشة في الأرض . فبدأت

العصا تهتز وتخشش ، مثل شيء يجيش بحياة معدنية . ثم جلس غابة الشر على أول المقاعد الخالية وبدأ الإيجووجوو الآخرون يجلسون بعده حسب أقدمية كل واحد منهم .

لاحظت زوجات أوكونكوو ، ولعل نساء أخريات لاحظن أيضاً ، أن للإيجووجوو الثاني نفس مشية أوكونكوو الخفيفة النشيطة . من المحتمل أيضاً أنهن لاحظن أن أوكونكوو لم يكن بين حاملي الألقاب والشيوخ الجالسين خلف صف الإيجووجوو . لكن ، إذا كن قد فكرن بهذه الأمور ، فإنهن احتفظن بأفكارهن لأنفسهن . فالإيجووجو ذو المشية الخفيفة النشيطة كان أحد آباء العشيرة الميّتين . وقد بدا مخيفاً بجسده الملفوف بليف الرافيا المسوّد بالدخان ، ووجهه الخشبي الضخم المدهون باللون الأبيض ما عدا عينيه المستديرتين المجوفتين وأسنانه المتفحمة التي كانت كبيرة بحجم أصابع يد رجل . وبرز من رأسه قرنان قويان .

حين جلس جميع الإيجووجوو على مقاعدهم وهدأت أصوت الأجراس والجلاجل الكثيرة المعلّقة على أجسامهم ، خاطب غابة الشر المجموعتَيْن المواجهتَيْن له .

قال : «يا جسم أوزوولو ، أنا أحييك» . فالأرواح كانت تخاطب الأحياء دائماً «كأجسام» . انحنى أوزوولو ولمس الأرض بيده اليمنى علامة على الخضوع .

قال : «يا أبانا ، يدي لمست الأرض» .

سأل : «يا جسم أوزوولو ، هل تعرفني ؟»

ـ «كيف لي أن أعرفك يا أبانا؟ أنتَ خارج نطاق معرفتنا» .

ثم التفتَ غابة الشر إلى المجموعة الأخرى وخاطب أكبر الأخوة الثلاثة سناً .

قال : «يا جسم أودوكوي ، أنا أحييك» ، وانحنى أودوكوي ولمس الأرض . وبدأت المرافعة .

خطا أوزوولو إلى الأمام . وعرض قضيته .

ـ «هذه المرأة الواقفة هناك هي زوجتي ، مجبافو . تزوجتها بنقودي ويامي . وأنا لست مديناً لأصهاري بأي شيء . لست مديناً لهم بيام . لست مديناً لهم بكوكو ـ يام . ذات صباح أتى ثلاثة منهم إلى بيتي ، وضربوني وأخذوا زوجتي وأطفالي وأبعدوهم عني . حدث هذا في الموسم الممطر . انتظرت عبثاً عودة زوجتي إليّ . وأخيراً ، ذهبت إلى بيت أصهاري وقلت لهم : «لقد استعدتم شقيقتكم . وأنا لم أرسلها إليكم . أنتم أنفسكم أخذتموها . قانون العشيرة يلزمكم برد مهرها» . لكن أخوة زوجتي قالوا إنه ليس لديهم ما يقولونه لي . لهذا رفعت الأمر الى آباء العشيرة . انتهت قضيتي . أنا أحييكم» .

قال زعيم إيجووجوو : «كلماتك حسنة . لنسمع أودوكوي . قد تكون كلماته أيضاً حسنة» .

كان أودوكوي قصيراً وغليظ البنية . خطا إلى الأمام وحيا الأرواح وبدأ قصته .

ـ «صهري أخبركم بأننا ذهبنا إلى بيته ، وضربناه وأخذنا أختنا وأطفالها وأبعدناهم عنه . كل ذلك صحيح . وأخبرك بأنه جاء ليسترد مهره ورفضنا إعادته إليه . ذلك صحيح أيضاً . صهرنا ، أوزوولو ، وحش . عاشت معه

أختنا تسع سنوات . وخلال هذه السنوات لم يمر يوم واحد في السماء دون أن يضرب المرأة . حاولنا أن نسوي الخلافات بينهما مرات عديدة لا يحصى عددها ، وفي كل المناسبات كان أوزوولو مذنباً ـ »

صاح أوزوولو : «هذا كذب !»

تابع أودوكوي : «قبل سنتين ، حينما كانت حاملاً ، ضربها حتى أجهضت» .

ـ «هذا كذب . لقد أجهضت بعد أن ذهبت لتنام مع عشيقها» .

قال غابة الشر وهو يسكته : «يا جسم أوزوولو ، أنا أحييك . أي عاشق ينام مع امرأة حبلى؟» علت همهمة الاستحسان من الجمهور . تابع أودوكوي : «في السنة الماضية ، حين كانت أختي تتعافى من مرض ألمّ بها ، ضربها مرة أخرى ضرباً مبرّحاً جداً إلى درجة أنه لولا دخول الجيران عليهما وإنقاذهم لها لكان قتلها . سمعنا هذا ، وفعلنا ما أخبرتكم به . إن قانون أوموفيا يقضي بأنه إذا هربت امرأة من زوجها فإنه يجب أن يعاد مهرها إليه . لكن المرأة في هذه القضية هربت لتنفذ حياتها . إن طفليها ينتميان إلى أوزوولو . ونحن لا نعترض على هذا ، لكنهما أصغر من أن يتركا أمهما . بالمقابل ، إذا شفي أوزوولو من جنونه وجاء حسب الأصول ليرجو زوجته أن تعود إليه ، فستعود إليه على شرط أنه إذا ضربها مرة أخرى فسنقطع أعضاءه التناسلية» .

ضج الجمهور بالضحك . هبّ غابة الشرّ واقفاً على قدميه فعاد النظام على الفور . ارتفعت سحابة متواصلة من الدخان من رأسه . ثم جلس ثانية واستدعى شاهدين . كان كلاهما من جيران أوزوولو فأقرّ كلاهما موضوع

الضرب . عندئذ ، نهض غابة الشر ، وسحب عصاه وأعاد غرسها في الأرض ثانية . ركض عدة خطوات باتجاه النساء ، فهربن كلهن مذعورات ليعدن على الفور تقريباً إلى أماكنهن . ذهب الإيجووجوو التسعة إلى بيوتهم للتداول وساد الصمت فترة طويلة . ثم دوى القرص المعدني وعُزف الناي . برز الإيجووجوو مرة أخرى من بيتهم الواقع تحت الأرض تبادلوا التحيات وعادوا إلى الظهور في الإيلو .

زأر غابة الشر ، وهو يواجه الشيوخ ووجهاء القبيلة : «أومووفيا كوينو !»

أجاب الجمهور بصوت كهدير الرعد : «يا ا !» ثم هبط الصمت من السماء وابتلع الضجيج .

بدأ غابة الشر يتكلم ، لبث الجميع صامتين طوال الوقت الذي تكلم فيه . جلس الإيجووجوو الثمانية الآخرون ساكنين كالتماثيل .

قال غابة الشر : «استمعنا إلى الطرفين في القضية . واجبنا ليس أن نلوم هذا الرجل أو نمدح ذلك ، بل أن نسوي النزاع» . استدار إلى فريق أوزوولو وكفّ قليلاً عن الكلام .

ـ «يا جسم أوزوولو ، هل تعرفني ؟»

أجاب أوزوولو : «من أين لي أن أعرفك يا أبي ؟ أنتَ خارج نطاق معرفتنا» .

ـ «أنا غابة الشر . أنا أقتل الشخص يوم تصبح حياته أحلى ما تكون بالنسبة إليه» .

أجاب أوزوولو : «هذا صحيح» .

ـ «إذهب إلى أصهارك مع زق نبيذ وارجُ زوجتك أن تعود إليك . ليس من الشجاعة أن يقاتل رجل امرأة» . التفت إلى أودوكوي ، وترك فترة من الوقت تمر .

ثم قال : «يا جسم أودوكوي ، أنا أحييك» .

أجاب أودوكوي :«يدي على الأرض» .

ـ «هل تعرفني؟»

أجاب أودوكوي : «لا أحد يستطيع أن يعرفك» .

ـ «أنا غابة الشر ، أنا لحم جاف يملأ الفم ، أنا نار مشتعلة بلا حزم حطب . إذا أحضر صهرك نبيذاً إليك ، دع أختك تذهب معه . أنا أحييك» .

سحب عصاه من التراب الصلب وغرسها ثانية .

زأر ، فأجاب الجمهور : «أوموفيا كوينو !»

قال شيخ إلى الآخر : «لا أعرف لماذا تعرض مسألة تافهة كهذه أمام الإيجووجوو» .

أجاب الآخر : «أنت لا تعرف أي نمط من الرجال هو أوزوولو؟ إنه لن يستمع إلى أي قرار آخر» .

بينما كانا يتبادلان الحديث ، مَثل أمام الإيجووجوو فريقان آخران من الأشخاص حلاّ محل الفريقين الأولين ، وبدأت قضية حول أرض كبيرة .

فصل ١١

كان الليلُ حالك السواد . وقد ظل القمر يتأخر في البزوغ ليلة إثر ليلة إلى أن أصبح الآن يُرى قرابة الفجر فقط . وكلما هجر القمر المساء وبزغ مع صياح الديك ، كلما أصبحت الليالي سوداء كفحم نباتي .

جلست إيزينما وأمها فوق حصيرة على الأرض بعد وجبة العشاء المشكّلة من الفو ـ فو يام وحساء ورق الشجر المر . شعّ مصباح زيت النخيل بضوء مائل إلى الصفرة . بدونه ، كان من المستحيل تناول الطعام ، ولَما عَرَف الإنسان أين يقع فمه في عتمة ذلك الليل . كان هناك مصباح زيت النخيل في كل الأكواخ الأربعة في مجمّع أوكونكوو ، وبدا كل كوخ من الأكواخ الأخرى مثل عين ذابلة من ضوء أصفر خافت في كتلة الليل الصماء .

كان العالم صامتاً ما عدا زعيق الحشرات الحادّ ، الذي كان جزءاً من الليل ، وصوت الهاون الخشبيّ والمدقة بينما كانت نواييكي تسحق الفو ـ فو . كانت نواييكي تقيم على بعد أربعة مجمّعات ، وقد اشتهرت بتأخرها في طبخ الطعام . عرفت كل امرأة في الجوار صوت هاون ومدقة نواييكي . وكان صوته جزءاً من الليل أيضاً .

كان أوكونكوو قد أكل من أطباق زوجاته واتكأ الآن على الجدار مستنداً بظهره إليه . بحث في كيسه وأخرج منه قنينة السعوط . قلبها فوق كف يده اليسرى ، لكن شيئاً لم يخرج منها . فضرب القنينة على ركبته ليهزّ التبغ . تلك هي المشكلة دائماً مع سعوط أوكيكي . إنه يصبح رطباً بسرعة شديدة ، وفيه كثير من الملح الصخري . لم يشتر أوكونكوو منه سعوطاً منذ فترة طويلة ، فإيديجو هو الرجل الذي يعرف كيف يسحن سعوطاً سحناً جيداً . لكنه وقع مؤخراً فريسة المرض .

تناهت إلى سمع أوكونكوو أصوات خافتة ، يقطعها الغناء بين حين وآخر ، صادرة عن أكواخ زوجاته وهن يتبادلن مع أطفالهن رواية الحكايات الشعبية . جلست إيكويفي وابنتها إيزينما على حصيرة على الأرض . وجاء دور إيكويفي لتروي حكاية .

بدأت : كان يا ما كان أن دعي جميع الطيور إلى وليمة في السماء . سعدت جميعها سعادة عظيمة ، وراحت تعدّ نفسها لليوم العظيم . فصبغت أجسامها بخشب الكام الأحمر ورسمت أشكالاً جميلة عليها بالأولي .

رأى ذكر سلحفاة جميع هذه الاستعدادات وسرعان ما اكتشف كل ما عنته . فلا يغيب عن ملاحظته أي شيء يحدث في عالم الحيوان ، فهو مفعم بالمكر . وما إن سمع بالوليمة الكبيرة في السماء حتى بدأ ريقه يتحلّب لمجرد التفكير فيها . كانت هناك مجاعة في تلك الأيام ، ولم يكن ذكر السلحفاة قد أكل وجبة جيدة منذ قمرين . طقطق جسمه مثل قطعة خشب جافة في درعه الأجوف فبدأ يخطط كيف سيذهب إلى السماء .

قالت إيزينما : «لكن ليس له أجنحة» .

أجابت أمها : «أصبري . تلك هي القصة . ليس لذكر السلحفاة أجنحة ، لكنه ذهب إلى الطيور وطلب منها أن تسمح له بالذهاب معها .

قالت الطيور حين سمعته : «نحن نعرفك جيداً . أنت ماكر جداً وناكر للجميل . وإذا سمحنا لك بالذهاب معنا فستبدأ بارتكاب الشرور» .

قال ذكر السلحفاة : «أنتم لا تعرفونني . أنا تغيرت . فقد تعلمت أن الرجل الذي يسبب متاعب للآخرين يسبب متاعب لنفسه» .

كان لذكر السلحفاة لسان حلو ، وسرعان ما وافقت جميع الطيور على أنه أصبح رجلاً متغيّراً ، فأعطاه كل طائر ريشة ، فصنع لنفسه منها جناحين .

أخيراً ، حلّ اليوم العظيم ، وكان ذكر السلحفاة أول مَنْ وصل إلى مكان التجمّع ، وحين اجتمعت جميع الطيور هناك ، انطلقت سوية في سرب واحد . كان ذكر السلحفاة سعيداً جداً ذلق اللسان وهو يطير بين الطيور ، وسرعان ما اختير ليتكلم باسمها لأنه كان خطيباً مفوهاً .

قال والطيور تطير في طريقها إلى الوليمة : «هناك أمر مهم واحد يجب ألاّ ننساه . حين يدعى الناس إلى وليمة عظيمة كهذه ، يتبنون أسماء جديدة لهذه المناسبة . وسيتوقع مضيفونا في السماء أن نحترم هذه العادة القديمة جداً» .

لم يكن أحد من الطيور قد سمع بهذه العادة ، لكن الطيور كانت تعرف أن ذكر السلحفاة مخلوق كثير الأسفار ويعرف عادات شعوب مختلفة ، على الرغم من نقائصه في اتجاهات أخرى . وهكذا اختار كل منها اسماً .

وحين اختاروا كلهم أسماء جديدة ، اختار ذكر السلحفاة اسماً أيضاً . كان لابد أن يُدعى : كُلّكُم .

أخيراً ، وصل السرب إلى السماء ، وكان مضيفوهم سعداء جداً لرؤيتهم . نهض ذكر السلحفاة بريشه متعدد الألوان وشكرهم على دعوتهم . كان خطابه بليغاً جداً إلى حد أن كل الطيور أحست بالسعادة لأنها أحضرته معها ، وأومأت برؤوسها موافقة على كل ما قاله . فاعتبره مضيفوهم ملك الطيور ، خاصة وأنه بدا مختلفاً نوعاً ما عن الآخرين .

بعد تقديم جوز الكولا وأكله ، بسط قوم السماء أمام ضيوفهم أشهى أطباق رآها ذكر السلحفاة في حياته أو حلم بها . فجلب الحساء ساخناً عن النار في نفس القدر الذي طبخ فيه . وكان مليئاً باللحم والسمك . بدأ ذكر السلحفاة يتشمم بصوت مسموع . كان هناك يام مسحوق وحساء يام مطبوخ بزيت النخيل مع سمك طازج . كان هناك أيضاً زقاق من نبيذ نخيل . وبعدما بُسط كل شيء أمام الضيوف ، تقدّم شخص من قوم السماء وتذوّق قليلاً من كل قدر . ثم دعا الطيور إلى الأكل . لكن ذكر السلحفاة هبّ واقفاً على قدميه وسأل : «لمن أعددتم هذه الوليمة؟»

أجاب الرجل : «لـِ كُلّكُم» .

التفت ذكر السلحفاة إلى الطيور وقال : «أنتم تذكرون أن اسمي هو : كلّكم . والعادة هنا أن يقدّم الطعام للناطق بلسان الضيوف أولاً ، وللآخرين بعد ذلك . سيُقدّم الطعام لكم بعد انتهائي من الأكل» .

بدأ يأكل والطيور تهمهم بغضب . اعتقد قوم السماء أن عاداتهم تقضي بأن تترك الطيور جميع الطعام لملكها . هكذا أكل ذكر السلحفاة أفضل

الطعام ثم شرب زقين من نبيذ النخيل ، فامتلأ بالطعام والشراب وانتفخ جسمه في داخل درعه .

تجمّعت الطيور لتأكل ما بقي وتنقر العظام التي ألقاها حوله على الأرض . كان بعضها غاضباً إلى درجة أنه عاف الأكل . وفضّل أن يطير عائداً إلى بلده بمعدة خاوية . لكن ، وقبل أن يرحلوا ، استرد كل طائر من ذكر السلحفاة الريشة التي أعاره إياها . هكذا بقي ذكر السلحفاة في درعه الصلب ممتلئاً بالطعام والشراب لكن دون أية أجنحة يطير بها إلى البيت . طلب من الطيور أن تنقل رسالة لزوجته ، إلاّ أن الجميع رفض ذلك . بيد أن الببغاء ، الذي أحسّ بالغضب أكثر من الآخرين ، غيّر رأيه ووافق على نقل الرسالة .

قال ذكر السلحفاة : «أخبر زوجتي أن تخرج كل الأشياء اللينة في منزلي وتغطي بها ساحات البيت حتى أقفز إليها من السماء دون أن أتعرض لخطر شديد» .

وعده الببغاء بنقل الرسالة ، ثم طار راحلاً . إلا أنه أخبر زوجة ذكر السلحفاة ، حينما وصل إلى بيته ، أن تخرج جميع الأشياء الصلبة في البيت . هكذا أخرجت الزوجة مجارف زوجها وسكاكينه ورماحه وبنادقه وحتى مدفعه . تطلع ذكر السلحفاة من السماء إلى الأسفل ورأى زوجته تخرج أشياء ، لكنها كانت بعيدة جداً إلى حد أنه لم يميّز ما أخرجته . وحين بدا كل شيء جاهزاً ، ترك نفسه ينطلق . هوى وهوى وهوى إلى أن بدأ يخشى أنه لن يكفّ عن السقوط أبداً . ثم بصوت مثل قصف مدفعه ، ارتطم بمجمّع سكنه» .

سألت إيزينما : «هل مات؟»

أجابت إيكويفي : «لا ، تكسّر درعه إلى قطع صغيرة . لكن رجل طب عظيماً كان يعيش في الجوار . فأرسلت زوجته في طلبه ، فجمع هذا كل القطع الصغيرة وألصقها ببعضها . لذلك السبب نرى درع السلحفاة غير أملس» .

قالت إيزينما : «لا توجد أغنيه في الحكاية» .

قالت إيكويفي : «لا . سأفكر في حكاية أخرى فيها أغنية . لكن الدور عليك الآن» .

بدأت إيزينما : «كان يا ما كان أن السلحفاة والقط ذهبا ليتصارعا مع اليام ـ لا ، هذه ليست البداية . كان يا ما كان أن كانت هناك مجاعة كبيرة في بلد الحيوانات . كانت أجسام الجميع هزيلة ما عدا القط ، الذي كان سميناً وجسمه يلتمع كأنه كان قد دُلك . . .»

توقفت عن الحديث ، ففي تلك اللحظة بالذات حطّم صوت مرتفع عالي الطبقة صمت الليل الخارجي . كانت تشيلو ، كاهنة أجبالا ، تتنبأ . لم يكن هناك جديد في الأمر . فبين فترة وأخرى كانت روح إله تشيلو تتقمصها فتبدأ بالتنبؤ . لكن نبوءاتها وتحياتها كانت موجهة هذه الليلة إلى أكونكوو ، لذا أصغى جميع أفراد العائلة إليها . وتوقفت الحكايات الشعبية .

أتى الصوت كسكين حادة تقطع الليل : «أجبالا دو ـ و ـ و ـ و ! أجبالا إيكينيو ـ و ـ و ـ و ـ . أوكونكوو ! أجبالا إيكيني جيو ـ و ـ و ـ و ! أجبالا شولو إيفو آدا يا إيزينما و ـ و ـ و !»

عند ذكر اسم إيزينما ، انتفض رأس إيكويفي بعنف مثل حيوان اشتم رائحة الموت في الهواء . قفز قلبها متوجعاً في داخلها .

في هذه الأثناء ، وصلت الكاهنة إلى منزل أوكونكوو وبدأت تتحدث معه خارج كوخه . ظلت تكرر المرة تلو المرة أن أجبالا يريد رؤية ابنته إيزينما . ورجاها أوكونكوو أن تعود في الصباح لأن إيزينما كانت نائمة الآن . لكن تشيلو تجاهلت كل ما كان يحاول قوله وواصلت الصراخ بأن أجبالا يريد رؤية ابنته . كان صوتها واضحاً كالمعدن ، فسمعت نساء وأطفال أوكونكوو في أكواخهن كل ما قالته . كان أوكونكوو لا يزال يتوسل إليها قائلاً إن الفتاة ظلّت مريضة منذ فترة وأنها نائمة . فأدخلتها إيكويفي بسرعة إلى غرفة نومهما ووضعتها على سريرهما المرتفع المصنوع من الخيزران .

صرخت الكاهنة فجأة . حذّرته : «إحذر يا أوكونكوو ! إحذر من تبادل الكلام مع أجبالا . هل يتكلم الإنسان حين يتكلم الإله؟ إحذر !»

اجتازت كوخ أوكونكوو وذهبت مباشرة إلى كوخ إيكويفي . لحق بها أوكونكوو .

نادت : «إيكويفي ، أجبالا يحييك . أين ابنتي إيزينما؟ أجبالا يريد أن يراها» .

خرجت إيكويفي من كوخها حاملة مصباح زيت النخيل بيدها اليسرى . كانت ريح خفيفة تهب ، لذلك كوّرت يدها اليمنى لتحمي اللهب . ظهرت أم نوويي من كوخها ، حاملة أيضاً مصباح زيت . وقف

الأطفال في العتمة خارج أكواخهم يراقبون الحدث العجيب . خرجت زوجة أوكونكوو الصغرى أيضاً وانضمت إلى الآخرين .

سألت إيكويفي : «أين يريد أجبالا رؤيتها؟»

أجابت الكاهنة : «في أي مكان آخر غير منزله في التلال والكهوف؟»

قالت إيكويفي بحزم :«سأذهب معكما أيضاً» .

لعنت الكاهنة : «توفيا ـ آ!» ، وصوتها يفرقع كنباح الرعد الغاضب في الفصل الجاف . «كيف تجرؤين يا امرأة على الذهاب إلى أجبالا الجبار بمحض إرادتك؟ إحذري يا امرأة لئلا يصعقك وهو غاضب . أحضري لي ابنتي» .

دخلت إيكويفي إلى كوخها وخرجت ثانية مع إيزينما .

قالت الكاهنة : «تعالي يا بنيّتي ، سأحملك على ظهري . فالطفل على ظهر أمه لا يعرف أن الطريق طويل» .

بدأت إيزينما تبكي . فقد اعتادت على أن تدعوها تشيلو «يا بنيّتي» . لكن ما رأته الآن ، في الضوء الأصفر الخافت ، تشيلو مختلفة .

قالت الكاهنة : «لا تبكي يا بنيتي ، وإلاّ غضب أجبالا منك» .

قالت إيكويفي : «لا تبكي ، ستعيدك إلى هنا بسرعة . وسأعطيك بعض السمك لكي تأكليه» . دخلت إلى الكوخ مرة أخرى وأنزلت السلة المسودّة التي تحتفظ فيها بسمكها المجفف والمواد الأخرى المستخدمة في طبخ الحساء . قسمت قطعة إلى نصفين وأعطتها إلى إيزينما التي التصقت بها .

قالت إيكويفي : «لا تخافي» ، وربتت على رأسها المحلوق في عدة مواضع ليتخذ الشعر المتبقي شكلاً منتظماً . وخرجتا ثانية . ركعت الكاهنة على إحدى ركبتيها وتسلّقت إيزينما ظهرها ، وكفّها مطبقة على قطعة السمك وعيناها متألقتان بالدموع .

بدأت تشيلو تنشد التسابيح إلى إلاهها من جديد : «أجبالا دو ـ و ـ و ـ و ! أجبالا إيكينيو ـ و ـ و ـ و . . .» واستدارت إلى الخلف بعنف ومرّت عبر كوخ أوكونكوو ، حانية ظهرها بشدة عند الإفريز . كانت إيزينما تبكي بصوت عالٍ الآن ، منادية أمها . واختفى الصوتان في الظلام الدامس .

هبط وهن غريب مفاجىء على إيكويفي وهي تقف محدّقة في اتجاه الصوتين مثل دجاجة إختطفت حدأة كتكوتها الوحيد وحملته بعيداً . تلاشى صوت إيزينما بسرعة وترامى إليها فقط صوت تشيلو وهو يبتعد أكثر فأكثر في المدى .

سأل أوكونكوو وهو يعود إلى كوخه : «لماذا تقفين هنا كأنها اختطفت؟»

قالت أم نوويي : «ستعيدها سريعاً» .

لكن إيكويفي لم تسمع هذه المواساة . وقفت ساكنة برهة ، ثم فجأة ، حزمت أمرها . أسرعت مجتازة كوخ أوكونكوو وانطلقت إلى الخارج .

سأل : «إلى أين أنتِ ذاهبة؟»

أجابت : «سألحق بتشيلو» ، واختفت في الظلام . سلّك أوكونكوو حلقه ، وأخرج قنينة السعوط من كيس جلد الماعز الموضوع إلى جانبه .

راح صوت الكاهنة يختفي تدريجياً في المدى . فسارعت إيكويفي إلى درب المشاة الرئيسي ، واستدارت يساراً باتجاه الصوت . كانت عيناها عاجزتين في الظلام . لكنها شقّت طريقها بسهولة فوق درب المشاة الرمليّ المحاط من الجانبين بالأغصان وأوراق الأشجار الرطبة . شرعت تعدو ، ممسكة ثدييها لتمنعهما من الارتطام بجسمها بصوت ضاجّ . اصطدمت قدمها اليسرى بجذر بارز فوق سطح الأرض ، فتملكها الرعب . كان هذا نذير شؤم . أسرعت أكثر في عدوها . لكن صوت تشيلو كان لا يزال بعيداً جداً . هل كانت تعدو هي أيضاً؟ كيف أمكنها أن تمضي بهذه السرعة وإيزينما على ظهرها؟ مع أن الليل كان بارداً بطراوة ، إلا أن إيكويفي بدأت تحسّ بالحرارة من عدوها . اصطدمت باستمرار بالأعشاب وافرة النماء والنباتات المعرّشة التي سدت الطريق . تعثرت مرة ووقعت على الأرض . عندها فقط أدركت ، مجفلة ، أن تشيلو كفّت عن الإنشاد . خفق قلبها بعنف ووقفت ساكنة . ثم أتى جيشان تشيلو المتجدد من بضع خطوات أمامها فقط . لكن إيكويفي لم تتمكن من رؤيتها . أغمضت عينيها برهة ، وفتحتهما ثانية وهي تبذل جهداً لكي ترى . لكن هذا كان لامجدياً ، فلم تستطع أن ترى ما هو أبعد من أنفها .

لم يكن في السماء نجوم لوجود سحابة مطر فيها . كانت تحوم حولها اليراعات بمصابيحها الخضراء الضئيلة ، فتجعل الليل أشد حلكة . وبين تفجرات تشيلو ، كان الليل يضجّ حياةً بارتعاش حشرات الغابة الثاقب المنسوج مع الظلمة .

ـ «أجبالا دو ـ و ـ و ـ و ! أجبالا إيكينيو ـ و ـ و ـ و ! . .»

تثاقلت إيكويفي في السير خلفها دون أن تقترب منها أو تبتعد عنها .

فكرت أنهما ذاهبتان بالتأكيد إلى الكهف المقدس . بعدما راحت تمشي ببطء ، واتسع وقتها للتفكير . ماذا ستفعل عندما تصلان إلى الكهف؟ لن تجرؤ على الدخول . ستنتظر عند المدخل ، وحيدةً تماماً في ذلك المكان المخيف . فكرت في جميع كائنات الليل المرعبة . وتذكرت تلك الليلة ، منذ زمن بعيد ، عندما شاهدت أوجبو ـ أجالي ـ أودو ، إحدى الكائنات الشريرة التي أطلقتها في هذا العالم «الأدويةُ» القوية التي صنعتها القبيلة في الماضي السحيق ضد أعدائها ، ونسيت الآن كيف تسيطر عليها . كانت إيكويفي عائدة من الجدول مع أمها في ليلة مظلمة كهذه حينما شاهدتا وهج الكائن وهو يطير باتجاههما . ألقيتا بجرتيهما الى الأرض ، ورقدتا إلى جانب الطريق متوقعتين أن ينقض الضوء الشرير عليهما ويقتلهما . تلك كانت المرة الوحيدة التي رأت فيها إيكويفي أوجبو ـ أجالي ـ أودو . ومع أن هذا حدث قبل زمن طويل جداً ، إلا أن دمها ظل يجري بارداً في عروقها كلما تذكرت تلك الليلة .

أتى صوت الكاهنة على فترات متباعدة الآن ، لكن عنفوانه لم يتناقص . كان الهواء بارداً ورطباً بالندى . عطست إيزينما . فتمتمت إيكويفي : «الحياة لك» . في نفس الوقت قالت الكاهنة : «الحياة لك يا بنيّتي» . وبعث صوتَ إيزينما القادم من العتمة الدفء في قلب أمهاَ . وسارت متثاقلة ببطء .

فجأة ، صرخت الكاهنة . قالت : «إن شخصاً يسير خلفي ! سواء كنتَ روحاً أم رجلاً ، فليحلق أجبالا رأسك بموسى مثّلمة ! وليلوِ رقبتك إلى أن ترى عقيبك !»

تسمّرت إيكويفي في مكانها . قال لها جزء من عقلها : «يا امرأة ،

إرجعي إلى البيت قبل أن يلحق بك أجبالا الأذى» . لكنها لم تستطع ذلك . فوقفت ساكنة إلى أن زادت تشيلو المسافة بينهما وعاودت السير في إثرهما . كانت قد مشت فترة طويلة حتى أنها بدأت تحس بخدر خفيف في أطرافها ورأسها . ثم خطر ببالها أنهما لا يمكن أن تكونا قد اتجهتا نحو الكهف ، لا بد أنهما تجاوزتاه منذ وقت طويل ، لا بد أنهما اتجهتا نحو أومواتشي ، أبعد قرية من قرى العشيرة . وراح صوت تشيلو الآن يأتي على فترات متباعدة جداً .

خيل إلى إيكويفي أن الليل أصبح أخفّ حلكة . وانقشع السحاب وظهرت بضع نجوم . لابد أن القمر يستعد الآن للبزوغ . فقد انتهى حَرَنه . فحين يبزغ القمر متأخراً في الليل ، يقول الناس إنه يرفض الطعام ، مثلما يرفض الزوج الحرن طعام زوجته عندما يتشاجران .

ـ «أجبالا دو ـ و ـ و ـ و ! أومواتشي ! أجبالا إيكيني أونوو ـ و ـ و !»

كان خط السير تماماً كما فكّرت إيكويفي . فقد كانت الكاهنة تحيي الآن قرية أومواتشي . كانت المسافة التي قطعتاها لا تصدق . حين ظهرتا في القرية المكشوفة قادمتين من درب الغابة الضيق ، كان الظلام قد خفتت حلكته وأصبح بالإمكان رؤية أشكال الأشجار الغامضة . زرّت إيكويفي عينيها جاهدة أن ترى ابنتها والكاهنة ، لكنها كلما ظنت أنها رأت شكليهما كلما ذابتا على الفور ككتلة مصهورة في الظلام . وتابعت سيرها بخدر .

ظلّ صوت تشيلو يرتفع باستمرار الآن ، مثلما كان حين انطلقت في بدء سيرها . تملك إيكويفي إحساس بفضاء رحب ، وخمنت أنهما لابد

وأن تكونا في إيلو القرية ، أو الملعب . أدركت أيضاً ، بما يشبه الرجّة ، أن تشيلو لم تعد تتقدم إلى الأمام . بل كانت تستدير عائدة في الحقيقة . ابتعدت إيكويفي بسرعة عن خط تراجعها . فمرت تشيلو بها ، وبدأتا تعودان على نفس الطريق التي جاءتا منها .

كانت رحلة طويلة ومنهكة القوى ، وأحست إيكويفي نفسها كالسائر في نومه معظم الطريق . كان القمر بالتأكيد يبزغ ، ومع أنه لم يظهر في السماء بعد ، إلاّ أن ضوءه كان قد أذاب العتمة . واستطاعت إيكويفي الآن أن تميّز الكاهنة وحملها ؛ فأبطأت في خطوها كي تزيد المسافة بينهما ؛ إذ خشيت مما قد يحدث لو استدارت تشيلو فجأة ورأتها .

دعت في صلاتها أن يطلع القمر . لكنها وجدت الآن ضوء القمر الطالع الشاحب أرْعَب من الظلام . وأصبح العالم مأهولاً بأشكال غامضة خيالية انحلت تحت تحديقتها الثابتة وتشكّلت مرة أخرى متخذة هيئات جديدة . في إحدى المراحل ، بلغ الذعر بها مبلغاً كاد يدفعها إلى مناداة تشيلو طلباً للرفقة والمشاركة الإنسانية . فقد رأت هيئة رجل يتسلق نخلة ، رأسه إلى الأرض ورجلاه إلى الأعلى . لكن ، في تلك اللحظة بالذات ، ارتفع صوت تشيلو من جديد منشدة ترانيمها الممسوسة ، فأجفلت إيكويفي إذ لم يكن في صوتها مسحة من الإنسانية . لم تكن هذه هي نفس تشيلو التي تجلس معها في السوق وتبتاع أحياناً فطائر الفول لإيزينما التي تدعوها ابنتها . بل كانت امرأة مختلفة ـ كاهنة أجبالا ، وحي التلال والكهوف . وواصلت إيكويفي سيرها مجهدة بين خوفين . بدا وقع خطواتها الخدرة كما لو أنه صادر عن شخص آخر يمشي خلفها . وعُقد ذراعاها فوق ثدييها العاريين . وتساقط الندى بكثافة وأصبح الهواء بارداً . لم تعد تستطيع أن

تفكر ، ولا حتى بأهوال الليل . بل مشت الهوينى شبه غافية ، وحواسها تستيقظ فقط عندما تنشد تشيلو .

أخيراً ، انعطفت تشيلو وبدأت المرأتان تتجهان نحو الكهوف . منذ تلك اللحظة ، لم تتوقف تشيلو مطلقاً عن إنشادها . وحيَّتْ إلهها بعدد وافر من الأسماء - مالك المستقبل ، رسول الأرض ، الإله الذي يهلك الشخص حين تصبح الحياة أعذب ما تكون بالنسبة إليه . استيقظت إيكويفي أيضاً وتجددت مخاوفها التي أصابها الخدر .

كان القمر الآن قد طلع واستطاعت أن ترى تشيلو وإيزينما بوضوح . إنها لمعجزة أن تحمل امرأة طفلة بذلك الحجم بهذه السهولة ولهذه الفترة الطويلة . لكن إيكويفي لم تكن تفكر في ذلك . إذ لم تكن تشيلو في تلك الليلة امرأة .

- «أجبالأ دو - و - و - و ! أجبالأ إيكينيو - و - و ! تشي نيجبو - مادو أوبوسي ندو با ناتو يا أوتو داليو - و - و ! . . .»

رأت إيكويفي التلال تلوح لها في ضوء القمر . لقد شكلت حلقة دائرية مع كسرة في نقطة معينة يؤدي من خلالها درب المشاة إلى مركز الدائرة .

حالما خطت الكاهنة إلى داخل حلقة التلال هذه ، لم تتضاعف قوة صوتها فحسب ، بل ارتد في جميع الاتجاهات أيضاً . لقد كان المكان حقاً مقام إله عظيم . فاختارت إيكويفي طريقها بعناية وهدوء . بدأت تشك في حكمة قدومها . خطر ببالها : لن يحدث شيء لإيزينما . فكّرت : لن يحدث شيء لها . لو حدث شيء لها ، فهل يمكنها منعه؟ إنها لن تجرؤ

على دخول الكهوف الواقعة تحت الأرض . فكّرت : قدومها لا جدوى منه إطلاقاً .

بينما كانت هذه الخواطر تجول في ذهنها ، لم تدرك كم باتتا قريبتَيْن من فم الكهف . هكذا ، عندما اختفت الكاهنة وإيزينما على ظهرها عبر فتحة بالكاد تتسع لمرور دجاجة ، اندفعت إيكويفي راكضة كما لو أنها تريد إيقافهما . وفيما هي تقف محدّقة في الظلام الدائري الذي ابتلعهما ، تدفقت الدموع من عينيها ، وأقسمت بينها وبين نفسها بأنها إذا سمعت إيزينما تبكي فانها ستنطلق إلى داخل الكهف لتحميها من جميع الآلهة في العالم . ستموت معها .

بعد أن أقسمت ذلك القسم ، جلست على حافة مرتفع حجري وانتظرت . اختفى خوفها . سمعت صوت الكاهنة ، وقد تبدد منه الرنين المعدني في فراغ الكهف الواسع . دفنت وجهها في حضنها وانتظرت .

لم تدر كم مر من الوقت مضى وهي تنتظر . لا بد أنه وقت طويل جداً . كان ظهرها متجهاً نحو الدرب المفضي إلى خارج التلال . لا بد أنها سمعت ضجة خلفها ، فاستدارت بحدّة . وقف رجل حاملاً سيف تحطيب في يده . فأطلقت إيكويفي صرخة وهبّت واقفة على قدميها .

قال صوت أوكونكوو : «لا تكوني حمقاء» . وأضاف ساخراً : «ظننتُ أنك ستدخلين إلى المقام مع تشيلو» .

لم تجب إيكويفي . وملأت دموع عرفان بالجمل عينيها . عرفت أن ابنتها في أمان .

قال أوكونكوو : «إذهبي إلى البيت ونامي ، سأنتظر هنا» .

- «سأنتظر أنا أيضاً . كاد الفجر يبزغ . وقد صاح أول ديك» .

فيما هما يقفان هناك معاً ، عاد ذهن إيكويفي إلى أيام شبابهما . لقد تزوجت أنيني لأن أوكونكوو كان آنذاك أفقر من أن يتزوج . وبعد سنتين من زواجها من أنيني ، لم تعد تستطيع الاحتمال وفرت إلى أوكونكوو . كان هذا في الصباح الباكر وكان القمر يلمع . كانت ذاهبة إلى الجدول لجلب ماء . وكان بيت أوكونكوو ي الطريق إلى الجدول . دخلت وقرعت بابه ، فخرج هو . حتى في تلك الأيام ، لم يكن رجلاً كثير الكلام . فحملها ببساطة إلى سريره وبدأ يتحسس خصرها بحثاً عن طرف قطعة قماشها الفالت .

فصل ١٢

في صباح اليوم التالي خيّم على الجوار بأكمله جو احتفالي لأن صديق أوكونكوو، أوبيريكا، سيحتفل بأوري ابنته. فهو اليوم الذي يجلب فيه طالب يدها (بعد أن دفع الجزء الأعظم من مهرها) نبيذ النخيل، لا لوالديها وأقربائها المباشرين فقط، بل للمجموعة الواسعة والشاملة من الأقارب المدعوة أومونا أيضاً. ودُعي الجميع ـ الرجال والنساء والأطفال. لكنه كان في الحقيقة احتفالاً نسائياً، والشخصيتان الرئيسيتان فيه هما العروس وأمها.

ما إنْ طلع النهار حتى التهم الجميع الفطور بسرعة وبدأت النساء والأطفال يتجمعون في مجمّع أوبيريكا لمساعدة أم العروس في مهمتها الصعبة، لكن السعيدة، وهي الطبخ لقرية بكاملها.

كانت عائلة أوكونكوو تعجّ بالحركة مثل أية عائلة أخرى في الجوار. واستعدت أم نوويي وزوجة أوكونكوو الصغرى للانطلاق إلى مجمّع أوبيريكا مع جميع أطفالهما. حملت أم نوويي سلّة كوكو ـ يام، وفطيرة سمك مملّح ومدخن لتقدمهما إلى زوجة أوبيريكا. كما حملت زوجة

أوكونكوو الصغرى أوجيوجو ، سلة موز وكوكو ـ يام وقدراً صغيراً من زيت النخيل . حمل أطفالهما جرار ماء .

كانت إيكويفي متعبة ونعسانة من التجارب المضنية التي مرت بها في الليلة السابقة . لم يكن مضى وقت طويل جداً على عودتهما . فقد زحفت الكاهنة ، وإيزينما نائمة على ظهرها ، إلى خارج المقام على بطنها كأفعى . بالكاد ألقت نظرة على أوكونكوو وإيكويفي أو أظهرت دهشة لوجودهما على باب الكهف . بل شخصت ببصرها مباشرة أمامها ومشت عائدة إلى القرية . تبعها أوكونكوو وزوجته على مسافة لائقة . فقد اعتقدا أن الكاهنة قد تكون ذاهبة إلى بيتها ، لكنها مضت إلى مجمّع أوكونكوو ، وتجاوزت أوبيّه ودخلت كوخ إيكويفي ثم غرفة نومها . وضعت إيزينما بعناية على السرير وخرجت دون أن توجه كلمة إلى أحد .

كانت إيزينما لا تزال نائمة عندما كان كل الآخرين في حركة دائبة ، طلبت إيكويفي من أم نوويي وأوجيوجو أن تشرحا لزوجة أوبيريكا بأنها ستتأخر . كانت قد أعدّت سلّة الكوكو ـ يام والسمك ، لكنها لابد أن تنتظر إيزينما حتى تستيقظ .

قالت أم نوويي : «أنتِ أيضاً بحاجة إلى النوم . تبدين متعبة جداً» .

فيما كانتا تتبادلان الحديث ، ظهرت إيزينما من الكوخ ، وهي تفرك عينيها وتتمطى بهيكلها النحيل . رأت الأطفال الآخرين يحملون جرار الماء ، فتذكرت أنهم سيذهبون لجلب الماء إلى زوجة أوبيريكا . فعادت إلى الكوخ وأحضرت جرتها .

سألت أمها : «هل نمتِ كفاية؟»

أجابت : «نعم . لنذهب» .

قالت إيكويفي : «ليس قبل أن تفطري» . ودخلت إلى كوخها لتسخّن حساء الخضار الذي طبخته في الليلة الماضية .

قالت أم نوويي : «سنذهب . سأخبر زوجة أوبيريكا بأنك ستأتين فيما بعد» . هكذا مضى الجميع لمساعدة زوجة أوبيريكا ـ أم نوويي مع أطفالها الأربعة وأوجيوجو مع طفليها .

فيما كانوا يمرون عبر كوخ أوكونكوو ، سأل : «مَنْ سيعدّ لي وجبة بعد الظهر؟»

قالت أجيوجو : «سأعود أنا لأعدّها» .

كان أوكونكوو يحسّ بالتعب والنعاس أيضاً ، فهو لم ينم مطلقاً طوال الليلة الفائتة ، بالرغم من أن أحداً لم يعرف هذا . لقد شعر بالقلق الشديد ، لكنه لم يظهره . حين لحقت إيكويفي بالكاهنة ، سمح بمرور ما اعتبره فترة معقولة ورجولية ، ثم مضى ومعه سيف التحطيب إلى المقام ، حيث اعتقد أنهما لابد أن يكونوا موجودين . ولم يخطر بباله أن الكاهنة قد تكون اختارت القيام بجولة في القرى أولاً إلا عندما وصل إلى المقام . فعاد أوكونكوو إلى البيت وانتظر . وحين حسب أنه انتظر كفاية ، عاد مرة أخرى إلى المقام . لكن التلال والكهوف كانت صامتة كالموت . في رحلته الرابعة فقط ، وجد إيكويفي ، وكان القلق آنذاك قد بلغ به مداه .

كان مجمّع أوبيريكا يعج بالحركة مثل تل نمل . فنصبت قوائم طبخ

مؤقتة ثلاثية الأرجل في كل فسحة متاحة بتجميع ثلاثة قوالب طوب شوتها الشمس ، ثـم أوقدَتْ النار في وسطها . ووضـعت قدور الطبخ على القوائم ثم رُفعت عنها ، وسحق الفو ـ فو في مئات من الهاونات الخشبية . طبخت بعض النساء اليام والقريسة ، وهيأت أخريات حساء الخضار . سحق الشباب الفو ـ فو أو كسروا الحطب . وقام الأطفال برحلات لا حصر لها إلى الجدول .

ساعد ثلاثة شباب أوبيريكا في ذبح العنزتين اللتين ستستخدمان في طبخ الحساء . كانتا عنزتين سمينتين جداً ، لكن العنزة الأسمن كانت مقيّدة بحبل طويل إلى وتد قرب سور المجمّع . كانت كبيرة بحجم بقرة صغيرة . وقد أرسل أوبيريكا أحد أقربائه خصيصاً إلى أومويكي لشراء تلك العنزة . كانت هي العنزة التي سيهديها إلى أصهاره حيّة .

قال الشاب الذي أرسله أوبيريكا لشراء العنزة العملاقة : «إن سوق أومويكي مكان مدهش ، إنها تعج بالناس بحيث لو ألقيت حبة رمل لما وَجَدت منفذاً لتسقط على الأرض مرة أخرى» .

قال أوبيريكا : «هذا نتيجة دواء عظيم . لقد أراد سكان أومويكي أن تكبر سوقهم وتبتلع أسواق جيرانهم . لذلك صنعوا دواءً قوياً . وفي كل يوم سوق ، وقبل صيحة الديك الأولى ، يقف هذا الدواء في ساحة السوق بهيئة امرأة عجوز تحمل مروحة . وبهذه المروحة السحرية تشير إلى جميع العشائر المجاورة داعية إياها إلى السوق ؛ فتشير إلى الأمام والخلف ، وإلى اليمين واليسار» .

قال رجل آخر : «هكذا يأتي الجميع : الشرفاء واللصوص . يمكنهم سرقة وشاحك عن خصرك في تلك السوق» .

قال أوبيريكا : «نعم . لقد حذرت نوانكوو بأن يبقي عينيه وأذنيه مفتوحة جيداً . فقد حدث ذات مرة أن ذهب شخص ليبيع عنزه . فقادها بحبل غليظ ربطه حول معصمه . لكنه لاحظ ، بينما كان ماشياً في السوق ، أن الناس يشيرون إليه كما يشيرون إلى رجل مجنون ، لم يفهم هذا إلاّ عندما التفت إلى الخلف وشاهد أن ما كان يقوده في نهاية الحبل ليس عنزة ، بل كتلة ثقيلة من الخشب» .

سأل نوانكوو : «هل تعتقد أن لصاً يستطيع أن يقدم على ذلك النوع من العمل بمفرده؟»

قال أوبيريكا : «لا . إنهم يستخدمون دواءً» .

عندما ذبحوا العنزتَيْن ، وصفّوا دمهما في طاسة ، رفعوهما فوق نار مكشوفة لإحراق الشعر ، امتزجت رائحة الشعر المحترق برائحة الطبخ . ثم غسلوهما وقطعوهما للنسوة اللواتي يعددن الحساء .

جرى كل نشاط تل النمط هذا بسلاسة إلى أن قُطع فجأة . إذ انطلقت صرخة آتية من بعيد : أوجي أودو آتشي ايجيجي ـ أو ـ أو ! (التي تستخدم ذنبها لطرد الذباب !) وتركت كل امرأة العمل الذي كانت تقوم به على الفور واندفعن جميعاً في اتجاه الصرخة .

صاحت تشيلو الكاهنة : «لا يمكن أن نندفع جميعاً على هذا النحو ونترك ما نطبخه لتحرقه النار . يجب أن تبقى ثلاث أو أربع نساء هنا» .

قالت امرأة أخرى : «هذا صحيح . سنسمح لثلاث أو أربع نساء بالبقاء» .

وتخلّفت خمس نساء للعناية بقدور الطبخ ، واندفعت كل الأخريات لرؤية البقرة التي أفلتت من عقالها . لما شاهدنها ، طردنها باتجاه مالكها الذي دفع فوراً الغرامة الباهظة التي تفرضها القرية على كل من تفلت بقرته في غلال الجيران . وعندما تقاضت النسوة الغرامة ، تفقدن بعضهن لينظرن إنْ كانت أي امرأة قد تخلّفت عن القدوم حين انطلقت الصيحة .

سألت إحداهن : «أين مجبوجو؟»

قالت جارة مجبوجو : «إنها لا تزال مريضة في الفراش . هي مريضة بالإيبا» .

قالت امرأة أخرى : «المرأة الوحيدة الأخرى هي أودينكوو . طفلها لم يبلغ يومه الثامن والعشرين بعد» .

عادت النسوة اللواتي لم تطلب زوجة أوبيريكا مساعدتهن في الطبخ إلى بيوتهن ، ورجعت البقية ، دفعة واحدة ، إلى مجمّع أوبيريكا .

سألت النساء اللواتي سمح لهن بالتخلّف : «بقرة مَنْ هذه؟»

قالت إيزيلاجبو : «إنها بقرة زوجي . وقد فتح أحد الأطفال الصغار بوّابة سقيفة البقر» .

في وقت مبكر من بعد الظهر ، وصل أول زقين من نبيذ النخيل من أصهار أوبيريكا . وقُدّما ، حسب الأصول ، إلى النساء اللواتي شربن كأساً

أو كأسين ، لمساعدتهن على الطبخ . أرسل قليل من النبيذ أيضاً إلى العروس والفتيات الملازمات لها واللواتي كن يضعن لمسات الموسى الأخيرة المرهفة على تسريحة شعرها ويدهنّ بشرتها الناعمة بخشب الكام .

حين بدأت حرارة الشمس تخفّ ، تناول مادوكا ، ابن أوبيريكا ، مكنسة طويلة ، وكنس الأرض أمام أوبيّ أبيه . وكما لو أنهم كانوا في انتظار ذلك ، شرع أقارب أوبيريكا وأصدقاؤه بالوصول ، وكل منهم يعلّق كيس جلد الماعز على إحدى كتفيه ويحمل حصيرة جلد الماعز أيضاً تحت إبطه . رافق بعضهم أبناؤهم الحاملين مقاعد خشبية منقوشة . وكان أوكونكوو واحداً منهم . جلسوا في نصف دائرة وبدأوا يتجاذبون أطراف الحديث حول أمور شتى . فلن يمر وقت طويل قبل أن يحضر طالبو يد العروس .

أخرج أوكونكوو قنينة سعوطه وقدّمها لاوجبويفي إيزينوا ، الجالس إلى جانبه . تناولها إيزينوا ، ودقّ بها على رضفة ركبته ، وفرك كفه اليسرى بجسده ليجففها قبل أن يرش قليلاً من السعوط عليها . كانت أفعاله مدروسة ، وتكلم وهو يقوم بها : «آمل أن يحضر أصهارنا زقاقاً كثيرة من النبيذ . ومع أنهم ينتمون إلى قرية معروفة بالبخل ، إلاّ أنهم يجب أن يعرفوا أن أكويكي عروس جديرة بمَلك» .

قال أوكونكوو : «لن يتجرؤوا على إحضار أقل من ثلاثين زقاً . وسأخبرهم برأيي إن أحضروا أقل» .

في تلك اللحظة ، ساق مادوكا ، ابن أوبيريكا ، العنزة الضخمة من

المجمّع الداخلي ليراها أقارب أبيه . أبدى الجميع إعجابهم بها وقالوا إنه هكذا يجب أن تُصرّف الأمور . ثم أعيدت العنزة إلى المجمّع الداخلي .

بعد فترة وجيزة ، بدأ الأصهار بالوصول . فوصل أولاً الشباب والأولاد في صف واحد ، وكل منهم يحمل زقاً من النبيذ . عدّ أقارب أوبيريكا الزقاق بينما كانوا يدخلون . عشرون ، خمسة وعشرون . مرت فترة توقف طويلة ، وتبادل الضيوف النظرات كما لو أنهم أرادوا القول : «لقد قلنا لكم» . ثم أتت زقاق أخرى . ثلاثون ، خمسة وثلاثون ، أربعون ، خمسة وأربعون . فأومأ الضيوف برؤوسهم استحساناً وبدوا كأنهم يقولون : «ها هم يتصرفون الآن كرجال» . بلغ المجموع خمسين زق نبيذ . بعد حَمَلة الزقاق ، قدم إيبي ، طالب يد البنت ، مع شيوخ عائلته . جلسوا مكوِّنين نصف قمر ، مكملين بذلك الحلقة مع مضيفيهم . ووضعت زقاق النبيذ في وسطهم . ثم خرجت العروس مع أمها ونصف دزينة نساء وبنات من المجمّع الداخلي ، ودرن حول الدائرة وصافحن جميع الجالسين . قادت أم العروس المجموعة ، تتبعها العروس ثم النساء الأخريات . وقد ارتدت المتزوجات منهن أبهى أقمشتهن وزيّنت البنات خصورهن بالخرز الأسود والأحمر وكواحلهن بخلاخل النحاس الأصفر .

حين انسحبت النسوة ، قدم أوبيريكا جوز الكولا لأصهاره . كسر أخوه الأكبر الجوزة الأولى . قال وهو يكسرها : «الحياة لنا جميعاً . لتنعقد أواصر الصداقة بين عائلتكم وعائلتنا» .

أجاب الحشد : «إي ـ ي ـ ي !»

ـ «نحن نعطيكم ابنتنا اليوم . ستكون زوجة طيبة لكم وستنجب لكم تسعة أبناء مثل أم بلدتنا» .

ـ «إي ـ ي ـ ي !»

رد أكبر الرجال سناً في معسكر الزوّار : «سيكون هذا حسناً لكم ، وسيكون هذا حسناً لنا» .

ـ «إي ـ ي ـ ي !»

ـ «هذه ليست أول مرة يأتي فيها قومي ليتزوجوا من بناتكم ، فقد كانت أمي واحدة منكم» .

ـ «إي ـ ي ـ ي !»

ـ «ولن تكون هذه هي المرة الأخيرة ، لأنكم تفهموننا ونحن نفهمكم . أنتم عائلة عظيمة» .

ـ «إي ـ ي ـ ي !»

تطلع في اتجاه أوكونكوو : «رجال ناجحون ومحاربون عظماء . ستلد ابنتكم لنا أبناء مثلكم» .

ـ «إي ـ ي ـ ي !»

أُكلت الكولا وبدأ شرب نبيذ النخيل . جلست كل مجموعة من أربعة أو خمسة رجال وقد وضع زق نبيذ وسطهم . حين ولّى الجزء الأكبر من المساء ، قدّم الطعام إلى الضيوف . كانت هناك طاسات ضخمة من الفو ـ فو وقدور من المرق يتصاعد منها البخار . وقدور حساء يام . كانت حقاً وليمة فخمة .»

حين حلّ الليل ، ثبتت المشاعل على ركائز خشبية ثلاثية القوائم ورفع الشباب عقيرتهم بالغناء . جلس الشيوخ في حلقة واسعة ودار المغنون عليهم متوقفين عندهم فرداً فرداً مادحين كل واحد منهم . كان لديهم ما يقولونه لكل رجل منهم . فقد كان بعضهم مزارعين عظماء ، وبعضهم خطباء متحدثين باسم العشيرة ، وكان ،وكونكوو أعظم المصارعين والمحاربين الأحياء . حين أنهوا جولتهم حول الحلقة ، جلسوا في الوسط ، وأتت الفتيات من داخل المجمّع للرقص . لم تكن العروس بينهن في البداية . لكن ، حين ظهرت أخيراً تحمل ديكاً في يدها اليمنى ، علا هتاف الجمع تحية لها . أفسحت الراقصات الأخريات الطريق أمامها . وقدّمت الديك إلى العازفين وبدأت الرقص . رنّت خلاخلها النحاسية مع الرقص والتمع جسدها المدهون بخشب الكام في الضوء الأصفر الخافت . انتقل الموسيقيون ، وهم يعزفون على آلاتهم الخشبية والطينية والمعدنية ، من أغنية إلى أخرى . غمرت البهجة الجميع . وغنوا أحدث أغنية في القرية .

«إذا أمسكتُ بيدها

تقول : «لا تلمسني !»

وإذا أمسكتُ بقدمها

تقول : «لا تلمسني !»

لكن ، حين أحتضن خرزات خصرها

تتظاهر بأنها لا تدري» .

كان الجزء الأكبر من الليل قد انقضى حين نهض الضيوف للرحيل ، آخذين معهم العروس لتمضي سبعة أسابيع عند عائلة زوجها المقبل . رددوا الأغاني أثناء ذهابهم ، وقاموا في الطريق بزيارات مجاملة قصيرة للرجال البارزين مثل أوكونكوو ، قبل أن يتركوا القرية أخيراً قاصدين قريتهم . فقدّم إليهم أوكونكوو ديكين هدية .

فصل ١٣

جو ـ دي ـ دي ـ جو ـ جو ـ دي ـ جو . دي ـ جو ـ جو ـ دي ـ جو . كان ذاك صوت الإيكوي وهو يخاطب العشيرة . وكان من بين الأشياء المفروض على كل شخص تعلمها لغة تلك الآلة الخشبية المجوّفة . دييم ! دييم ! دييم ! دييم ! دوى صوت المدفع بين آن وآخر .

لم يكن الديك الأول قد صاح ، وكانت أومووفيا غارقة في النوم والصمت عندما بدأ الإيكوي يتكلم ومزّق المدفع الصمت . تقلّب القوم في أسرتهم المصنوعة من الخيزران وأصغوا بقلق . توفي شخص . بدا صوت المدفع وكأنه يمزق السماء . دي ـ جو ـ جو ـ دي ـ جو ـ دي ـ دي ـ جو ـ جو . انساب نسيم الليل حاملاً الرسالة . واستقر عويل النساء الخافت البعيد مثل رسالة من الأسى على الأرض . بين آن وآخر ، وكلما وصل رجل إلى مجلس الموت ، كان صوت ندب صارخ يرتفع فوق العويل . كان القادم يرفع صوته مرة أو مرتين معبراً برجولة عن حزنه ثم يجلس مع الرجال الآخرين ينصت إلى عويل النساء المتواصل وحديث الإيكوي الأسطوري . ويدوي هدير المدفع بين حين وآخر . لم يكن عويل النساء يصل إلى خارج حدود القرية ، لكن الإيكوي أوصل النبأ إلى جميع

القرى التسع ، وحتى إلى ما ورائها . بدأ بتسمية العشيرة : أوموفيا أوبودو ديكي ، «أرض الشجعان» . أوموفيا أوبودو ديكي ! أوموفيا أوبودو ديكي ! كرر ذلك مرة إثر مرة ، وكلما تمهل في ترددها ، ازداد القلق في كل قلب أطلق أنفاسه في تلك الليلة وهو على سرير خيزران . اقترب الإيكوي أكثر فأكثر وسمى القرية : «إيجويدو حجر الرحى الأصفر !» . كانت قرية أوكونكوو . تردد اسم إيجويدو مراراً وتكراراً ، فانتظر الرجال في القرى التسع حابسين أنفاسهم . في النهاية ذكر اسم الرجل ، فتنهد القوم «إيبيو ـ و ، إيزيودو مات» . سرت رجفة قارسة في ظهر أوكونكوو وهو يتذكر آخر مرة زاره فيها الرجل العجوز . قال :«ذاك الصبي يدعوك أباه . لا تشارك في قتله» .

كان إزيودو رجلاً عظيماً ، فاحتشد جميع أفراد العشيرة في جنازته . قرعت طبول الموت العتيقة ، وأطلقت نيران البنادق والمدفع ، واندفع الرجال في جميع الاتجاهات بهياج ، فقطعوا كل شجرة مروا بها ومزقوا كل حيوان شاهدوه ، وقفزوا فوق الجدران ورقصوا فوق السطوح . كانت جنازة محارب ، ومن الصباح إلى الليل أتى المحاربون وولوا أفواجاً حسب فئات أعمارهم . وقد ارتدى كلهم التنانير المصنوعة من ليف نخيل الرافية المدخّن ودهنت أجسامهم بالطباشير والفحم . ومن حين إلى آخر ، ظهرت من باطن الأرض روح من أرواح الأجداد أو إيجووجوو ، متحدثاً بصوت متهدج غير أرضي وهو مغطى تماماً بليف نخيل الرافية . كان بعض الإيجووجوو عنيفاً جداً ، وقد فرّ الناس مذعورين في وقت سابق من النهار بحثاً عن ملجأ حين ظهر أحدهم حاملاً سكيناً ماضية ، ولم يحل بينه

وبين إلحاق الأذى الجديّ بمن يحيط به من الناس إلّا وجود رجلين كبحا جماحه بحبل قوي مربوط حول خصره . كان يستدير أحياناً ويطارد هذين الرجلين ، فيهربان لينجوا بجلديهما ، لكنهما كانا يرجعان دائماً إلى الحبل الطويل المجرور وراءه . كان يغني ، بصوت مرعب قائلاً إن إيكوينو ، الروح الشريرة ، دخلت في عينه .

لكن الإيجووجوو الأفظع سيأتي بعد قليل . وهو وحيد دائماً ، وله شكل تابوت . وحيثما يولّي وجهه ، يعبق الهواء برائحة كريهة ، كما أن الذباب يتنقل معه . حتى أعظم رجال الطب كانوا يفزعون إلى ملجأ لدى اقترابه منهم . فقبل سنوات عديدة ، تجاسر ايجووجوو آخر على الصمود أمامه ، فكانت النتيجة أن سحره في موضعه وثبّته هناك مدة يومين . كان هذا بذراع واحدة ويحمل سطلاً مملوءاً بالماء .

لكن بعض الإيجووجوو كانوا غير مؤذين أبداً . كان أحدهم عجوزاً واهن القوى إلى حد أنه راح يتوكأ بتثاقل على عصا . سار بخطى متعثرة إلى حيث سجي الجثمان ، وحدّق فيه برهة ثم مضى بعيداً ـ إلى عالم تحت الأرض .

لا تبعد أرض الأحياء كثيراً عن مملكة الأجداد . ويجري تزاور بينهم ، خاصة في المهرجانات وحين يموت عجوز أيضاً ، فالعجوز يكون قريباً جداً من الأجداد . وحياة المرء من الميلاد إلى الوفاة سلسلة من طقوس انتقالية تدنيه شيئاً فشيئاً من أجداده .

كان أيزيودو أكبر المعمرين سناً في قريته ، وحين وفاته ، كان في

العشيرة بأكملها ثلاثة شيوخ فقط أكبر منه سناً ، وأربعة أو خمسة آخرون في نفس فئة عمره . وعندما كان واحد من هؤلاء يظهر وسط الجمهور ليؤدي ، بخطوات غير ثابتة ، رقصة القبيلة الجنائزية ، كان الرجال الأصغر سناً يفسحون له المجال ويهدأ الضجيج .

كانت جنازة عظيمة ، لائقة بمحارب نبيل . ومع اقتراب المساء ، تزايد الصراخ وإطلاق النار من البنادق ، وتعالى قرع الطبول والتلويح بسيوف التحطيب وصليلها .

نال إيزيودو ثلاثة ألقاب في حياته . وهذا إنجاز نادر . ففي العشيرة أربعة ألقاب فقط ، ولا ينال اللقب الرابع والأرفع رتبة إلاّ رجل أو رجلان في أي جيل . وحين يحققون هذا ، يصبحون سادة البلاد . ولأن إيزيودو كان من حملة الألقاب ، فلابد أن يدفن بعد حلول الظلام ووهج جمر يضيء فقط الطقس المقدس .

لكن ، قبل هذا الطقس الهادىء والختاميّ ، تضاعف الصخب عشرة أضعاف . قرعت الطبول بعنف ووثب الرجال في الهواء بجنون . أطلقت النيران في جميع الاتجاهات وتطاير شرر ، وصلصلت سيوف التحطيب متصادمة تحيةً للمحاربين . عجّ الجو بالغبار ورائحة البارود . عندئذ ، أتى الروح وحيد اليد ، حاملاً سطل ماء . أخلى القوم السبيل أمامه من كل الجهات وخمد الضجيج . حتى رائحة البارود ابتلعتها الرائحة الكريهة التي عبق بها الجو الآن . رقص بضع خطوات على وقع الطبول الجنائزي ثم ذهب لرؤية الجثمان .

نادى بصوته الحلقيّ : «ايزيودو ! لو كنت فقيراً في حياتك الماضية لطلبت منك أن تكون غنياً عندما تعود ؛ لكنك كنتَ غنياً . لو كنتَ جباناً ، لطلبت منك أن تجلب الشجاعة ؛ لكنك كنت محارباً لا يعرف الخوف . لو توفيت وأنت شاب ، لطلبت منك أن تحصل على الحياة . لكنك عشت طويلاً ؛ لذلك سأطلب منك أن تعود تماماً كما جئت من قبل . إذا كان موتك موتاً طبيعياً ، فاذهب بسلام . لكن إذا كان رجل تسبب فيه ، فلا تدعه يتمتع بلحظة راحة» . ورقص الروح بضع خطوات أخرى ومضى في حال سبيله .

استؤنف قرع الطبول والرقص وتصاعدت حرارتهما حتى بلغت حرارة الحمى . كان الظلام حول الركن ، اقترب موعد الدفن . فأطلقت البنادق تحيتها الأخيرة ومزّق المدفع السماء . فجأة ، انطلقت من وسط الغضب الهاذي صرخة ألم وصيحات رعب . بدا كأن سحراً أُلقي . فصمت الجميع . وهناك في وسط الحشد ، تمدد صبي غارقاً في بركة من الدم . كان ابن المتوفي يبلغ من العمر ستة عشر عاماً ، وقد كان يرقص مع إخوانه وأشقائه من أبيه رقصة الوداع التقليدية لأبيه حين انفجرت بندقية أوكونكوو واخترقت قطعة حديد قلب الغلام .

لم يقع في تاريخ أوموفيا نظير للاضطراب الذي أعقب الحادث . فالوفيات العنيفة مألوفة ، لكن شيئاً كهذا لم يحدث إطلاقاً .

كان السبيل الوحيد المفتوح أمام أوكونكوو هو الفرار من العشيرة . فقتل فرد من أفراد العشيرة جريمة ضد ربة الأرض لا بد أن يفرّ مرتكبها من

البلاد . فالجريمة نوعان : ذكر وأنثى . كانت جريمة أوكونكوو أنثى ، لأنها كانت غير متعمّدة . وهو يستطيع أن يعود إلى العشيرة بعد سبع سنوات .

في تلك الليلة ، جمع أوكونكوو أثمن ممتلكاته في صرر يمكن حملها على الرأس . بكت زوجاته بحرقة ، وبكى أطفالهن معهن دون أن يعرفوا السبب . حضر أوبيريكا ونصف دزينة أصدقاء آخرين لمساعدته ومواساته . وقام كل منهم بتسع أو عشر رحلات حاملاً يام أوكونكوو إلى مخزن أوبيريكا لحفظه هناك . وقبل أن يصيح الديك ، كان أوكونكوو وعائلته يفرون إلى بلد أمه . وهي قرية صغيرة تدعى مبانتا ، تقع وراء حدود مباينو تماماً .

ما أن طلع النهار حتى اكتسح جمهور كبير من مجمّع إزيودو منزل أوكونكوو ، لابسين زي الحرب ؛ فأحرقوا أكواخه ؛ وهدموا أسواره الحمراء ؛ وقتلوا حيواناته ودمروا مخزن غلاله . كانت تلك هي عدالة ربة الأرض وهم مجرد رسلها . لم يكن في قلوبهم أي حقد على أوكونكوو . وقد كان أعز أصدقائه ، أوبيريكا ، بينهم . كانوا فقط يطهّرون الأرض التي دنّسها أوكونكوو بدم ابن من أبناء عشيرته .

كان أوبيريكا رجلاً يفكر في الأشياء . عندما نُفذت إرادة ربة الأرض ، جلس أوبيريكا في أوبيّه وتوجع للكارثة التي حلّت بصديقه . لماذا يجب أن يقاسي رجل على هذا النحو المحزن بسبب إساءة ارتكبها دون قصد؟ لكن ، ورغم أنه فكر طويلاً ، إلاّ أنه لم يتوصل إلى جواب . قاده هذا التفكير إلى تعقيدات أعظم فقط . وتذكّر توأميّ زوجته اللذين طرحهما

بعيداً . أي جريمة ارتكباها؟ لقد قضت الأرض بأنهما إساءة للبلد ولابد أن يهلكا . وإذا لم تنفذ العشيرة عقاباً على إساءة ضد الربة العظيمة ، فسيحل غضبها على البلد كلها وليس على المسيء فقط . وكما يقول الشيوخ : إذا ابتل أصبع بالزيت فانه سيلوث الأصابع الأخرى .

الجزء الثاني

فصل ١٤

استقبل أوكونكوو استقبالاً حسناً من قبل أهل أمه في مبانتا . كان الشيخ الذي استقبله أخا أمه الأصغر ، الذي أصبح الآن أكبر الأحياء سناً في تلك العائلة . كان اسمه أوتشيندو ، وكان هو الذي استقبل أم أوكونكوو قبل عشرين وعشر سنوات عندما أحضرت من أومووفيا لتدفن مع أهلها . كان أوكونكوو آنذاك مجرد صبي ولا يزال أوتشيندو يتذكره باكياً يردد الوداع التقليدي : «أمي ، أمي ، أمي راحلة» .

حدث ذلك منذ سنوات عديدة . واليوم لم يحضر أوكونكوو أمه إلى موطنها لتدفن مع أهلها . بل أحضر عائلته المؤلفة من ثلاث زوجات وأطفالهن لاجئاً إلى بلاد أمه . حالما رآه أوتشيندو برفقة جماعته الحزينة والمتعبة ، خمّن ما حدث ، فلم يطرح أية أسئلة . في اليوم التالي فقط ، روى له أوكونكوو القصة كاملة . استمع الشيخ بصمت إلى النهاية ثم قال بشيء من الارتياح : «إنها أوتشو أنثى» . ورتب الطقوس والقرابين المناسبة .

مُنح أوكونكوو قطعة من الأرض ليبني عليها مجمّعه ، وقطعتين أو ثلاثاً ليزرعها في موسم الزراعة القادم . وبمساعدة أهل أمه ، بنى أوبي لنفسه

وثلاثة أكواخ لزوجاته . ثم نصب إلهه الشخصي ورموز آبائه الراحلين . ساهم كل من أبناء أوتشيندو الخمسة بثلاثمائة بذرة يام لتمكين ابن عمتهم من زراعة مزرعة ، فحالما يهطل أول مطر ، ستبدأ الزراعة .

أخيراً ، أتى المطر . كان مطراً فجائياً وغزيراً جداً . فقد ظلّت الشمس على مدى قمرين أو ثلاثة أقمار تزداد قوة إلى أن بدت كأنها تنفث أنفاس نار على الأرض . واحترق العشب كله منذ فترة طويلة وأصبح بنيّ اللون ، ولسع الرمل باطن الأقدام كالجمر المشتعل . واكتست الأشجار دائمة الخضرة بكساء مغبر بنيّ اللون . صمتت الطيور في الغابات ، ورقد العالم لاهثاً تحت وطأة الحرارة الحارقة المرتعشة . ثم أتى قصف الرعد . كان قصفاً غاضباً ومعدنياً وظامئاً ، لا يشبه في شيء قرقعة سائل الفصل الممطر . هبت رياح عاتية وملأت الجو بالغبار . وترنحت أشجار النخيل فيما مشطت الريح أوراقها مكونة قمماً متطايرة كشعر غريب وخيالي .

حين حلّ المطر أخيراً ، هطل على شكل حبات ماء كبيرة متجمدة يدعوها الناس : «جوز ماء السماوات» . وهي قاسية ومؤلمة على الجسم حين تسقط ، لكن الصبية تراكضوا هنا وهناك فرحين والتقطوا الجوز البارد ورموه في أفواههم ليذوب .

دّبت الحياة بسرعة في الأرض وخفقت الطيور بأجنحتها في الغابات وغرّدت بمرح . عبق الجو برائحة غامضة موحية بالحياة والخصب الأخضر . حين بدأ المطر ينهمر برزانة أكثر وبقطرات سائل أصغر حجماً ، احتمى الأطفال منه ، وأحسّ الجميع بالسعادة ، منتعشين وشاكرين .

كدح أوكونكوو وعائلته بجد ليزرعوا مزرعة جديدة . لكن وضعه كان كمن يبدأ حياة جديدة دون حيوية وحماس الشباب ، كتعلم استعمال اليد اليسرى في الشيخوخة . فلم يعد العمل يثير في نفسه متعة كالسابق ، وحين لا يكون لديه ما يفعله كان يجلس صامتاً شبه نائم .

كانت حياته محكومة بعاطفة جامحة عظيمة ـ أن يصبح واحداً من سادة العشيرة . كان ذلك هو ينبوع حياته . وحقق كل شيء إلا هذا . ثم تحطم كل شيء . ونبذ من عشيرته كسمكة ألقيت وهي تلهث على شاطىء رملي جاف . من الواضح أن إلهه الشخصي أو التشي ليس مهيئاً لتحقيق أمور عظيمة . والانسان لا يستطيع أن يتجاوز قدر تشيّه . ليس صحيحاً قول الحكماء أن رجلاً إذا قال نعم فإن تشيّه يؤكد هذه النعم . فها هو رجل قال تشيّه لا ، رغم أنه هو نفسه قال نعم .

لاحظ الشيخ أوتشيندو بوضوح أن أوكونكوو استسلم لليأس ، فأقلقه هذا قلقاً عظيماً . فعزم على التحدث إليه بعد احتفال الآيسا ـ إيفي .

كان أصغر أبناء أوتشيندو الخمسة ، أميكوو ، على وشك الزواج مجدداً . فقد دُفع مهر العروس ولم يبق سوى الاحتفال الأخير . فقد حمل أميكوو وقومه نبيذ النخيل إلى أهل العروس قبل قمرين من مجيء أوكونكوو إلى مبانتا . هكذا حان وقت الاحتفال بالاعتراف النهائي .

وصلت جميع بنات العائلة إلى هناك ، وقد قطعت بعضهن مسافة طويلة للقدوم من بيوتهن الكائنة في قرى نائية . فقد أتت كبرى بنات أوتشيندو من أوبودو ، على مسافة رحلة نصف نهار تقريباً . وكانت بنات

إخوان أوتشيندو هناك أيضاً . فكان اجتماعاً كاملاً للأوموادا ، بالطريقة نفسها التي سيجتمعون حسبها إذا حدثت وفاة في العائلة . اجتمعت اثنتان وعشرون منهن .

جلسن في دائرة كبيرة على الأرض وجلست العروس في الوسط حاملة دجاجة بيدها اليمنى . جلس أوتشيندو إلى جانبها ممسكاً بعصى أجداد العائلة . وقف بقية الرجال خارج الدائرة ، يراقبون . وراقبت زوجاتهم أيضاً . كان الوقت مساء وراحت الشمس تغرب .

طرحت ابنة أوتشيندو الكبرى ، نجيدي ، الأسئلة .

بدأت : «تذكري أنك إن لم تقولي الصدق فسوف تقاسين بل وحتى ستموتين أثناء الوضع . كم رجلاً ضاجعك منذ أن أبدى أخي لأول مرة رغبته في الزواج منك؟»

أجابت ببساطة : «لا أحد» .

حثتها النساء الأخريات : «أجيبي بصدق» .

سألت نجيدي : «لا أحد؟»

أجابت : «لا أحد» .

قال أوتشيندو : «أقسمي بعصا آبائي هذه» .

قالت العروس : «أقسم» .

فأخذ أوتشيندو الدجاجة منها ، وذبح حلقها بسكين حادّة وترك بضع قطرات من الدم تسقط على عصا أجداده .

منذ ذلك اليوم ، أخذ أميكوو العروس الشابة إلى كوخه وأصبحت

زوجته . لم تعد بنات العائلة مباشرة إلى بيوتهن ، بل أمضين يومين أو ثلاثة أيام مع أهلهن .

في اليوم التالي ، جمع أوتشيندو أبناءه وبناته وابن أخته ، أوكونكوو . أحضر الرجال حصائرهم من جلد الماعز ، وجلسوا فوقها على الأرض ، وجلست النسوة على حصير من سيسال فرش على دكة مرتفعة من الأرض . شدّ أوتشيندو لحيته البيضاء برفق وعض على أسنانه . ثم بدأ يتكلم ، بهدوء وبطء ، مختاراً كلماته بحرص شديد :

بدأ : «أريد أن أتكلم بالأساس مع أوكونكوو . لكنني أريدكم كلكم أن تلاحظوا ما سأقوله . أنا شيخ عجوز وأنتم كلكم أطفال . أنا أعرف عن شؤون الدنيا أكثر من أي واحد منكم . وإذا كان أحدكم يعتقد أنه يعرف أكثر مني ، فليتكلم بصوت عال» . توقف برهة ، لكن أحداً لم يتكلم . «لماذا يعيش أوكونكوو معنا اليومَ؟ هذه ليست عشيرته . إننا مجرد أقرباء أمه . وهو لا ينتمي إلى هنا . إنه منفي ، محكوم عليه أن يعيش سبع سنوات في أرض غريبة . لذلك فالأسى يحني ظهره . لكن هناك سؤالاً واحداً أريد أن أطرحه عليك . هل تستطيع أن تخبرني يا أوكونكوو : لماذا نطلق على أطفالنا أحد أكثر الأسماء انتشاراً وهو : ننيكا ، أو «الأم هي الأسمى»؟ نحن كلنا نعرف أن الرجل هو رب العائلة وزوجاته يطعن أوامره . والطفل ينتمي إلى أبيه وعائلته وليس إلى أمه وعائلتها . والرجل ينتمي إلى أرض آبائه وليس إلى أرض أمه . مع ذلك نقول ننيكا ـ «الأم هي الأسمى» . لماذا نفعل ذلك؟» .

ساد الصمت . ثم قال أوتشيندو : «ليجاوبني أوكونكوو» .

قال أوكونكوو : «لا أعرف الإجابة» .

ـ «لا تعرف الإجابة؟ هكذا ترى أنك طفل . إن لديك زوجات كثيرات وأطفالاً كثيرين ـ أكثر مما لدي من أطفال . وأنت رجل عظيم في عشيرتك . لكنك لا تزال طفلاً . استمع إليّ وسأخبرك . لكن هناك سؤالاً آخر سأسألك إياه . لماذا تُحمل المرأة إلى موطنها الأصلي لتدفن مع أهلها حينما تموت؟ إنها لا تدفن مع أهل زوجها . لماذا يحدث ذلك؟ لقد حملت أمك إلى موطنها ودفنت مع قومي . لماذا حدث ذلك؟»

هزّ أوكونكوو رأسه .

قال أوتشيندو : «إنه لا يعرف ذلك أيضاً ، مع ذلك فهو مفعم بالأسى لأنه أتى ليعيش في أرض أمه بضع سنوات» . أطلق ضحكة خالية من البهجة ، والتفت الى أبنائه وبناته . «ماذا عنكم؟ هل تستطيعون الإجابة على سؤالي؟»

هزّ الجميع رؤوسهم .

سلّك حلقه وقال : «إذن استمعوا إليّ . صحيح أن الطفل ينتمي إلى أبيه . لكن الأب عندما يضرب طفله ، يبحث الطفل عن العطف في كوخ أمه . الرجل ينتمي إلى أرض آبائه عندما تسير الأمور برخاء وتكون الحياة حلوة . لكن ، عندما يقع الأسى والمرارة فانه يجد ملجأ في أرض أمه . فأمكم هناك لتحميكم . إنها مدفونة هناك . لذلك نقول إن الأم هي الأسمى . هل من الصواب يا أوكونكوو أن تأتي إلى أمك بوجه ثقيل وترفض السلوى؟ إحذر وإلا أغضبت الموتى . إن واجبك هو أن تريح زوجاتك وأطفالك ، وأن تعود بهم إلى أرض آبائك بعد سبع سنوات .

لكن ، إذا تركت الأسى يثقل عليك ويقتلك ، فإنهم سيموتون جميعاً في المنفى» . توقف لفترة طويلة . «هؤلاء هم أهلك الآن» . وأشار بيده إلى أبنائه وبناته . «أنت تعتقد أنك المعاني الأكبر في العالم؟ هل تعرف أن الرجال يُنفون من أوطانهم أحياناً مدى الحياة؟ هل تعرف أن الرجال يفقدون أحياناً جميع يامهم وحتى أطفالهم؟ كانت لدي ست زوجات ذات مرة . وليس لدي الآن سوى تلك الفتاة الصغيرة التي لا تعرف يمينها من شمالها . هل تعرف كم طفلاً دفنت ـ أطفالاً أنجبتهم في شبابي وفتوتي؟ اثنان وعشرون . لم أشنق نفسي ، وما زلت على قيد الحياة . إذا كنت تعتقد أنك المعاني الأكبر في العالم ، اسأل ابنتي ، أكويني ، كم توأماً ولدت وطرحتهم بعيداً . ألم تسمع الأغنية التي ينشدونها عندما تموت امرأة؟

«لمن تكون الحياة حلوة ، لمن تكون الحياة حلوة؟

ليس هناك أحد تكون الحياةُ له حلوة» .

وليس لدي أكثر من هذا لأقوله لك» .

فصل ١٥

في السنة الثانية من نفي أوكونكوو جاء صديقه أوبيريكا لزيارته . أحضر معه شابين ، يحمل كل منهما كيساً ثقيلاً على رأسه . ساعدهما أوكونكوو في إنزال حمليهما . كان واضحاً أن الكيسين مليئان بالوَدَع .

سعد أوكونكوو جداً باستقبال صديقه . وسعدت زوجاته وأطفاله أيضاً ، وكذلك أبناء خؤولته وزوجاتهم عندما أرسل في طلبهم وأخبرهم بشخصية ضيفه .

قال أحد أبناء خاله : «يجب أن تأخذه لتحية أبينا» .

أجاب أوكونكوو : «نعم . سنذهب فوراً» . لكن ، وقبل أن يذهبوا ، همس في أذن زوجته الأولى . فأومأت برأسها ، وسرعان ما طارد الأطفال أحد ديوكهم .

أخبر أوتشيندو أحد أحفاده بأن ثلاثة غرباء قدموا إلى دار أوكونكوو . لذلك كان في انتظار استقبالهم . حين وصلوا إلى أوبيّه ، مدّ يده نحوهم ، وبعد أن تصافحوا ، سأل أوكونكوو عنهم .

ـ «هذا أوبيريكا ، صديقي الحميم . لقد حدثتك عنه من قبل» .

قال الشيخ ، ملتفتاً إلى أوبيريكا : «نعم . حدثني ابني عنك ، وأنا سعيد لأنك أتيت لزيارتنا . لقد عرفتُ أباك ، إيويكا . كان رجلاً عظيماً . وكان له هنا أصدقاء كثيرون ، وكثيراً ما كان يأتي لزيارتهم . تلك كانت أياماً طيبة عندما كان للرجل أصدقاء في عشائر بعيدة . إن جيلكم لا يعرف ذلك . أنتم تمكثون في بيوتكم ، وتخشون جاركم القاطن إلى جانبكم . حتى بلد أم الرجل أصبحت غريبة عليه في هذه الأيام» . ورمق أوكونكوو . «أنا رجل عجوز وأحب الكلام . ذلك هو كل ما أصلح له الآن» . نهض متوجعاً ، ومضى إلى غرفة داخلية وعاد بجوزة كولا .

سأل وهو يعاود الجلوس على جلد الماعز : «مَنْ هما الشابان اللذان معك؟» . فأخبره أوكونكوو .

قال : «آه . أهلاً يا أبنائي» . وعرض عليهم جوزة الكولا ، وحين رأوها وشكروه ، كسرها ، ثم أكلوا منها .

قال لأوكونكوو مشيراً بأصبعه : «أدخل إلى تلك الغرفة . ستجد هناك زق نبيذ» .

جلب أوكونكوو النبيذ وبدأوا في الشرب . كان عمر النبيذ يوماً واحداً ، وقوياً جداً .

قال أوتشيندو بعد فترة صمت طويلة : «نعم . كان الناس يسافرون أكثر في تلك الأيام . وليس في هذه الأنحاء عشيرة واحدة لا أعرفها جيداً جداً . انينتا ، أوموازو ، إيكيوتشا ، إيلوميلو ، آبامي ـ أنا أعرفها جميعاً» .

سأل أوبيريكا : «هل سمعتَ أن آبامي لم يعد لها وجود؟»

سأل أوتشيندو وأوكونكوو معاً : «كيف ذلك؟»

قال أوبيريكا : «لقد محيت آبامي من الوجود . إنها قصة غريبة ومرعبة . لو لم أرَ بعض الناجين بعينيّ رأسي وسمعت قصتهم بأذنيّ ، لما صدّقت» . سأل رفيقيه : «ألم يكن هذا يوم سوق إيكي حين فروا إلى أوموفيا؟» فأومآ برأسيهما موافقين .

قال أوبيريكا : «قبل ثلاثة أقمار ، في يوم سوق إيكي ، وصلت إلى بلدتنا مجموعة صغيرة من اللاجئين الهاربين . كان معظمهم من أبناء أرضنا الذين دُفنتْ أمهاتهم معنا . لكن كان هناك أيضاً أشخاص أتوا لمجرد أن لهم أَصدقاء في بلدتنا ، وآخرون لم يستطيعوا التفكير في أي مكان آخر يفرون إليه . هكذا فروا إلى أوموفيا بقصتهم المحزنة» . شرب نبيذ النخيل ، وملأ أوكونكوو قرنه ثانية . تابع : «في موسم الزرع الماضي ، ظهر رجل أبيض في عشيرتهم» .

قال أوكونكوو : «أمهق» .

رشف نبيذه : «لم يكن أمهق . بل كان مختلفاً تماماً . كان يمتطي حصاناً حديدياً . هرب أول الأشخاص الذين رأوه ، لكنه توقف وأشار إليهم . في النهاية ، اقترب الرجال الشجعان منه حتى لمسوه . شاور الشيوخ وحيهم فأخبرهم أن الرجل الغريب سيحطم عشيرتهم وينشر الدمار بينهم» . شرب أوبيريكا قليلاً من النبيذ مرة أخرى . «لذلك قتلوا الرجل الأبيض وقيدوا حصانه الحديدي إلى شجرتهم المقدسة ، فقد بدا كأنه كان سيهرب ويستدعي أصدقاء الرجل . نسيت أن أخبركم عن أمر آخر قاله الوحي . قال إن رجالاً بيضاً آخرين كانوا في الطريق إليهم . وأنهم جراد وأن الرجل الأول كان رسولهم المؤقت لاستطلاع المنطقة . وهكذا قتلوه» .

سأل أوتشيندو : «ماذا قال الرجل الأبيض قبل أن يقتلوه؟»

أجاب أحد رفيقيّ أوبيريكا : «لا شيء» .

قال أوبيريكا : «ردد كلاماً ، لكنهم لم يفهموه . بدا أنه يتكلم من أنفه» .

قال رفيق أوبيريكا الآخر : «أخبرني أحدهم بأنه ردد مرات عديدة كلمة تشبه لفظ مباينو . ربما كان ذاهباً إلى مباينو وضلّ طريقه» .

استأنف أوبيريكا : «على أي حال ، قتلوه وربطوا حصانه الحديدي . كان هذا قبل أن يبدأ موسم الزرع . ولم يحدث شيء لفترة طويلة . هطلت الأمطار وبُذر اليام . وظلّ الحصان الحديديّ مقيّداً إلى شجرة القطن الحريريّ المقدسة . ذات صباح ، قدم ثلاثة رجال بيض تقودهم عصبة من أناس عاديين مثلنا إلى العشيرة . رأوا الحصان الحديديّ ، ورحلوا . كان معظم رجال ونساء آبامي قد ذهبوا إلى مزارعهم . فرأى بضع أفراد منهم فقط هؤلاء الرجال البيض وأتباعهم . لم يحدث شيء آخر طوال أسابيع أسواق كثيرة . في آبامي سوق كبيرة في يوم من كل يوميّ آفو ، فتجتمع العشيرة بأكملها هناك كما تعرفون . كان ذلك هو يوم الواقعة . فقد أحاط الرجال البيض الثلاثة وعدد كبير جداً من رجال آخرين بالسوق . ولابد أنهم استخدموا دواءً قوياً لاخفاء أنفسهم إلى أن امتلأت السوق . ثم بدأوا بإطلاق النار . قتل الجميع ، ما عدا العجائز والمرضى الذين كانوا في بيوتهم وحفنة من الرجال والنساء اللواتي كان تشيّهن يقظاً وقادهم سالمين إلى خارج السوق» . توقف عن الكلام . «عشيرتهم الآن خالية تماماً . حتى السمك المقدس فَرّ من بحيرتهم الغامضة ، واستحال لون البحيرة إلى لون الدم . إن شراً عظيماً حلّ بأرضهم ، تماماً كما حذّر الوحي» .

سادت فترة صمت طويلة . صرف أوتشيندو بأسنانه بصوت مسموع . ثم انفجر قائلاً : «لا تقتل أبداً رجلاً لا يقول شيئاً . رجال آبامي أولئك كانوا حمقى . ماذا عرفوا عن الرجل؟» وصرف بأسنانه ثانية وروى قصة لإيضاح نقطته . «بعثت الحدأة الأم مرة ابنتها لإحضار طعام ، فذهبت وعادت بفرخ من البط . قالت الحدأة الأم لابنتها : «أحسنت صنعاً ، لكن أخبريني ، ماذا قالت أم الفرخ عندما انقضضت واختطفتَ طفلها؟» أجابت الحدأة الصغيرة :«لم تقل شيئاً ، ابتعدتَ فقط» . قالَت الحدأة الأم : «يجب أن تعيدي الفرخ . فوراء الصمت شيء مشؤوم» . هكذا أعادت الحدأة الابنة فرخ البط وأخذت كتكوت دجاجة بدلاً منه . فسألت الحدأة العجوز : «ماذا فعلت أم هذا الكتكوت؟» قالت الحدأة الصغيرة : «صرخت وعربدت وشتمتني» . قالت أمها : «إذن ، نستطيع أن نأكل الكتكوت . فما يصدر عن الذي يُكثر الصياح لا يخيف» . إن رجال آبامي أولئك حمقى حقاً» .

قال أوكونكوو بعد فترة صمت : «كانوا حمقى . لقد حُذّروا من أن الخطر أمامهم . كان يجب أن يتسلحوا ببنادقهم وسيوفهم حتى عندما ذهبوا إلى السوق» .

قال أوبيريكا : «لقد دفعوا ثمن حماقتهم . لكنني خائف جداً . لقد سمعنا قصصاً عن رجال بيض صنعوا البنادق الفتاكة والشراب القوي وأخذوا عبيداً إلى ما وراء البحار ، لكن أحداً لم يصدّق أن هذه القصص حقيقية» .

قال أوتشيندو : «ليست هناك قصة غير حقيقية . العالم لا نهاية له ، وما

هو خير عند شعب هو شر مقيت عند شعوب أخرى . إن بيننا رجالاً مُهقاً . هل تعتقد أنهم جاؤوا إلى عشيرتنا خطأ ، أو أنهم ضلوا طريقهم إلى بلاد حيث كل مَنْ يعيش فيها يشبهونهم؟»

أنجزت زوجة أوكونكوو الأولى إعداد الطعام خلال فترة وجيزة وقدمت للضيوف وجبة كبيرة من اليام المسحون ومرق أوراق الأشجار المرة . أحضر ابن أوكونكوو ، نوويي ، زق نبيذ حلو مبزول من نخيل الرافية .

قال أوبيريكا لنوويي : «أنتَ رجل كبير الآن . صديقك أنيني طلب مني أن أبلغك تحياته» .

سأل نوويي : «هل هو بخير؟»

قال أوبيريكا : «كلنا بخير» .

أحضرت إيزينما طاسة من الماء ليغسلوا أيديهم به . بعد ذلك شرعوا يأكلون ويشربون النبيذ .

سأل أوكونكوو : «متى انطلقتم من البيت؟»

قال أوبيريكا : «نوينا الانطلاق من بيتي قبل صياح الديك . لكن نويكي لم يخرج إلّا بعد أن طلع النهار تماماً . يجب ألا يتفق المرء على موعد مبكّر مع رجل تزوج لتوه زوجة جديدة» . وضحك الجميع .

سأل أوكونكوو : «وهل تزوج نويكي؟»

قال أوبيريكا : «تزوج ابنة أوكاديجبو الثانية» .

قال أوكونكوو : «ذلك حسن جداً . أنا لا ألومك لعدم سماعك صياح الديك» .

عندما انتهوا من الأكل ، أشار أوبيريكا إلى الكيسين الثقيلين .

قال : «هذا المال من يامك . لقد بعتُ حبات اليام الكبيرة فور رحيلك . فيما بعد ، بعت قسماً من بذور اليام ووزعت بعضها على مزارعين محاصصين . سأفعل ذلك كل سنة إلى أن تعود . لكنني أظن أنك قد تحتاج إلى المال الآن ، لذلك أحضرته . مَنْ يعرف ماذا يمكن أن يحدث غداً؟ قد يأتي رجال خضر إلى عشيرتنا ويقتلوننا رمياً بالرصاص» .

قال أوكونكوو : «لن يسمح الإله بذلك . لا أدري كيف أشكرك» .

قال أوبيريكا : «أستطيع إخبارك ، أقتل أحد أبنائك من أجلي» .

قال أوكونكوو : «لن يكون ذلك كافياً» .

قال أوبيريكا : «إذن اقتل نفسك» .

قال أوكونكوو مبتسماً : «اعذرني . لن أردد الشكر لك أكثر مما رددت» .

فصل ١٦

عندما زار أوبيريكا صديقه مرة أخرى في المنفى بعد سنتين كانت الظروف أقل سعادة . فقد وصل المبشرون إلى أومووفيا . بنوا كنيستهم هناك ، وكسبوا حفنة من المهتدين وراحوا يرسلون مبشرين إلى المدن والقرى المجاورة . كان ذلك مصدر أسى كبير لزعماء العشيرة ، لكن كثيراً منهم اعتقدوا أن الإيمان الغريب وإله الرجل الأبيض لن يدوما . لم يكن بين المهتدين أي رجل مسموع الكلمة في اجتماع القوم . كما لم يكن بينهم أي رجل يحمل لقباً . كان معظمهم من نمط الناس المدعوين إيفوليفو ، رجال لا قيمة لهم وخاوين . كانت صورة الإيفوليفو في لغة العشيرة تدل على رجل باع سيفه وتقلدّ الدرع وانطلق إلى المعركة . وقد دعت تشيلو ، كاهنة أجبالا ، المهتدين ببراز العشيرة ، وقالت إن الإيمان الجديد كلب مسعور جاء لالتهام هذا البراز .

ما دفع أوبيريكا لزيارة أوكونكوو هو الظهور المفاجيء لابن الأخير ، نوويي ، بين المبشرين في أمووفيا .

سأله أوبيريكا حين سمح له المبشرون ، بعد صعوبات كثيرة ، بالتحدث إلى الفتى : «ماذا تفعل هنا» .

أجاب نوويي : «أنا واحد منهم» .

قال أوبيريكا : «كيف حال أبيك؟» لم يعرف شيئاً آخر يقوله .

قال نوويي بتعاسة : «لا أعرف . إنه ليس أبي» .

هكذا ذهب أوبيريكا إلى مبانتا ليرى صديقه . فوجد أن أوكونكو راغب عن الحديث عن نوويي . من أم نوويي فقط ، سمع نتفاً من القصة .

أحدث وصول المبشرين اضطراباً كبيراً في قرية مبانتا . كانوا ستة مبشرين ، واحد منهم فقط رجل أبيض . خرج كل رجل وامرأة لرؤية الرجل الأبيض . فقد تزايدت الروايات حول هؤلاء الرجال [illegible] يبين منذ أن قتل واحد منهم في آبامي وربط حصانه الحديدي إلى شجرة القطن الحريري المقدسة . هكذا حضر الجميع لرؤية الرجل الأبيض . كان ذلك هو الوقت من السنة حين يمكث الجميع في منازلهم . إذ كان الحصاد قد انتهى .

حين احتشدوا كلهم . بدأ الرجل الأبيض يتحدث إليهم . تحدث عن طريق مترجم من الإيبو ، لكن لهجته كانت مختلفة وثقيلة الوقع على آذان أبناء مبانتا . ضحك كثيرون على لهجته والطريقة التي استعمل بها الكلمات على نحو غريب . فبدلاً من أن يقول «نفسي» قال دائماً «عجيزة» . لكنه كان رجلاً مهيب الحضور واستمع أبناء العشيرة إليه . قال إنه كان واحداً منهم ، كما يرون من لونه ولغته . والسود الأربعة الآخرون هم إخوانهم ، مع أن أحدهم لا يتكلم لغة الإيبو . والرجل الأبيض أيضاً أخوهم لأنهم جميعاً أبناء الرب . أخبرهم عن هذا الرب الجديد ، خالق كل العالم وجميع الرجال والنساء . أخبرهم بأنهم يعبدون آلهة زائفة ، آلهة

من الخشب والحجارة . سرت همهمة عميقة بين الجمهور حين قال هذا . أخبرهم بأن الرب الحقيقي يعيش في الأعالي وأن جميع الناس حين يموتون يمثلون أمام الرب للحساب . فالأشرار وكل الوثنيين الذين ينحنون في عماهم للخشب والحجارة يلقون في نار تشتعل مثل زيت النخيل . أما الرجال الأخيار الذين عبدوا الرب الحقيقي ، فسيحيون إلى الأبد في مملكته السعيدة . قال : «أرسلنا هذا الرب العظيم لنطلب منكم التخلي عن طرقكم الشريرة وآلهتكم الزائفة والتوجه إليه لعلكم تنجون عندما تموتون» .

قال شخص باستخفاف : «عجيزتك تفهم لغتنا» ، وضحك الجمهور .

سأل الرجل الأبيض مترجمه : «ماذا قال» . لكن ، وقبل أن يتمكن من الإجابة ، سأل شخص آخر سؤالاً : «أين حصان الرجل الأبيض؟» تشاور مبشرو إيبو فيما بينهم وقرروا أن الشخص ربما عنى دراجة هوائية . أخبروا الرجل الأبيض ، فابتسم هذا بتسامح .

قال : «أخبرهم بأنني سأحضر أحصنة حديدية كثيرة عندما نستقر بينهم . وسيركب بعضهم الحصان الحديدي بأنفسهم» . ترجم جواب الرجل الأبيض ، لكن عدداً قليلاً جداً منهم سمعوه . فقد كانوا يتحدثون فيما بينهم بانفعال لأن الرجل الأبيض قال إنه سيعيش بينهم . فلم يخطر ذلك ببالهم .

في تلك اللحظة قال شيخ أن لديه سؤالاً . سأل : «مَنْ هو إلهكم هذا . ربة الأرض ، إله السماء ، أماديورا الصاعقة ، أو ماذا؟»

تحدث المترجم مع الرجل الأبيض وردّ على السؤال فوراً : «جميع

الآلهة التي سميتها ليست آلهة أبداً . إنها آلهة خداع تأمركم بقتل رفاقكم وإهلاك أطفال أبرياء . هناك إله واحد حقيقي فقط وله ملك الأرض والسماء وأنت وأنا ونحن جميعاً» .

سأل آخر : «إذا تركنا آلهتنا واتبعنا إلهك ، مَنْ سيحمينا من غضب آلهتنا المهملة وأجدادنا؟»

أجاب الرجل الأبيض : «آلهتكم ليست حيّة ولا تستطيع أن توقع بكم أي أذى . إنها قطع من خشب وحجارة» .

حين تُرجم هذا الكلام إلى رجال مبانتا ، انفجروا مقهقهين بسخرية . قالوا فيما بينهم : لابد أن هؤلاء الرجال مجانين . كيف يقولون إن آني واماديورا غير مؤذيين؟ وإديملي وإيجووجوو أيضاً؟ وبدأ بعضهم بالابتعاد .

عندئذ ، انفجر المبشرون بالانشاد . كانت واحدة من تلك الاناشيد التبشيرية المرحة والبهيجة القادرة على العزف على أوتار ساكنة ومغبرة في قلب إنسان من قبيلة إيبو . شرح المترجم كل بيت من أبيات الانشودة للجمهور ، فوقف بعضهم الآن مفتونين . كانت قصة أخوة عاشوا في الظلام والخوف ، جاهلين حب الرب . وحكت عن غنمة هناك فوق التلال ، بعيدة عن أبواب الرب وعناية الراعي الحنون .

بعد الإنشاد ، تحدث المترجم عن ابن الرب الذي اسمه جيسو كريشي . قال أوكونكوو ، الذي مكث فقط على أمل أن ينتهي الأمر بطرد الرجال خارج القرية أو جَلْدهم : «أخبرتنا بلسانك أن هناك إلها واحداً فقط . والآن تتحدث عن ابنه . لابد وأن له زوجة إذن» . ووافقه الجمهور .

قال المترجم ، بالتواء إلى حد ما : «لم أقل إن له زوجة» .

قال العابث : «عجيزتكم قالت إن له ابناً . إذن لابد وأن تكون له زوجة ولابد أن لهم كلهم أردافاً» .

تجاهله المبشر وواصل كلامه متحدثاً عن الثالوث المقدس . في نهاية هذا ، اقتنع أوكونكوو تماماً أن الرجل مجنون . فهز كتفيه ومضى ليبزل نبيذ بعد الظهر .

لكن هناك فتى شاباً أسر الحديثُ لُبّه . كان اسمه نوويي ، ابن أوكونكوو البكر . لم يكن منطق الثالوث المقدس المجنون هو الذي أسر لبّه . إنه لم يفهمه . بل كان شعر الدين الجديد ، شيئاً محسوساً في نخاع العظم . فقد بدا أن الأنشودة عن الأخوة القابعين في الظلام والخوف تجيب على سؤال غامض وملح سكن روحه الغضّة ـ السؤال عن التوأمين الباكيين في الأجمة والسؤال عن إيكيميفونا الذي قتل . فأحس بارتياح في داخله فيما كانت الأغنية تتدفق إلى روحه القاحلة المحترقة . كانت كلمات الأنشودة مثل قطرات مطر متجمد تذوب في الصفحة الجافة للأرض اللاهثة الجافة . وانتابت عقل نوويي الغر حيرة شديدة .

فصل ١٧

قضى المبشرون لياليهم الأربع أو الخمس الأولى في ساحة السوق ، وذهبوا في الصباح إلى القرية للتبشير بالإنجيل . سألوا عن ملك القرية ، لكن القرويين أخبروهم بأنه لا يوجد ملك . قالوا لهم : «لدينا رجال يحملون ألقاباً رفيعة ورؤساء الكهنة والشيوخ» .

لم يكن من السهل جمع حملة الألقاب الرفيعة والشيوخ معاً بعد إثارة اليوم الأول . لكن المبشرين ألحوا ، فاستقبلهم سادة مبانتا في النهاية . فطلب أولئك قطعة أرض يبنون عليها كنيستهم .

كانت لكل عشيرة وقرية «غابة شر» . وقد دفن فيها كل المتوفين من الأمراض الشريرة حقاً ، مثل الجذام والجدري . كما كانت أرض المكب التي تلقى فيها طواغيت Fetishes رجال الطب العظام بعد موتهم . لذلك ، كانت «غابة الشر» معمورة بقوى شريرة وقوى ظلام . كانت غابة كهذه هي التي منحها حكّام مبانتا للمبشرين . فهم لم يريدوهم حقاً في عشيرتهم ، لذلك عرضوا عليهم ذلك العرض الذي لا يمكن لأحد سليم العقل أن يقبل به .

قال أوتشيندو لأقرانه حينما تشاوروا فيما بينهم : «يريدون قطعة أرض ليبنوا عليها مقامهم . سنعطيهم قطعة أرض» . صمت قليلاً ، فسرت همهمة دهشة واستهجان . «لنعطيهم جزءاً من غابة الشر . إنهم يفاخرون بالانتصار على الموت . لنعطيهم ساحة معركة حقيقية لكي يظهروا فيها انتصارهم» . فضحكوا ووافقوا ، وأرسلوا في طلب المبشرين الذين طلبوا منهم أن يتركوهم لفترة من الوقت ريثما «يتهامسون معاً» . وقد عرضوا عليهم قدر ما يعنيهم أخذه من غابة الشر . ولدهشتهم الشديدة شكرهم المبشرون وانفجروا منشدين .

قال بعض الشيوخ : «إنهم لا يفهمون» . لكنهم سيفهمون عندما يذهبون إلى نصيبهم من الأرض غداً صباحاً» . ثم تفرقوا .

في صباح اليوم التالي ، بدأ الرجال المخبولون بتنظيف جزء من الغابة وبناء بيتهم . توقع سكان مبانتا لهم جميعاً الموت في غضون أربعة أيام . مرّ اليوم الأول والثاني والثالث والرابع ، لم يمت أي منهم . فذهل الكل . ثم أصبح معروفاً أن طاغوت الرجل الأبيض قوةٌ لا تصدق . وقيل إنه يضع نظارة على عينيه لكي يتمكن من أن يرى الأرواح الشريرة ويتكلم معها . ولم تمضِ فترة طويلة حتى فاز بأول ثلاثة مهتدين .

مع أن الإيمان الجديد اجتذب إليه نوويي منذ اليوم الأول نفسه ، إلا أنه أبقى هذا سراً . لم يجرؤ على الاقتراب من المبشرين خوفاً من أبيه . لكن نوويي ظلّ يقف في ساحة السوق المكشوفة أو ملعب القرية كلما أتوا للتبشير هناك . وقد بدأ يحفظ بعض القصص البسيطة التي قصوها .

قال السيد كياجا المترجم ، الذي أصبح الآن مسؤولاً عن الرعية الوليدة : «لقد بنينا الآن كنيسة» . فقد عاد الرجل الأبيض إلى أومووفيا ، حيث بنى مقر قيادته ، ومنها كان يقوم بزيارات منتظمة لرعية كياجا في مبانتا .

قال السيد كياجا : «لقد بنينا الآن كنيسة ونريدكم أن تأتوا جميعاً في اليوم السابع من الأسبوع لعبادة الرب الحقيقي» .

في يوم الأحد التالي ، مرّ نوويي أمام البيت الصغير المبني من الطين الأحمر والمسقوف بالقش ، وعاود المرور دون أن يستجمع ما يكفي من الشجاعة ليدخل . سمع صوت الإنشاد ، ومع أنه صدر عن حفنة من الرجال ، إلا أنه كان عالياً ومفعماً بالثقة . انتصبت كنيستهم وسط فسحة دائرية فبدت كفم غابة الشر المفتوح . هل كانت تنتظر لتطبق بأسنانها عليهم؟ بعد أن مرّ نوويي جيئة وذهاباً أمام الكنيسة ، عاد إلى بيته .

عُرف جيداً بين سكان مبانتا أن آلهتهم وأجدادهم يحتملون أحياناً الإساءة طويلاً ، وأنهم قد يتعمدون إفساح المجال أمام إنسان للاستمرار في تحديهم . لكنهم ، حتى في مثل هذه الحالات ، حددوا سبعة أسابيع أسواق أو ثمانية وعشرين يوماً . بعد ذلك الحد ، لن يحتمل أي إنسان ما سيجري . لذلك تعاظمت الإثارة في القرية مع اقتراب الأسبوع السابع منذ أن بنى المبشرون الوقحون كنسيتهم في غابة الشر . كان القرويون واثقين من المصير المحتوم الذي ينتظر هؤلاء الاشخاص إلى حد أن شخصاً أو اثنين من المؤمنين الجدد فكروا أن من الحكمة تعليق ولائهم بالإيمان الجديد .

أخيراً ، حلّ اليوم المفروض أن يشهد وفاة جميع المبشرين . لكنهم استمروا في الحياة ، وبنوا بيتاً جديداً من الطين الأحمر والقشّ لمعلّمهم ، السيد كياجا . ففازوا في ذلك الأسبوع بحفنة أخرى من المهتدين . كان بينهم ، للمرة الأولى ، امرأة . كان اسمها ننيكا ، زوجة أمادي الذي كان فلاحاً ناضجاً . كانت ثقيلة جداً بحَمْلها .

كانت ننيكا قد حبلت أربع مرات وأنجبت أطفالاً . لكنها في كل مرة ولدت توأمين ، فطرحا في الغابة على الفور . وكان زوجها وعائلته قد أصبحوا لاذعي النقد لامرأة كهذه ، ولم ينزعجوا كثيراً عندما اكتشفوا أنها فرّت للالتحاق بالمسيحيين . فأراحهم تخلّصهم منها .

ذات صباح ، كان ابن خال أوكونكوو ، أميكوو ، ماراً قرب الكنيسة في طريق عودته من قرية مجاورة حين رأى نوويي بين المسيحيين . دهش دهشة عظيمة ، وحال وصوله إلى قريته ، اتجه مباشرة إلى كوخ أوكونكوو وأخبره بما رآه . فشرعت النسوة بالحديث بإنفعال ، لكن أوكونكوو ظلّ جالساً دون تأثر .

كان الوقت ساعة متأخرة من بعد الظهر حين عاد نوويي . دخل إلى الأوبي وحيا أباه ، لكن هذا لم يرد عليه . استدار نوويي ليتجه نحو المجمّع الداخلي عندئذ ، فوثب أوكونكوو فجأة ، وقد تملكه الغضب ، وأمسك بابنه من رقبته .

تلعثم : «أين كنت؟»

جاهد نوويي ليحرّر نفسه من القبضة الخانقة .

زأر أوكونكوو : «أجبني قبل أن أقتلك» . تناول عصا غليظة موضوعة على السور الواطىء وضربه بها بوحشية مرتين أو ثلاث مرات .

زأر مرة أخرى : «أجبني !» وقف نوويي محدّقاً فيه ، ولم يتفوه بكلمة . كانت النسوة تصرخ من الخارج ، وقد خفن أن يدخلن .

قال صوت في المجمّع الخارجي : «أترك ذلك الفتى فوراً !» كان صوت خال أوكونكوو ، أوتشيندو . «هل جننت؟»

لم يجب أوكونكوو . لكنه أفلت نوويي الذي سار مغادراً البيت ولم يعد إليه إطلاقاً .

عاد إلى الكنيسة وأخبر السيد كياجا بأنه قرر الذهاب إلى أومووفيا حيث أنشأ المبشر الأبيض مدرسة لتعليم الفتيان المسيحيين القراءة والكتابة .

كان سرور السيد كياجا عظيماً . وترنّم : «طوبى للذي يهجر أباه وأمه من أجلي . إن الذين يسمعون كلماتي هم أبي وأمي» .

لم يفهم نوويي ما قيل تماماً . لكنه كان سعيداً لهَجْره أبيه . سيعود فيما بعد إلى أمه وأخوته وأخواته ويهديهم إلى الإيمان الجديد .

بينما كان أوكونكوو جالساً في كوخه في تلك الليلة ، محدّقاً في النار ، فكر في المسألة . فثار غضب فجائي في داخله وأحسّ برغبة قوية في تناول سيف التحطيب ، والذهاب إلى الكنيسة ومحو العصابة الخسيسة الكافرة بأكملها . لكنه حدّث نفسه ، بعد تفكير عميق ، أن نوويي لا يستحق القتال من أجله . صاح في قلبه : لماذا يُلعن هو أوكونكوو ، من بين جميع

الناس ، بمثل هذا الابن؟ رأى بوضوح في هذا الأمر اصبع إلهه الشخصي أو التشي . وإلا فكيف يمكن أن يفسر المصيبة الكبيرة التي أصابته والنفي ، وسلوك ابنه المشين الآن؟ الآن ، وقد أتسع وقته للتفكير في هذا ، لاحت له جريمة ابنه بفداحتها الصارخة . فهَجْر الإنسان لآلهة أبيه والتجول مع الكثير من رجال مخنثين يقوقون كدجاج عجائز هو بلوغ أسفل سافلين . لنفترض أنه بعد موته قرر كل أطفاله الذكور السير على خطى نوويي والتخلي عن أجدادهم؟ أحسّ أوكونكوو برعشة باردة تسري في عروقه مما يخبئه المستقبل الرهيب ، مثل احتمال الفناء . رأى نفسه وآباءه محتشدين حول مقام أجدادهم ينتظرون عبثاً العبادة والقرابين ولا يجدون شيئاً سوى رماد الأيام الماضية ، بينما أطفاله في هذه الأثناء يصلّون لإله الرجل الأبيض . لو حدث مثل هذا الأمر فسيقدم هو ، أوكونكوو ، على محوهم عن وجه البسيطة .

دُعي أوكونكوو على نطاق شعبي بـ«اللهب الهادر» ، وفيما كان يتطلع إلى النار ، تذكر الاسم . كان هو ناراً لاهبة . كيف أمكن إذن أن ينجب ابناً مثل نوويي ، منحلاً ومخنثاً؟ ربما لم يكن ابنه . لا ! لا يمكن أن يكون ابنه . لقد خدعته زوجته . سيلقنها درساً ! لكن نوويي يشبه جده ، أونوكا ، الذي كان أبا أوكونكوو . فطرد الفكرة من ذهنه . كان أوكونكوو ، يدعى بنارٍ لاهبة . كيف أمكن إذن أن ينجب امرأة بدلاً من ابن؟ عندما كان في مثل سن نوويي ، كان قد أصبح مشهوراً في جميع أنحاء أوموفيا لمصارعته وعدم خوفه .

تنهد بعمق ، وتنهدت قطعة الحطب المحترقة كأنها تبدي تعاطفها معه . تفتحت عينا أوكونكوو على الفور وأدرك المسألة برمتها بوضوح . إن النار الحيّة تنجب رماداً عاجزاً بارداً . فتنهد مرة أخرى ، بعمق .

فصل ١٨

واجهت الكنيسة الناشئة في مبانتا عدة أزمات في مرحلة مبكرة من حياتها . في البداية ، ظنت العشيرة بأنها لن تعيش . لكنها واصلت العيش واشتد ساعدها تدريجياً . قلقت العشيرة ، لكن ليس إلى حد مفرط . فإذا قررت عصابة من الإيفوليفو أن تعيش في غابة الشرّ ، فهذا شأنها . وغابة الشر ، عندما يفكر المرء في الموضوع ، هي المأوى المناسب لأشخاص غير مرغوب فيهم كهؤلاء . صحيح أنهم ينقذون التوائم من الأجمة ، لكنهم لم يحضروهم مطلقاً إلى القرية . فالتوائم ، من وجهة نظر القرويين ، ما زالوا حيث ألقي بهم . ومن المؤكد أن ربة الأرض لن تعاقب القرويين الأبرياء على خطايا المبشرين .

إلاّ أن المبشرين حاولوا ذات مرة أن يتجاوزوا حدودهم . فقد ذهب ثلاثة مهتدين إلى القرية وتفاخروا علناً بأن جميع الآلهة ميّتة وعاجزة وأنهم مستعدون لتحديها بإحراق جميع مقاماتها .

قال أحد الكهنة : «إذهبوا واحرقوا فروج أمهاتكم» .

أمسك القرويون بهم وضربوهم حتى سالت دماؤهم . لم يحدث شيء بعد ذلك بين الكنيسة والعشيرة لمدة طويلة .

لكن قصصاً بدأت تشيع مرددة أن الرجل الأبيض لم يحضر ديناً فحسب ، بل أحضر حكومة أيضاً . قيل إنهم بنوا مبنى للقضاء في أوموفيا ليحموا أتباع دينهم . وقيل حتى إنهم شنقوا رجلاً قتل مبشراً .

مع أن قصصاً كهذه ترددت كثيراً ، إلاّ أنها ظلّت تبدو في مبانتا كالأساطير ، ولم تؤثر على العلاقة بين الكنيسة الجديدة والعشيرة . لم يكن قتل مبشر وارداً هنا ، فالسيد كياجا ، على الرغم من جنونه ، كان غير مؤذ بتاتاً . وبالنسبة لمهتديه ، لا أحد يستطيع قتلهم دون أن يضطر للفرار منً العشيرة ، فعلى الرغم من قلة شأنهم ، إلاّ أنهم ما زالوا ينتمون للعشيرة . هكذا لم يعر أحد اهتماماً جدياً للقصص التي تدور حول حكومة الرجل الأبيض أو عواقب قتل المسيحيين . واذا تسببوا في متاعب أكثر مما فعلوا ، فبالإمكان بكل بساطة طردهم من العشيرة .

كانت الكنيسة الصغيرة في تلك اللحظة أيضاً منغمسة بعمق في مشاكلها الخاصة إلى حد حال دون إزعاج العشيرة . وقد بدأ الأمر كله بمسألة قبول المنبوذين .

بعد أن رأى هؤلاء المنبوذون ، أو أوسو ، الدينَ الجديد يرحب بالتوائم والآثام المشابهة ، اعتقدوا أن من الممكن أيضاً احتضانهم . هكذا دخل اثنان منهم ذات أحد إلى الكنيسة . فأحدث دخولهما اضطراباً فورياً ، لكن تأثير الدين الجديد على المهتدين كان عظيماً إلى درجة أنهم لم يغادروا الكنيسة حينما دخلها المنبوذان . اكتفى أولئك الذين وجدوا أنفسهم أقرب الجميع إلى هذين المنبوذين بالانتقال إلى مقعد آخر فقط . كان هذا التصرف معجزة . لكن هذا دام فقط حتى نهاية القداس . فقد رفع جميع أتباع الكنيسة عقيرتهم بالاحتجاج وكادوا أن يطردوا هذين الاثنين إلى

الخارج ، لكن السيد كياجا أوقفهم وبدأ يشرح .

قال : «أمام الرب ، ليس هناك عبد أو حرّ . نحن جميعاً أطفال الرب ، ويجب أن نستقبل أخوينا هذين» .

قال أحد المهتدين : «أنت لا تفهم الأمر . ماذا سيقول الوثنيون حين يسمعون أننا نستقبل أوسو بين صفوفنا؟ سيضحكون» .

قال السيد كياجا : «دعهم يضحكون . سيضحك الرب منهم في يوم الحساب . لماذا تثور الأمم وتتخيل الشعوب شيئاً باطلاً؟ إن ذلك الذي يجلس في السماوات هو الذي سيضحك . إن الرب سيهزأ بهم» .

استمر المهتدي : «أنتَ لا تفهم . أنت معلمنا ، وتستطيع أن تعلّمنا أشياء عن الإيمان الجديد . لكن هذه مسألة نعرفها نحن» . وأخبره ماذا يعني الأوسو .

إنه شخص منذور لإله ، شيء وُضع جانباً ـ تابو إلى الأبد ، هو وأطفاله بعده . إنه لا يستطيع أن يتزوج امرأة حرّة كما لا تستطيع امرأة حرة أن تتزوجه . إنه منبوذ فعلاً ، يعيش في منطقة خاصة من القرية ، قريباً من المقام العظيم . حيثما يذهب يحمل معه طائفته المحرّمة ـ شعر طويل متشابك قذر . الموسى تابو بالنسبة إليه . ولا يستطيع أوسو حضور اجتماع الأحرار ، والأحرار بدورهم لا يستطيعون الاحتماء تحت سقفه . لا يستطيع الحصول على أي من ألقاب العشيرة الأربعة ، وحين يموت يدفنه أقرانه من البشر في غابة الشر . كيف يمكن لشخص كهذا أن يكون تابعاً للمسيح؟

قال كياجا : «إنه يحتاج إلى المسيح أكثر منك ومني» .

قال المهتدي : «إذن سأعود إلى عشيرتي» . وعاد إليها . اتخذ السيد

كياجا موقفاً حازماً ، وكان حزمه هو الذي أنقذ الكنيسة الناشئة . فاستمد المهتدون المترددون الإلهام والثقة من إيمانه الراسخ . وأمر السيد كياجا المنبوذَين بقص شعريهما الطويلين المتشابكين . في البداية ، خشي هذان المنبوذان أن يموتا .

قال السيد كياجا : «إذا لم تتخلصا من علامة إيمانكما الوثنيّ ، فلن أقبلكما في الكنيسة . إنكما تخشيان أن تموتا . لماذا تخشيان ذلك؟ ما هو اختلافكما عن الرجال الآخرين الذين يقصون شعورهم؟ نفس الرب خلقكما وخلقهم . لكنهم نبذوكما كمجذومين . هذا ضد إرادة الرب الذي وعد كل مَنْ يؤمن باسمه المقدّس بالحياة الأبدية . الوثنيون يقولون إنكما ستموتان إن فعلتما هذا أو ذاك ، وأنتما خائفان . قالوا أيضاً أنني سأموت إذا بنيت كنيستي على هذه الأرض . هل مت؟ قالوا إنني سأموت إذا رعيت التوائم . وها أنا ما أزال حياً . إن الوثنيين لا ينطقون إلا بالباطل . كلمة الرب وحدها هي الصادقة» .

حَلَق المنبوذان شعريهما ، وسرعان ما أصبحا أشد المهتدين تمسكاً بالإيمان الجديد . وما زاد على هذا أن جميع الأوسو في مبانتا تقريباً حذوا حذوهما . وكان أحدهم في الحقيقة مَنْ وضع ، بحماسه ، الكنيسةَ في صراع مع العشيرة بعد سنة بقتله ثعبان النهر المقدس ، فيض إله الماء .

كان الثعبان الملكي مبجلاً أكثر من جميع الحيوانات في مبانتا والعشائر المجاورة . كان يُخاطب بـ«أبانا» ، ويسمح له أن يذهب حيثما شاء ، حتى إلى فراش الناس . فيأكل الجرذان في المنازل ويلتهم أحياناً بيض الدجاج . وإذا قتل رجل العشيرة ثعباناً ملكياً دون قصد ، يقدّم القرابين تكفيراً ويشيعه باحتفال جنائزي باهظ التكاليف شبيه بطقس دفن رجل

عظيم . لم تكن هناك عقوبة موضوعة للرجل الذي يقتل الثعبان الملكي عمداً . إذ لم يتخيّل أحد أن شيئاً كهذا يمكن أن يحدث .

ربما لم يحدث هذا أبداً . وقد نظرت العشيرة إلى الأمر في البداية على هذا النحو . لم يشاهد أحدٌ رجلاً يقتل ثعبان النهر . القصة برمتها نشأت في أوساط المسيحيين أنفسهم .

لكن ، وبالرغم من ذلك ، اجتمع حكام وشيوخ مبانتا ليقرروا ما سيفعلونه . تحدث كثير منهم مطوّلاً وبعنف . رفّت روح الحرب فوقهم . فقال أوكونكوو ، الذي كان قد بدأ يلعب دوراً في قضايا بلد أمه ، لن يسود السلام ما لم تطرد العصابة الشريرة إلى خارج القرية بالسياط .

لكن كثيرين آخرين رأوا الوضع بصورة مختلفة ، وكانت مشورتهم هي التي سادت في النهاية .

قال أحدهم : «ليس من عادتنا أن نقاتل بدلاً عن آلهتنا . علينا ألا نشرع في هذا الآن . إذا قتل رجل ثعبان نهر مقدس سراً في كوخه ، فالمسألة بينه وبين الإله . فنحن لم نَرَه . واذا وضعنا أنفسنا بين الإله وضحيته فقد نتلقى اللطمات الموجهة إلى المسيء . عندما يجدّف رجل ، ماذا نفعل؟ هل نذهب ونغلق فمه؟ لا . إننا نضع أصابعنا في آذاننا لنكفّ عن سماعه . وهذا عمل حكيم» .

قال أوكونكوو : «دعونا لا نناقش الأمر كالجبناء . إذا دخل رجل إلى كوخي وتغوّط على الأرض ، ماذا أفعل؟ هل أغمض عينيّ . لا ! بل أتناول عصا وأكسر رأسه . هذا ما يفعله رجل . إن هؤلاء الناس يصبون الأقذار يومياً فوق رؤوسنا ، وأوكيكي يقول إننا يجب أن نتظاهر بأننا لا نرى» .

أطلق أوكونكوو صوتاً مليئاً بالاشمئزاز . فكر :هذه قبيلة نساء . مثل هذا ما كان يحدث مطلقاً في أرض الآباء ، أومووفيا .

قال رجل آخر : «صدق أوكونكوو في قوله . يجب أن نفعل شيئاً . دعونا ننبذ هؤلاء الرجال . بذلك لا نحاسب على آثامهم» .

أدلى كل مَنْ حضر الاجتماع برأيه ، وتقرر في النهاية نبذ المسيحيين . فصرف أوكونكوو بأسنانه بقرف .

في تلك الليلة طاف مناد في طول مبانتا وعرضها وأعلن أن أتباع الدين الجديد يطردون من الآن فصاعداً من حياة وامتيازات العشيرة .

وكان عدد المسيحيين قد تعاظم الآن وأصبحوا يكّونون مجتمعاً صغيراً من رجال ، ونساء وأطفال ، مطمئنين وواثقين من أنفسهم . راح السيد براون ، المبشر الأبيض ، يقوم بزيارات منتظمة لهم . قال : «حين أفكر في أن البذرة الأولى زُرعت بينكم منذ ثمانية عشر شهراً فقط ، أدهش لعمل الرب» .

كان اليوم هو الأربعاء في الأسبوع المقدّس ، فطلب السيد كياجا من النساء إحضار طين أحمر وطباشير بيضاء وماء لفرك الكنيسة لعيد الفصح ، فقسّمت النساء أنفسهن إلى ثلاث فرَق لهذه الغاية . انطلقن في الصباح الباكر ، بعضهن يحملن جرار ماء اتجهن بها إلى الجدول ، ومجموعة أخرى يحملن مجارفَ وسلالاً اتجهن بها إلى حفرة الطين الأحمر في القرية ، وتوجهت أخريات إلى مقلع الطباشير .

كان السيد كياجا يصلي في الكنيسة حين سمع النسوة يتحدثن

بانفعال . اختتم صلاته وخرج ليرى حول ماذا يدور كل هذا . لقد عادت النساء إلى الكنيسة بجرار فارغة . قلن إن عدداً من الشباب طاردوهن وطردوهن بعيداً عن الجدول بالسياط . بعد فترة وجيزة ، عادت النسوة اللواتي ذهبن لجلب الطين الأحمر بسلال فارغة ، وقد تعرّض بعضهن للجَلْد بقسوة . كما عادت أيضاً النسوة اللواتي ذهبن لجلب الطباشير ليروين قصة مشابهة .

سأل السيد كياجا الذي عرته حيرة شديدة : «ماذا يعني كل هذا؟»

قالت إحدى النسوة : «اعتبرتنا القرية خارجين على القانون . أعلن رجلُ الجرس هذا في الليلة الماضية . لكن ، ليس من عُرْفنا حرمان أي شخص من الجدول أو المقلع» .

قالت امرأة أخرى : «إنهم يريدون تدميرنا . لن يسمحوا لنا بالذهاب إلى السوق . قالوا ذلك» .

كان السيد كياجا على وشك أن يرسل في طلب رجاله المهتدين من القرية حين شاهدهم قادمين من تلقاء أنفسهم . لقد سمعوا جميعاً رجل الجرس طبعاً ، لكنهم لم يسمعوا مطلقاً في حياتهم بحرمان النساء من الوصول إلى الجدول .

قالت النساء : «هيّا معنا . سنذهب معكن لملاقاة هؤلاء الجبناء» . حمل بعضهم عصياً غليظة وحمل بعضهم الآخر حتى سيوف تحطيب .

لكن السيد كياجا كبح جماحهم . فقد أراد أن يعرف أولاً لماذا اعتبروهم خارجين على القانون .

قال رجل : «يقولون إن أوكولي قتل ثعبان النهر المقدس» .

قال آخر : «هذا كذب . أخبرني أوكولي نفسه أن هذا ليس صحيحاً» .

لم يكن أوكولي حاضراً ليجيب . فقد وقع صريع المرض في الليلة الماضية . وقبل أن يطلع النهار عليه ، مات . أظهر موته أن الآلهة لا تزال قادرة على خوض معاركها . فلم تر العشيرة عندئذٍ سبباً لمضايقة المسيحيين .

فصل ١٩

راحت آخر أمطار السنة الغزيرة تهطل . كان الوقت مناسباً لدوس الطين الأحمر المستخدم في بناء الجدران . ولا يجري عمل هذا قبل ذلك ، فالأمطار غزيرة جداً وستجرف كومة الطين المداس بالأقدام ، كما لا يمكن عمل هذا بعد ذلك ، فالحصاد سيحين موعده قريباً ، ثم سيحلّ الفصل الجاف .

سيكون هذا حصاد أوكونكوو الأخير في مبانتا . فالسنوات السبع الضائعة سدى والمرهقة شارفت متثاقلة على الانتهاء أخيراً . ومع أن أوكونكوو نجح في بلد أمه ، إلاّ أنه يعرف أنه كان سينجح أكثر في أوموفيا ، أرض آبائه حيث الرجال شجعان ومحاربون أشداء . في هذه السنين السبع ، كان سيعلو إلى أرفع مستوى . لذلك أسف على كل يوم من أيام نفيه . كان أقارب أمه طيبين جداً معه ، وهو ممنون لهم ؛ لكن ذلك لن يغير الحقائق . وقد دعا أول طفلة ولدت له في المنفى ننيكا ـ «الأم هي الأسمى» ، بدافع من الأدب نحو أقارب أمه . لكن ، وبعد سنتين وحين أنجب ابناً ذكراً ، دعاه نووفيا ـ «مولود في التيه» .

حالما بدأ أوكونكوو سنته الأخيرة في المنفى ، أرسل نقوداً إلى أوبيريكا

ليبني له كوخين في مجمّعه القديم ليسكن فيهما هو وعائلته ريثما يبني مزيداً من الأكواخ وسور مجمّعه الخارجي . وهو لا يستطيع أن يطلب من شخص آخر أن يبني له أوبيه ، أو أسوار مجمّعه . فهذه يبنيها الرجل بنفسه أو يرثها عن أبيه .

عندما بدأت آخر أمطار السنة الغزيرة بالهطول ، أرسل أوبيريكا خبراً بأن الكوخين بُنيا ، فبدأ أوكونكوو يستعد للعودة ، بعد الأمطار . كان بوده لو أنه عاد أبكر وبنى مجمّعه في تلك السنة قبل أن تتوقف الأمطار ، لكنه بفعله هذا كان سيقتطع جزءاً من العقوبة الكاملة البالغة سبع سنوات . وذلك مالا يمكن أن يتحقق . هكذا انتظر بنفاد صبرٍ الفصلَ الجاف .

جاء الفصل متمهلاً . فخفّت الأمطار تدريجياً إلى أن أصبحت تتساقط بزخات مائلة . صارت الشمس تشرق من خلال المطر أحياناً وهبّ نسيم خفيف . كان نوعاً من مطر مرح وهفهاف . بدأ يظهر قوس قزح ، وقوسا قزح معاً أحياناً ، كأم وابنتها ، إحداهما شابة وجميلة والأخرى ظلّ قديم وباهت . كان قوس القزح يدعى ثعبان السماء الملكي .

دعا أوكونكوو زوجاته الثلاث وطلب منهن أن يعددن ما يلزم لإقامة وليمة فخمة . قال : «يجب أن أشكر أهل أمي قبل أن أرحل» .

كان لدي إيكويفي بعض القريسة الباقي من مزرعتها من السنة الماضية . لم يكن عند أي من الزوجتين الأخريين شيء منه . لم يكن هذا لأنهما كسولتان ، بل لأن لديهما أطفالاً كثيرين لإطعامهم . لذلك كان من المفهوم أن إيكويفي ستقدّم القريسة للوليمة وستقدم أم نوويي وأوجيوجو

بقية المؤن مثل السمك المدخّن وزيت النخيل وفلفل الحساء. وأعلن أوكونكوو أنه سيتولى أمر اللحم واليام.

نهضت إيكويفي مبكّرة في صباح اليوم التالي وذهبت إلى مزرعتها مع ابنتها إيزينما وابنة أوجيوجو، أوبياجيلي، لجني درنات القريسة. حملت كل منهما سلة قصب طويلة، وسيف تحطيب كبير لقطع ساق القريسة الطري، ومعزقة للحفر واستخراج الدرنة. ولحسن الحظ، كان مطر خفيف قد هطل أثناء الليل ولم تعد التربة قاسية جداً.

قالت إيكويفي: «لن نستغرق وقتاً طويلاً في جني كل ما نريد».

قالت إيزينما: «لكن الأوراق ستكون مبلولة». كانت سلتها متوازنة على رأسها، وذراعاها معقودتان على صدرها. فهي تحس بالبرد. «أنا أكره تساقط الماء البارد على ظهري. كان يجب أن ننتظر إلى أن تطلع الشمس وتجفّ أوراق الشجر».

دعتها أوبياجيلي: «ملح»، لأنها قالت إنها تكره الماء. «هل تخافين أن تذوبي؟»

كان جني القريسة سهلاً، كما قالت إيكويفي. هزّت إيزينما كل شجرة بشدّة بعصا طويلة قبل أن تنحني وتقطع الساق وتحفر الأرض لتستخرج الدرنة. في بعض الأحيان، لم يكن الحفر ضرورياً. بل كن يسحبن الجذع فقط، فترتفع التربة، وتنقطع الجذور في الأسفل، فتسحب الدرنة من الأرض.

حين جمعن كومة كبيرة من القريسة، حملنها على دفعتين إلى الجدول، حيث كان لكل امرأة حوض ضحل لتخمير قريستها.

قالت أوبياجيلي :«ستكون جاهزة خلال أربعة أيام أو حتى ثلاثة . فهي درنات حديثة» .

قالت إيكويفي : «إنها ليست درنات حديثة جداً . لقد زرعتها منذ سنتين تقريباً . التربة فقيرة ولهذا السبب تكون الدرنات صغيرة إلى هذا الحد .

لم يحدث أبداً أن فعل أوكونكوو شيئاً دون أن يكمله حتى النهاية . فعندما احتجت زوجته إيكويفي بأن عنزتين تكفيان للوليمة ، أخبرها أن هذا ليس من شأنها .

ـ «أدعو إلى وليمة لأن لدي ثروة كافية . فأنا لا أستطيع أن أعيش على ضفة نهر وأغسل يدي باللعاب . لقد كان أهل أمي طيبين معي ويجب أن أظهر امتناني لهم» .

هكذا ذُبحت ثلاث عنزات وعدد من الدجاج . فكانت أشبه بوليمة عرس . فقد قدّمت عصيدة فو ـ فو ويام ، وحساء إيجوسي وحساء ورق شجر مرّ وزقاق كثيرة من نبيذ النخيل .

دعي إلى الوليمة جميع الأومونا ، جميع نسل أوكولو ، الذي عاش قبل حوالي مائتي سنة . كان أكبر القوم سناً في هذه العائلة كثيرة العدد خال أوكونكوو ، أوتشيندو . فقدّمت له جوزة الكولا ليكسرها ، فصلى لأجداده . طلب منهم الصحة والأطفال : «نحن لا نطلب ثروة لأن من لديه الصحة والأطفال سينال ثروة أيضاً . نحن لا نصلي لمزيد من المال بل لمزيد من الأهل . إننا أفضل من الحيوانات لأن لنا أهلاً . الحيوان يحكّ جنبه بشجرة ، بينما يطلب الرجل من قريبه أن يحكّ له جنبه» . وصلى

خاصةً من أجل أوكونكوو وعائلته . ثم كسر جوزة الكولا وألقى فلقة منها على الأرض للأجداد .

فيما كانت قطع جوزات الكولا المكسورة توزع على المدعوين ، بدأت زوجات أوكونكوو وبناته وأولئك اللاتي أتين للمساعدة في الطبخ يحضرن الطعام . أحضر أبناؤه زقاق نبيذ النخيل . كانت هناك كميات كبيرة من الأكل والشرب بحيث أن كثيراً من الأقارب صفّروا مندهشين . حين بسط الطعام ، نهض أوكونكوو ليلقي كلمة .

قال : «أرجوكم أن تقبلوا هذه الكولا الصغيرة . إنها ليست تسديداً لما قدمتموه إليّ في هذه السنوات السبع . فالطفل لا يستطيع أن يسدّد ثمن حليب أمه . وقد دعوتكم فقط لأن من المستحسن أن يجتمع الأهل» .

قدّمت عصيدة اليام أولاً لأنها أخفّ من الفو ـ فو ولأن اليام كان يقدّم دائماً أولاً . ثم قدّم الفو ـ فو . أكله بعض الأهل مع حساء الإيجوسي وأكله بعضهم الآخر مع حساء ورق الأشجار . ثم قطع اللحم بحيث ينال كل واحد من الأومونا نصيباً منه . نهض كل رجل بحسب سنه وأخذ نصيبه . حتى الأقارب القليلين الذين لم يتمكنوا من الحضور ، أُرسل نصيبهم إليهم كلٍ حسب دوره .

فيما هم يحتسون نبيذ النخيل ، نهض أحد أكبر الافراد سناً في الأومونا ليشكر أوكونكوو : «لو قلت إننا لم نتوقع وليمة كبيرة كهذه لكنت كمن يوحي بأننا لا نعرف كم هو كريم ابننا ، أوكونكوو . نحن نعرفه ، وقد توقعنا وليمة كبيرة . لكن الواقع أسفر عن وليمة أكبر حتى مما توقعنا . شكراً لك . وأدعو الآلهة أن تعوض عليك ما أنفقته عشرة أضعاف . إنه

لمن الخير أن يرى الإنسان، في هذه الأيام التي يعتبر فيها الصغار أنفسهم أحكم من الكبار، رجلاً يقوم بالواجب على الطريقة الرائعة القديمة. فالرجل الذي يدعو أهله إلى وليمة لا يفعل ذلك لانقاذهم من الجوع. فلديهم كلهم طعام في بيوتهم. وحين نجتمع في القرية المضاءة بضوء القمر، لا نفعل هذا من أجل القمر. فكل شخص يستطيع أن يراه من مجمّعه. إننا نجتمع لأن من الخير أن يجتمع الأهل. قد تتساءلون لماذا أقول كل هذا. أقول هذا لأنني أخاف على الجيل الجديد، أخاف عليكم أنتم يا قوم». لوّح بذراعه مشيراً إلى حيث كان يجلس معظم الشباب، «أما أنا، فلم يبقَ أمامي سوى وقت قصير لكي أعيش، وكذلك أوتشيندو وأوناتشوكوو وإيميفو. أنا أخاف عليكم أنتم الشباب، لأنكم لا تدركون كم هو قوي رباط القرابة. إنكم لا تعرفون ماذا يعني أن تتكلموا بصوت واحد. ما هي النتيجة؟ لقد حلّ دين مقيت بين ظهرانيكم. الرجل الآن يهجر أباه وإخوته. ويلعن آلهة آبائه وأجداده، ككلب الصياد الذي يصيبه السعار فجأة، فيستدير منقضّاً على صاحبه. أنا أخاف عليكم، أخاف على العشيرة»، والتفت ثانية إلى أوكونكوو وقال: «شكراً لك لدعوتنا لنجتمع معاً».

الجزء الثالث

فصل ٢٠

سبع سنوات بعيداً عن العشيرة مدة طويلة . فمكان رجل لا يظل دائماً محفوظاً ، في انتظاره . فما أن يرحل رجل حتى ينهض رجل آخر ، ويشغل مكانه . العشيرة مثل سحلية ، إذا فقدت ذنبها ، ينمو لها ذنب آخر .

أدرك أوكونكوو هذا . عرف أنه فقد مكانه بين الأرواح المقنّعة التسع التي تتولى إدارة القضاء في العشيرة . أضاع الفرصة لقيادة عشيرته المفعمة بروح القتال ضد الدين الجديد الذي اكتسب أرضا هناك ، كما نما إلى علمه . أضاع السنوات التي كان بوسعه أن ينال خلالها أرفع الألقاب في العشيرة . لكن بعض هذه الخسائر لم يكن من المستحيل تعويضها . كان مصمماً على أن تلفت عودته انتباه قومه . سيعود وهو في وضع مزدهر ، ويسترد السنوات السبع الضائعة .

حتى في سنته الأولى وهو في المنفى ، بدأ يخطط لعودته . سيكون أول ما سيفعله هو إعادة بناء مجمّعه على مستوى أبهى . سيبني مخزناً للغلال أكبر من مخزنه الذي كان يملكه في السابق وكوخين لزوجتين جديدتين . سيظهر ثراءه عن طريق إدخال أبنائه في جمعية الأوزو . فالرجال العظام في العشيرة فقط هم القادرون على فعل هذا . رأى بوضوح الإجلال الكبير

الذي سيحاط به ، ورأى نفسه متقلّداً أسمى لقب في البلد .

بينما راحت سنوات المنفى تنقضي سنة إثر الأخرى ، بدا له أن تشيّه قرر أن يعوّضه عن المصيبة السابقة . فقد نما يامه بوفرة ، ليس في أرض أمه فحسب ، بل في أوموفيا أيضاً ، حيث استثمره صديقه سنة وراء أخرى مع محاصصين .

ثم وقعت مأساة ابنه البكر . خيل إليه في البداية أنها ستكون أكبر من أن تحتمله روحه ، لكن روحه كانت مرنة ، فتغلب في النهاية على أساه . فلديه خمسة أبناء آخرين وسيربيهم وفقاً لحياة العشيرة .

دعا أبناءه الخمسة إليه ، فأتوا وجلسوا في أوبيّه . كان عمر أصغرهم أربع سنوات .

ـ«لقد رأيتم جميعاً الإثم الشنيع الذي ارتكبه أخوكم . هو الآن لم يعد ابني ولا أخاكم . سيكون ابني رجلاً يرفع رأسه عالياً وسط قومي . إذا كان أي منكم يفضّل أن يكون امرأة ، فليتبع خطى نوويي الآن وأنا حيّ ، حتى ألعنه . إذا انقلبتم ضدي بعد موتي ، فسأزوركم وأكسر رقابكم .

كان أوكونكوو محظوظاً جداً مع بناته . لم يكفّ أبداً عن الأسف لأن إيزينما كانت فتاة . فمن بين جميع أطفاله ، كانت الوحيدة التي تفهم تقلّبات مزاجه . فنما رباط من التعاطف بينهما على مر السنين .

كبرت إيزينما أثناء نفي والدها وأصبحت واحدة من أجمل الفتيات في مبانتا . دعيت بلّورة الجمال ، مثلما دعيت والدتها في صباها . فالفتاة العليلة التي سببت الكثير جداً من وجع القلب لأمها ، تحوّلت بين عشية وضحاها تقريباً إلى صبية مفعمة بالصحة والمرح . صحيح أن لحظات من

الاكتئاب النفسي كانت تنتابها فتنهش أثناءها الكلَ ككلب مسعور . إلاّ أن هذه التقلبات كانت تحلّ بها فجأة ودون سبب واضح . لكن تلك اللحظات كانت نادرة وقصيرة الأمد . لم تكن أثناءها تطيق أحداً سوى أبيها .

تقدم شباب ورجال موسرون في أواسط العمر كثيرون في مبانتا لخطبتها . لكنها رفضتهم جميعاً ، فقد دعاها أبوها إليه ذات مساء وقال لها : «هناك كثير من الناس الطيبين والموسرين هنا ، لكنني سأكون سعيداً إذا تزوجتِ في أوموفيا عندما نعود إلى بيتنا» .

ذلك كان كل ما قاله . لكن إيزينما أدركت بوضوح كل الفكر والمعنى المستترين وراء الكلمات القليلة . فوافقت .

قال أوكونكوو : «إن أختك غير الشقيقة ، أوبياجيلي ، لن تفهمني . لكنك تستطيعين أن تشرحي لها» .

مع أنهما كانتا في نفس السن تقريباً ، إلّا أن تأثيراً قوياً كان لإيزينما على أختها غير الشقيقة . فشرحت إيزينما لها لماذا يجب ألا تتزوجا الآن ، فوافقت هي أيضاً . هكذا رفضت الاثنتان كل عروض الزواج في مبانتا .

فكر أوكونكوو في نفسه : «أتمنى لو أنها غلام» . إنها تفهم الأمور فهماً صحيحاً تماماً . مَنْ غيرها من بين أطفاله يستطيع أن يقرأ أفكاره على هذا النحو الجيد؟ إن عودته إلى أوموفيا مع ابنتَين جميلتَين يافعتَين ستجذب اهتمام الكثيرين . سيكون صهراه المقبلان رجلين من أصحاب النفوذ في العشيرة . ولن يجرؤ الفقراء والمغمورون على التقدم لخطبتهما .

تغيرت أوموفيا حقاً في السنوات السبع التي قضاها أوكونكوو في

المنفى . فقد أتت الكنيسة وأضلّت كثيرين . لم ينضم إليها وضيعو النسب والمنبوذون فحسب ، بل رجال ذوو حيثية أيضاً . وكان أحد هؤلاء أجبويفي أوجونا ، الذي يتقلد لقبين ، والذي قطع كالمجنون سوار لقبيه المحيط بكاحله ورماه بعيداً كي ينضم إلى المسيحيين . كان المبشر الأبيض فخوراً جداً به ، وكان من بين أول الرجال في أمووفيا الذين تلقوا أسرار تناول العشاء الرباني ، أو الوليمة المقدّسة كما كانت تدعى في لغة الإيبو . فكر أوجبويفي أوجونا في الوليمة بمفاهيم الأكل والشرب ، لكن في نطاق أقدس من ولائم القرية . لذلك وضع قرنه المستخدم للشرب في كيسه المصنوع من جلد الماعز من أجل المناسبة .

لكن ، إضافة إلى الكنيسة ، جلب الرجال البيض معهم حكومة أيضاً . فبنوا محكمة حيث يصدر مفوّض شرطة المنطقة أحكاماً على قضايا بجهل . كان له سعاة محكمة يجلبون الناس ليمثلوا أمامه للمحاكمة . وقد انحدر كثير من هؤلاء السعاة من أومورو الواقعة على ضفة النهر العظيم ، حيث وصل الرجال البيض أول الأمر قبل سنوات عديدة خلت وأقاموا مركز دينهم وتجارتهم وحكومتهم . كان سعاة المحكمة هؤلاء مكروهين كراهية شديدة في أمووفيا لأنهم غرباء ومتعجرفون ومستبدون . وقد دُعوا كوتما ، واكتسبوا ، بسبب سراويلهم القصيرة الرمادية اللون اسماً آخر : «عجيزة الرماد» . كانوا يحرسون السجن ، الذي كان مليئاً بأناس خالفوا قوانين الرجل الأبيض . كان بعض هؤلاء السجناء قد ألقوا بتوائمهم ، وبعضهم كان قد ضايق المسيحيين . فتعرضوا هناك للضرب على يد الكوتما ، وأرغموا على العمل كل صباح في تنظيف مجمّع الحكومة وجلب حطب مفوّض الشرطة الأبيض وسعاة المحكمة . وكان بعض

هؤلاء السجناء رجالاً من حملة الألقاب الذين لابد أن يكونوا أرفع من أعمال وضيعة كهذه . وقد أحزنتهم المهانة وندبوا على مزارعهم المهملة . فعندما كانوا يقطعون العشب في الصباح ، كان الشباب بينهم يغنون بايقاع متوافق مع ضربات سيوف التحطيب :

«كوتما ذو عجيزة الرماد ،

يليق به أن يكون عبداً

والرجل الأبيض فاقد العقل ،

يليق به أن يكون عبداً» .

لا يحب سعاة المحكمة أن يدعوهم أحد «عجيزة الرماد» ، لذلك كانوا ينهالون بالضرب على الرجال . لكن الأغنية انتشرت في أوموفيا .

انحنى رأس أوكونكوو أسى عندما أخبره أوبيريكا بكل هذه الأمور .

قال أوكونكوو وهو يكاد يخاطب نفسه : «لعلي غبت مدة طويلة جداً . لكنني لا أستطيع أن أفهم هذه الأمور التي تحدثني عنها . ما ذلك الذي حدث لقومنا؟ لماذا فقدوا القدرة على القتال؟»

سأل أوبيريكا : «ألم تسمع كيف محى الرجل الأبيض آبامي عن وجه الأرض؟»

قال أوكونكوو : «سمعت . لكنني سمعت أيضاً أن سكان آبامي كانوا ضعفاء وحمقى . لماذا لم يقاتلوا دفاعاً عن أنفسهم؟ ألم يكن في حوزتهم بنادق وسيوف؟ سنكون جبناء لو قارنا أنفسنا برجال آبامي . فآباؤهم لم

يتجرؤوا مطلقاً على الوقوف أمام أجدادنا . يجب أن نقاتل هؤلاء الناس ونطردهم من البلاد» .

قال أوبيريكا بحزن : «فات الأوان الآن . فرجالنا أنفسهم وأبناؤنا انضموا إلى صفوف الغريب . انضموا إلى دينه وهم يساعدونه على المحافظة على حكومته . لو حاولنا طرد الرجال البيض من أوموفيا ، لوجدنا الأمر سهلاً . فاثنان منهم فقط يوجدان هنا . لكن ، ماذا بشأن قومنا الذين يتبعون سبيلهم ومُنحت لهم سلطة؟ سيذهبون إلى أومورو ويحضرون الجنود ، وستكون حالنا كحال آبامي» . توقف عن الكلام لفترة طويلة ثم قال «لقد أخبرتك في زيارتي الأخيرة لمبانتا كيف شنقوا أنيتو» .

سأل أوكونكوو : «ماذا حدث لقطعة الأرض المتنازع عليها» .

ـ «قررت محكمة الرجل الأبيض أنها تخص عائلة نناما ، التي دفعت أموالاً كثيرة لسعاة الرجل الأبيض ومترجمه» .

ـ «هل يعرف الرجل الأبيض تقاليدنا حول الأرض؟»

ـ «كيف يمكنه هذا وهو حتى لا يتكلم لغتنا؟ لكنه يقول إن تقاليدنا سيئة ، وإخواننا الذين تبنوا دينه يقولون أيضاً أن تقاليدنا سيئة . كيف تعتقد أننا نستطيع أن نحارب وإخواننا بالذات انقلبوا ضدنا؟ الرجل الأبيض ذكي جداً . جاء بهدوء وسلام بدينه . فضحكنا على حماقته وسمحنا له بالبقاء . والآن ، استمال إخواننا ، ولم تعد عشيرتنا قادرة على التصرف كرجل واحد . لقد وضع سكيناً على الأشياء التي تشدّ أواصرنا فتداعينا» .

سأل أوكونكوو : «كيف قبضوا على أنيتو ليشنقوه؟»

ـ «عندما قتل أودوتشي في المشاجرة حول الأرض ، هرب إلى أنينتا

لينجو من غضب الأرض . حدث ذلك بعد حوالي ثمانية أيام من المشاجرة ، لأن أودوتشي لم يمت على الفور متأثراً بجراحه . بل مات في اليوم السابع . لكن الكل عرفوا أنه كان سيموت ، فجمع أنيتو ممتلكاته استعداداً للفرار . لكن المسيحيين أخبروا الرجل الأبيض بوقوع الحادثة ، فأرسل هذا الكوتما للقبض على أنيتو . سجن مع جميع قادة عائلته . وفي النهاية ، مات أودوتشي ونقل أنيتو إلى أومورو وشنق . أُطلق سراح الباقين ، لكنهم حتى الآن لا يستطيعون التعبير عن معاناتهم» .

جلس الرجلان صامتين لفترة طويلة بعد هذا .

فصل ٢١

كان هناك رجال ونساء كثيرون في أومووفيا لم تتملكهم نفس المشاعر القوية التي انتابت أوكونكوو ضد الشريعة الجديدة . لقد جلب الرجل الأبيض ديناً مجنوناً حقاً ، لكنه بنى أيضاً متجراً ، ولأول مرة ، أصبح زيت النخيل والبذور أشياء غالية الثمن ، وتدفقت أموال كثيرة إلى أومووفيا .

حتى فيما يتعلق بأمر الدين ، تزايد الإحساس بأن من المحتمل أن يكون فيه شيء ما ، شيء مماثل تماثلاً غامضاً لنظام داخل إطار الجنون الغامر .

هذا الإحساس المتنامي يعود إلى السيد براون ، المبشر الأبيض ، الذي كان حازماً جداً في كبح رعيته عن استثارة غضب العشيرة . كان هناك عضو من الصعب جداً ضبطه بصفة خاصة . كان اسمه إينوتش ، وكان أبوه كاهن عبادة الثعبان . وقد انتشرت قصة رددت أن إينوتش قتل ثعبان النهر المقدس وأكله ، وأن أباه صبّ عليه لعنته .

وعظ السيد براون ضد تطرف حماس كهذا . فقد أخبر رعيته النشيطة بأن كل شيء ممكن ، لكن ليست كل الوسائل ملائمة . لذلك تمتع السيد براون باحترام الكل حتى العشيرة ، حيث أنه كان يطأ برفق على إيمانها . كما اكتسب صداقة بعض رجال العشيرة العظام ، وفي إحدى زياراته

المتكررة للقرى المجاورة ، أُهدي ناب فيل منقوش ، كان رمز النبل وسمو المقام . كان أحد الرجال العظام في تلك القرية يدعى آكونا ، وقد أوفد أحد أبنائه إلى مدرسة السيد براون ليتعلم معرفة الرجل الأبيض .

كان السيد بروان ، كلما زار تلك القرية ، يمضي ساعات طويلة مع آكونا في أوبيّه ويحدثه عن طريق مترجم عن الدين . ولم ينجح أي منهما في هداية الآخر ، لكنهما اكتسبا معرفة أوسع بمعتقداتهما المختلفة .

قال آكونا أثناء إحدى زيارات السيد براون : «تقول إن هناك إلهاً واحداً أسمى خلق السماء والأرض . نحن أيضاً نؤمن به وندعوه تشوكوو . لقد خلق العالم كله والآلهة الأخرى» .

قال السيد براون : «لا توجد آلهة أخرى . تشوكوو هو الإله الواحد وكل الآلهة الأخرى زائفة . أنت تنحت قطعة من خشب ـ مثل تلك» (وأشار إلى عوارض السقف التي تدلى منها إيكينجا آكونا المنحوت) ، «وتدعوه إلهاً . لكنه لا يظلّ قطعة خشب» .

قال آكونا : «نعم . إنه فعلاً قطعة خشب . والشجرة التي أتت منها قطعة الخشب خلقها تشوكوو ، كما صنع كل الآلهة الصغرى حقاً . لكنه صنعها لتكون رُسله حتى نتقرّب منه عن طريقها . إنه مثلك . وأنت رئيس كنيستك» .

احتج السيد براون : «لا . إن رئيس كنيستي هو الرب نفسه» .

قال آكونا : «أعرف هذا . لكن لابد من وجود رئيس في هذا العالم بين الناس . لابد وأن يكون شخص مثلك رئيساً هنا» .

ـ «إن رئيس كنيستي بهذا المعنى مقيم في إنجلترا» .

ـ «هذا تماماً ما أقوله . رئيس كنيستك يقيم في بلدك . لقد بعث بك إلى هنا رسولاً له . وأنت أيضاً عينت رسلك وخدمك . أو لآخذ مثالاً آخر ، مفوض شرطة المنطقة . أرسله ملكك» .

قال المترجم بمبادرة منه : «لديهم ملكة» .

ـ «ملكتك تبعث رسولها ، مفوّض شرطة المنطقة . وهو يجد أنه لا يستطيع القيام بالعمل وحده ، لذلك يعين كوتما لمساعدته . ونفس الشيء ينطبق على الإله ، أو تشوكوو . إنه يعين الآلهة الصغرى لتساعده لأن العمل أكبر جداً من أن يتولاه شخص واحد» .

قال السيد براون : «يجب ألا تفكر فيه كشخص . لأنك حين تفكر فيه على هذا النحو ، تتوهم أنه لابد وأن يكون بحاجة إلى مساعدين . وأسوأ ما في الأمر أنكم تتوجهون بعباداتكم كلها إلى الآلهة الزائفة التي خلقتموها» .

ـ «ذلك ليس هكذا . إننا نقدّم القرابين للآلهة الصغيرة ، لكن ، عندما نفشل ولا نجد مَنْ نلجأ إليه ، نتوجه إلى تشوكوو . ومن الصواب أن نفعل هذا . إننا نتقرب من رجل عظيم عن طريق خَدَمه . لكن ، عندما يفشل خَدَمه في مساعدتنا ، نذهب إلى مصدر الرجاء الأخير . نحن نبدو كأنما نولي الآلهة الصغرى اهتماماً أكبر ، لكن الأمر ليس كذلك . إننا نقلقهم أكثر لأننا نخشى أن نقلق سيدهم . لقد عرف آباؤنا أن تشوكوو هو السيد الأسمى ، لذلك أطلق كثير من الرجال على أطفالهم اسم تشوكووكا ـ «تشوكوو هو الأسمى» .

قال السيد بروان : «لقد قلتَ شيئاً مثيراً للاهتمام . أنتم تخافون من

تشوكوو . أما تشوكوو في ديني فهو أب محب ولا حاجة إلى أن يخشاه أؤلئك الذين ينفذون إرادته» .

قال آكونا : «لكننا يجب أن نخشاه عندما لا ننفذ إرادته . ومَنْ يستطيع أن يعرف إرادته؟ إنها أعظم من أن تُعرف» .

بهذه الوسيلة تعلّم السيد براون كثيراً عن دين العشيرة وتوصل إلى نتيجة أن هجوماً جبهوياً عليها لن يكتب له النجاح . لذلك بنى مدرسة ومستشفى صغيراً في أومووفيا . طاف على السكان عائلة عائلة راجياً إياهم أن يرسلوا أطفالهم إلى مدرسته . لكنهم أرسلوا في البداية عبيدهم فقط ، أو أطفالهم الكسالى أحياناً . توسل السيد براون وجادل وتنبأ . قال إن قادة البلاد في المستقبل سيكونون رجالاً ونساء تعلموا القراءة والكتابة . وإذا تقاعست أومووفيا عن إرسال أطفالها إلى المدرسة ، فسيأتي الغرباء من أماكن أخرى ويحكمونهم . وهم يرون الآن ذلك يحدث في المحكمة المحلية ، حيث يحيط بمفوّض شرطة المنطقة غرباء يتحدثون لغته . ومعظم هؤلاء الغرباء قدموا من بلدة أومورو البعيدة الواقعة على ضفة النهر العظيم حيث ذهب الرجل الأبيض في البداية .

في النهاية ، بدأت حجج السيد براون تحدث تأثيراً . فقدم مزيد من الأشخاص للتعلم في مدرسته ، وشجّعهم بإهدائهم قمصاناً داخلية ومناشف . لم يكونوا كلهم صغاراً في السن ، أولئك الذين أتوا ليتعلموا . فبعضهم كان في الثلاثين من عمره أو أكبر . فهم يعملون في مزارعهم في الصباح ، ويذهبون إلى المدرسة بعد الظهر . لم تمض فترة طويلة قبل أن يبدأ الناس القول إن دواء الرجل الأبيض سريع المفعول . حققت مدرسة السيد براون نتائج سريعة . فبضعة أشهر فيها كانت كافية لتولي المرء

منصب ساعي محكمة أو حتى كاتباً فيها . وأصبح أولئك الذين أمضوا فترة أطول مدرسين ، ومن أوموفيا انطلق العاملون إلى كرمة الرب . فقد أنشئت كنائس جديدة في القرى المجاورة ومعها مدارس قليلة . ومن البداية تماماً ، خطا الدين والتعليم يداً بيد .

تعاظمت قوة إرسالية السيد براون بصورة مطردة ، واكتسبت ، بسبب ارتباطها بالإدارة الجديدة ، منزلة اجتماعية جديدة . لكن صحة السيد براون نفسه كانت تتداعى . في البداية ، تجاهل الأعراض التحذيرية . إلا أنه في النهاية اضطر إلى ترك رعيته ، حزيناً ومنهاراً .

رحل السيد براون عن أوموفيا إلى موطنه في أول موسم أمطار بعد عودة أوكونكوو إليها . وحالما علم بعودة أوكونكوو قبل خمسة أشهر ، قام المبشر بزيارته على الفور . كان قد أرسل لتوه ابن أوكونكوو ، نوويي ، الذي بات الآن يدعى إسحاق ، إلى الكلية الجديدة لتدريب المعلمين في أومورو . وأمل أن يسعد أوكونكوو لسماع هذا . لكن أوكونكوو طرده مع التهديد بأنه إذا عاد إلى مجمّعه مرة أخرى ، فسوف يحمله ويلقي به خارجاً .

لم تكن عودة أوكونكوو إلى موطنه حدثاً بارزاً كما تمنى . صحيح أن ابنتيه الجميلتين أثارتا اهتماماً كبيراً بين الخطاب وسرعان ما بدأت مفاوضات من أجل الزواج منهما بعد وصوله مباشرة ، لكن ، فيما عدا ذلك ، لم يبد أن أوموفيا اهتمت بصفة خاصة بعودة المحارب . فقد طرأ تحوّل عميق على العشيرة أثناء سنوات نفية حتى أصبح من الصعب التعرّف عليها . فالدين والحكومة والمتاجر الجديدة تعلو قيمتها كثيراً جداً

في أعين وعقول الناس . كان لا يزال هناك كثيرون ينظرون إلى هذه المؤسسات الجديدة باعتبارها شراً ، لكن ، حتى هؤلاء تكلموا قليلاً عن أي شيء آخر غير هذه المؤسسات وفكروا قليلاً فيها ، ويقيناً أنهم لم يتكلموا عن عودة أوكونكوو ولا فكروا فيها .

كانت عودته في السنة الخطأ أيضاً . فلو تمكن أوكونكوو من إدخال ابنيه الاثنين في جمعية الأوزو فوراً كما خطط لذلك ، لأثار ضجة . لكن شعائر الانتماء كانت تقام مرة كل ثلاث سنوات في أومووفيا ، وكان عليه أن ينتظر حوالي السنتين حتى يحل موعد دورة الاحتفالات التالية .

أحسّ أوكونكوو بحزن عميق . ولم يكن مجرد حزن شخصي . بل انتابه الأسى على العشيرة التي شاهدها تتمزق وتتداعى ، كما حزن على محاربي أومووفيا ، الذين أصبحوا ، على نحو لا لبس فيه ، ليّني العريكة كالنساء .

الفصل ٢٢

خَلَفَ السيد براون القسيس جيمس سميث ، وكان نمطاً مختلفاً من الرجال . وقد أدان علناً سياسة السيد براون التصالحية والتوفيقية . إنه يرى الأشياء بالأسود والأبيض . الأسود شر . ويرى العالم ساحة قتال يشتبك فيها أبناء النور في معركة حياة أو موت مع أبناء الظلام . وتحدث في مواعظه عن الخراف والماعز والقمح والزوان . فهو يؤمن بذبح أنبياء بعل .

انزعج السيد سميث انزعاجاً شديداً من الجهل الذي أبداه كثيرون من أبناء رعيته حتى في أمور مثل الثالوث المقدس والقرابين المقدسة . فأظهر هذا فقط بأنهم بذور بُذرت في تربة صخرية . فالسيد براون لم يفكر في شيء سوى الأعداد . كان عليه أن يعلم أن مملكة الرب لا تقوم على الجماهير الغفيرة . فالسيد المسيح نفسه شدّد على أهمية القلّة . ضيّق هو هذا الطريق وقليل هو العدد . وأن تملأ معبد الرب المقدس بجمهور وثنيّ يصرخ مطالباً بعلامات كان حماقة لها عواقب دائمة . والسيد المسيح استخدم السوط مرة واحدة فقط في حياته ـ لطرد الجمهور من كنيسته .

في غضون بضعة أسابيع من وصوله إلى أوموفيا ، علّق السيد سميث عضوية امرأة شابة في الكنيسة لأنها صبّت نبيذاً جديداً في قناني قديمة .

كما سمحت هذه المرأة لزوجها الوثني بتشويه جسد طفلها الميت . وكان قد أعلن عن الطفل بأنه أوجبانجي ، يعذّب أمه بالموت ثم يعود ويدخل رحمها لكي يولد من جديد . وكرر هذا الطفل دورته الشريرة أربع مرات . لذا شُوّه لتثبيط همته في العودة .

استشاط السيد سميث غضباً حين سمع هذا . رفض تصديق القصة التي أكد له حتى بعض المؤمنين الراسخين في إيمانهم ، قصة الأطفال الشريرين حقاً ، والذين لا يردعهم التشويه ، بل يعودون وعليهم جميع الندوب . ردّ عليهم بأن مثل هذه القصص ينشرها الشيطان في العالم ليضلّ الناس . وأن أولئك الذين يصدقون مثل هذه القصص ليسوا جديرين بمائدة الرب .

هناك مَثَل في أومووفيا يقول إن الطبول تقرع لرجل على نحو ما يرقص هذا الرجل . وقد رقص السيد سميث خطوة عنيفة ، لذا جنّت الطبول . فازدهر تماماً تحت رعايته أولئك المهتدون مفرطو الحماس الذين أمضّهم كبح السيد براون لجماحهم . كان أحدهم إينوتش ، ابن كاهن الثعبان الذي روي عنه أنه قتل ثعبان النهر المقدس وأكله . بدا إخلاص إينوتش للدين الجديد أعظم من إخلاص السيد براون له حتى أن القرويين دعوه بـ : الغريب الذي ناح بصوت أعلى من صوت المفجوع .

كان إينوتش قصيراً ناحل الجسم ، يبدو دائماً في عجلة من أمره . وكانت قدماه قصيرتين وعريضتين ، وحين يقف أو يسير ينضم عقباه معاً وتنفرج قدماه إلى الخارج كأنهما تخاصمتا وتريد كل منهما الذهاب في اتجاه مختلف . على هذا النحو كانت الطاقة المفرطة المعبأة في جسد إينوتش الضئيل حتى أنها كانت دائماً تنفجر في خصومات ومشاجرات .

في أيام الأحد ، يتخيّل دائماً أن الموعظة تلقى على أعدائه . واذا صادف جلوس أحد منهم إلى جانبه فانه كان يلتفت إليه بين الحين والآخر ويرمقه بنظرة ذات مغزى ، كأنه يقول : «لقد أخبرتك بذلك» . كان إينوتش هو الذي فجّر النزاع الكبير بين الكنيسة والعشيرة الذي تزايد تدريجياً منذ رحيل السيد براون .

حدث هذا أثناء الاحتفال السنوي المقام على شرف ربة الأرض . ففي مثل تلك الأوقات ، يظهر أجداد العشيرة ، الذين أودعوا في الأرض ، على هيئة إيجووجوو من خلال ثقوب النمل الضئيلة .

إحدى أفدح الجرائم التي يمكن أن يرتكبها الإنسان هي كشف القناع عن وجه إيجووجوو علناً ، أو قول أو فعل شيء يمكن أن يحطّ من جلاله الخالد في نظر الجاهل بالأسرار . وهذا ما فعله إينوتش .

فقد صادف وقوع طقس عبادة ربة الأرض السنوي يوم أحد ، وكانت الأرواح المقنّعة قد خرجت . لذلك لم تستطع النسوة اللواتي كن في الكنيسة العودة إلى بيوتهن . فقد خرج بعض رجالهن ليرجوا الإيجووجوو الانسحاب لفترة قصيرة ريثما تمر النساء . ووافق الإيجووجوو الممثلون للأرواح على ذلك ، وكانوا قد بدأوا بالتراجع عندما تفاخر إينوتش بصوت عال بأنهم لن يجرؤوا على مسّ أي مسيحي . عندئذ ، عادوا جميعاً ووجّه أحدهم له ضربة قوية بعصا الخيزران التي كان يحملها دائماً . فهجم إينوتش عليه ونزع قناعه . أحاط الإيجووجوو الآخرون فوراً بالزميل الذي دُنّس ، ليحولوا بينه وبين تحديق النساء والأطفال الدنسة ، وقادوه بعيداً . لقد قتل إينوتش روحاً من أوراح الأجداد ، فعمّ الاضطراب أوموفيا .

في تلك الليلة ، تجوّل أم الأرواح في طول العشيرة وعرضها ، باكياً على ابنه القتيل . كانت ليلة رهيبة . فحتى أكبر المعمرين سناً في أوموفيا لم يسمع في حياته صوتاً غريباً ومخيفاً إلى هذا الحد ، كما لن يُسمع مثله أبداً مرة أخرى . بدا الأمر كما لو أن روح القبيلة نفسها تعول بسبب شر عظيم مقبل ـ موتها هي بالذات .

في اليوم التالي ، احتشد كل إيجووجوو أوموفيا المقنعون في ساحة السوق . وفدوا من جميع أحياء العشيرة وحتى من القرى المجاورة . أتى أوتاكاجو المرعب من إيمو ، ووصل إيكوينسو ، يدلي بيده ديكاً أبيض ، من أولي . كان حشداً مخيفاً . وبثّتْ الأصوات المرعبة الصادرة عن أرواح لا يحصيها العد ، والأجراس المجلجلة خلف عدد منها ، وقعقعة سيوف التحطيب الضخمة وهي تركض جيئة وذهاباً محيية بعضها بعضاً ، بثّت الرعدة في جميع القلوب . ولأول مرة في مدى ذاكرة الأحياء ، سُمع خوار الثور المقدس في وضح النهار .

اتجهت الزمرة الغاضبة من ساحة السوق إلى منزل إينوتش . ورافقها بعض شيوخ العشيرة ، متقلدين حمايات رقى وتعاويذ قوية . كان هؤلاء رجالاً من ذوي الباع الطويل في الأوجوو ، أو الدواء . أما الرجال والنساء العاديات ، فقد أصغوا من داخل سلامة أكواخهم .

كان المسيحيون قد اجتمعوا في بيت الكاهن سميث في الليلة الماضية . بينما راحوا يتداولون الموضوع فيما بينهم ، ظلّوا يسمعون أم الأرواح يندب ابنه . وأثر الصوت القارس على السيد سميث ، فبدا لأول مرة خائفاً .

سأل : «ما الذي يخططون له؟» . لم يعرف أحد ، لأن أمراً كهذا لم يحدث من قبل أبداً . كان بود السيد سميث أن يرسل في طلب مفوّض شرطة المنطقة وسعاة المحكمة ، لكنهم كانوا قد ذهبوا في جولة في اليوم السابقْ .

قال السيد سميث : «هناك أمر واحد واضح . نحن لا نستطيع مقاومتهم جسدياً . فقوتنا تكمن في الرب» . ركعوا معاً وصلوا للرب من أجل الخلاص .

صاح السيد سميث : «أيها الرب ، أنقذ قومك» .

أجاب الرجال : «وبارك ميراثك» .

وقرروا إخفاء إينوتش في بيت الكاهن لمدة يوم أو يومين . وأصيب إينوتش بخيبة أمل كبيرة عندما سمع هذا ، لأنه أمل في حرب مقدسة وشيكة ، وكان هناك عدد قليل آخر من المسيحيين فكروا على غراره . لكن الحكمة تغلبت في معسكر المؤمنين ، وهكذا أنقذت أرواح كثيرة .

تحركت زمرة الإيجووجوو كزوبعة عنيفة إلى مجمّع إينوتش وأحالته بسيوف التحطيب والنار إلى كومة من الدمار . ومن هناك تحركت صوب الكنيسة ، منتشية بالتدمير .

كان السيد سميث في كنيسته عندما سمع ضجيج الأرواح المقنعة تقترب . خطا بهدوء إلى الباب المتحكم بطريق الوصول إلى مجمّع الكنيسة ، ووقف هناك . إلا أنه عندما ظهر الثلاثة أو الأربعة إيجووجوو الأُول في مجمّع الكنيسة ، كاد أن يفر هارباً . لكنه تغلّب على هذا الدافع ،

ونزل الدرجتين اللتين كانتا تقودان إلى الكنيسة ، بدلاً من أن يهرب ، وسار باتجاه الأرواح المقتربة .

اندفعوا إلى الأمام ، فانهار أمامهم جزء كبير من السور المصنوع من الخيزران المحيط بمباني الكنيسة . رنت الأجراس متنافرة النغمات ، وصلصلت سيوف التحطيب وتصادمت وعبق الجو بالغبار والأصوات الغريبة . سمع السيد سميث وقع خطى خلفه . فاستدار ورأى أوكيكي ، مترجمة . لم تكن علاقة أوكيكي بسيدة على أفضل أحوالها حيث أنه أدان بشدّة تصرف إينوتش أثناء اجتماع قادة الكنيسة في الليل . وقد وصل أوكيكي إلى حد القول إنه لا ينبغي إخفاء إينوتش في بيت القسيس ، لأن ذلك سيجلب غضب العشيرة على القسيس . فوبخه السيد سميث بلغة قاسية جداً ، ولم يسأله النصيحة في ذلك الصباح . لكنه الآن ، عندما جاء ووقف إلى جانبه في مواجهة الأرواح الغامضة ، نظر إليه وابتسم . كانت ابتسامة باهتة ، لكنها مليئة بالامتنان .

توقف اندفاع الإيجووجوو لبرهة وجيزة بسبب رباطة جأش الرجلين غير المتوقعة . لكنه كان توقفاً وقتياً ، كالصمت المشحون بالتوتر بين إنفجارات هزيم الرعد . كان الاندفاع الثاني أعظم من الأول . فابتلع الرجلين . ثم ارتفع صوت لا يمكن أن تخطئه الأذن فوق الهرج ، وساد صمت فوري . وأخليت فسحة حول الرجلين ، وبدأ أجوفيا الكلام .

كان أجوفيا زعيم الإيجووجوو في أومووفيا . كان الرئيس والناطق بلسان أرواح الأجداد التسع الذين أقاموا العدل في أومووفيا . كان صوته مميزاً وبالتالي تمكن فوراً من تهدئة الأرواح الهائجة . ثم خاطب السيد سميث ، وفيما كان يتكلم تصاعدت سحائب من الدخان من رأسه .

قالت : «يا جسد الرجل الأبيض ، أنا أحبيك» ، وتكلم بلغة الخالدين حينما يخاطبون الناس .

سأل : «يا جسد الرجل الأبيض ، هل تعرفني؟»

تطلع السيد سميث إلى مترجمه ، لكن أوكيكي ، الذي ينحدر من أومورو البعيدة ، بدا في حيرة من أمره أيضاً .

ضحك أجوفيا بصوته الحلقيّ . كانت ضحكته شبيهة بضحك المعدن الصدىء . قال : «إنهم غرباء وهم جهلة . لكن ، ليمر هذا على خير» . استدار إلى رفاقه وحيّاهم ، داعياً إياهم آباء أوموفيا . غرس رمحه المصلصل في الأرض ، فاهتز بحياة معدنية . ثم استدار مرة أخرى إلى المبشر ومترجمه .

قال للمترجم : «أخبر الرجل الأبيض أننا لن نؤذيه . قل له أن يعود إلى بيته ويتركنا وشأننا . لقد أحببنا أخاه الذي كان معنا قبله . كان أحمق ، لكننا أحببناه ، ومن أجله لن نؤذي أخاه . لكن هذا المقام الذي بناه يجب أن يدمر . لن نسمح ببقائه وسطنا بعد الآن . لقد تسبب في آثام لم نسمع بها من قبل ، وأتينا لوضع حد له» . التفت إلى رفاقه : «يا آباء أوموفيا ، أنا أحييكم» ، فأجابه الأرواح بصوت حلقيّ واحد . واستدار ثانية إلى المبشر .

ـ «تستطيع أن تبقى بيننا إذا أحببت نمط حياتنا . كما تستطيع أن تعبد إلهك الخاص . فمن الحسن أن يعبد الإنسان آلهة وأرواح آباءه . عد إلى بيتك حتى لا يصيبك أذى . إن غضبنا عظيم ، لكننا كبحنا جماحه حتى نستطيع التحدث إليك» .

قال السيد سميث لمترجمه : «أخبرهم أن يبتعدوا عن هذا المكان . فهذا بيت الرب ولن أعيش لأراه يدنس» .

ترجم أوكيكي قوله للأرواح وقادة أومووفيا بحكمة : «الرجل الأبيض يقول إنه سعيد لأنكم أتيتم إليه بمظالمكم ، كأصدقاء . سيكون سعيداً لو تركتم المسألة بين يديه» .

ـ «لا نستطيع أن نترك المسألة بين يديه لأنه لا يفهم عاداتنا ، كما أننا لا نفهم عاداته . نحن نقول إنه أحمق لأنه لا يعرف أساليبنا ، ربما يقول إننا حمقى لأننا لا نعرف أساليبه . فليرحل» .

تسمّر السيد سميث في مكانه . لكنه لم يتمكن من إنقاذ كنيسته . فحالما رحل الإيجووجوو ، كانت الكنيسة التي بناها السيد براون من الطين الأحمر قد تحوّلت إلى كومة من التراب والرماد . فهدأت روح العشيرة عند هذا الحد .

فصل ٢٣

لأول مـرة منذ سنوات عـديدة ، شـعـر أوكـونكوو بإحـسـاس شـبـيـه بالسعادة . فـالأوقات التي تغيّرت بصـورة مستعصيـة على التفسير أثـناء نفيه بدت الآن وكـأنـهـا تعـود ثانيـة . وبدا أن الـعـشيـرة الـتي خـانت ثـقـتـه تصلـح الأمور .

خاطب أبناء عشيرتـه بقسوة عندما اجتمعوا في ساحـة السوق ليقرروا ما عليـهم فعلـه . وقد استـمـعـوا إليه باحـتـرام . كـان هذا مـثل الأيام الـقـديمـة الـمـجيـدة ، عندمـا كان الـمـحارب مـحارباً . ومع أنهم لـم يوافقـوا على قـتل الـمـبشـر أو طرد الـمـسيحـيين ، إلاّ أنهم وافقـوا عـلى فـعل شـيء أسـاسيّ . وفعلوه . فأحس أوكونكوو بالسعادة مرة أخرى .

خلال يـومين من تدمير الكنيسة ، لـم يحدث شيء . ظل كـل رجل في أوموفيا يتجـول مسلحـاً ببندقيـة أو سيف تحـطيب . إنهم لن يؤخـذوا على حين غرة ، مثل رجال آبامي .

ثم عـاد مفـوض شرطة الـمـنطقـة من جولتـه . وذهـب السيد سـميث إلـيه فوراً ، ودار بينهما نقاش طويل . لـم يلاحظ رجال أوموفيا هذا ، وإذا كانوا

قد لاحظوه ، فلم يعيروه أي أهمية . فالمبشر كثيراً ما كان يزور أخاه الرجل الأبيض . وليس في ذلك أي غرابة .

بعد ثلاثة أيام ، أرسل مفوّض شرطة المنطقة رسوله معسول اللسان إلى زعماء أوموفيا داعياً إياهم إلى مقابلته في مقر قيادته . لم يكن ذلك غريباً أيضاً . فكثيراً ما دعاهم إلى الثرثرة ، كما كان يحلو له أن يسميها . كان أوكونكوو بين القادة الستة الذين وجهت إليهم الدعوة .

حذر أوكونكوو الآخرين في أن يكونوا متقلدين كامل سلاحهم . قال : «رجل أوموفيا لا يرفض دعوة . قد يرفض القيام بما يُطلب منه ، لكنه لا يرفض أن يُطلب منه هذا . بيد أن الأوقات تغيّرت ، ويجب أن نكون مستعدين تماماً» .

هكذا ذهب الرجال الستة لمقابلة مفوّض شرطة المنطقة ، مسلحين بسيوفهم . لم يحملوا بنادق ، لأن ذلك سيكون غير لائق . فاقتيدوا إلى مبنى المحكمة حيث كان مفوّض الشرطة جالساً . استقبلهم بلطف . فنزعوا أكياسهم الجلدية وسيوفهم المغمدة من قرابها ، ووضعوها على الأرض ، وجلسوا .

بدأ مفوّض الشرطة : «طلبت منكم القدوم بسبب ما حدث أثناء غيابي . أُخبرت ببضع أمور ، لكنني لا أستطيع أن أصدقها حتى أسمع من جانبكم . دعونا نتحدث عن هذا كأصدقاء ، ونجد طريقة لضمان عدم تكرار ما حدث» .

نهض أوجبويفي إيكويمي وبدأ برواية القصة .

قال مفوّض الشرطة : «انتظر قليلاً» . أريد إحضار رجالي حتى يستمعوا

إلى مظالمكم ويتلقوا تحذيراً . كثيرون منهم ينتمون إلى مناطق بعيدة ، ومع أنهم يتكلمون لغتكم ، إلاّ أنهم يجهلون عاداتكم . جيمس ! إذهب وأحضر الرجال» . غادر المترجم قاعة المحكمة وعاد بسرعة مع اثني عشر رجلاً . جلسوا مع رجال أوموفيا ، وبدأ أوجبويفي إيكويمي يروي كيف أن إينوتش قتل إيجووجوو .

ثم حدث ما حدث بسرعة فائقة حتى أن الرجال الستة لم يلحظوا أنه يحدث . نشب عراك قصير فقط ، أقصر حتى من أن يفسح المجال أمام سحب سيف من غمده . وقُيِّد الرجال الستة بالأصفاد واقتيدوا إلى غرفة الحرس .

قال مفوض شرطة المنطقة لهم فيما بعد : «لن نلحق بكم أي أذى ، إذا وافقتم فقط على التعاون معنا . لقد جئنا بإدارة مسالمة لكم ولقومكم من أجل إسعادكم . إذا أساء أحد معاملتكم فسنأتي لإنقاذكم . لكننا لن نسمح لكم بإساءة معاملة الآخرين . لدينا محكمة حيث ننظر في القضايا ونقيم العدل تماماً كما يحدث في بلدي في ظل ملكة عظيمة . أحضرتكم إلى هنا لأنكم تجمعتم لمضايقة الآخرين ، وإحراق بيوت الناس ومكان عبادتهم . ذلك يجب ألا يحدث في الأراضي التابعة لسيادة ملكتنا ، أقوى حاكم في العالم . لقد قررتُ أن تدفعوا غرامة مقدارها مائتي كيس من الوَدَع . وسيفرج عنكم فور موافقتكم على ذلك وتعهدكم بجمع الغرامة من قومكم . ما رأيكم في ذلك؟»

ظل الرجال الستة مقطبين وصامتين ، فتركهم مفوّض الشرطة لفترة من الوقت . طلب من سعاة المحكمة ، وهو يترك غرفة الحرس ، أن يعاملوا

الرجال باحترام لأنهم سادة أوموفيا . قالوا : «نعم يا سيدي» ، وأدوا التحية .

حالما غادر مفوض شرطة المنطقة الغرفة ، تناول رئيس السعاة ، الذي كان أيضاً حلاّق السجناء ، موساه وحلق شعر جميع الرجال . كانوا لا يزالون مصفّدين بالاغلال ، فجلسوا واجمين فقط .

سأل سعاة المحكمة ساخرين : «مَنْ هو الزعيم بينكم؟ نحن نرى أن كل شحاذ في أوموفيا يتقلد سوار اللقب . هل يساوي هذا السوار عشرة وَدَعات؟»

لم يتناول الرجال الستة طعاماً طيلة ذلك اليوم والذي تلاه . لم يُقدّم إليهم حتى ماء ليشربوه ، ولم يسمح لهم بالخروج للتبول أو الذهاب إلى الغابة لقضاء الحاجة . في الليل ظل السعاة يدخلون عليهم ليتهكموا عليهم ويخبطوا رؤوسهم المحلوقة بعضها ببعض .

حتى عندما تُركوا وحدهم ، لم يجد الرجال ما يقولونه لبعضهم . في اليوم الثالث فقط ، عندما لم يعودوا يحتملون الجوع والإهانات ، بدأوا يتحدثون عن الإذعان .

زمجر أوكونكوو : «كان يجب أن نقتل الرجل الأبيض لو استمعتم إليّ» .

قال آخر له : «كان يمكن أن نكون الآن في أومورو بانتظار الشنق» .

سأل ساعٍ اندفع بسرعة داخلاً الغرفة : «مَنْ يريد أن يقتل الرجل الأبيض؟» لم ينبس أحد .

حمل عصا قوية : «لم تكتفوا بجريمتكم ، بل تريدون أن تقتلوا الرجل الأبيض فوق هذا» . ضرب بها الرجال على رؤوسهم وظهورهم عدة ضربات . واختنق أوكونكوو بالكراهية .

•

حالما حُبس الرجال الستة ، انطلق سعاة المحكمة إلى أوموفيا لإخطار الناس أن قادتهم لن يفرج عنهم إلاّ بعد دفع غرامة مقدارها مائتان وخمسون كيساً من الوَدَع .

قال رئيسهم : «ما لم تدفعوا الغرامة فوراً ، سنأخذ قادتكم إلى الرجل الأبيض الكبير في أومورو ، ونشنقهم» .

انتشرت هذه القصة بسرعة في جميع أنحاء القرى ، واضيفت إليها مبالغات كثيرة أثناء انتشارها . قال البعض إن الرجال نُقلوا فعلاً إلى أومورو وسيشنقون في اليوم التالي . قال البعض إن عائلاتهم سيشنقون أيضاً . قال آخرون إن الجنود في الطريق إلى أوموفيا لإطلاق الرصاص على سكانها كما فعلوا في آبامي .

كان الوقت اكتمال القمر . لكن صوت الأطفال لم يسمع في تلك الليلة . وظلّ إيلو القرية ، حيث يجتمعون دائماً للهو في ضوء القمر ، خالياً . لم تتقابل نساء إيجويدو في مخبئهن السري لتعلّم رقصة جديدة لعرضها أمام القرية في وقت لاحق . ولزم الشباب الذين كانوا دائماً ينطلقون إلى الخارج في الليالي المقمرة أكواخَهم في تلك الليلة . لم تسمع أصواتهم الرجولية في دروب القرية وهم ماضون لزيارة أصدقائهم أو ملاقاة حبيباتهم . فقد كانت أوموفيا مثل حيوان مذعور منتصب الأذنين ، يشتمّ الهواء الصامت المنذر بالخطر ، ولا يعرف في أي اتجاه يجري .

قطع الصمت منادي القرية وهو يقرع الأوجيني جهوري الصوت . كان يدعو كل رجل في أوموفيا ، من فئة عمر الأكاكانما فصاعداً ، إلى اجتماع في سوق القرية بعد وجبة الصباح . وتجوّل المنادي في طول القرية وعرضها . لم يترك أياً من الدروب الرئيسية دون أن يطرقه .

كان مجمّع أوكونكوو شبيهاً بالبيت المهجور . كأن ماءً بارداً صب عليه . ظلّ كل أفراد عائلته هناك ، لكنهم كلهم راحوا يتكلمون همساً . كانت إيزينما قد قطعت زيارة الثمانية وعشرين يوماً لعائلة زوجها المقبل ، فعادت إلى البيت عندما سمعت أن أباها سُجن ، وسيشنق . حالما وصلت إلى البيت ، ذهبت إلى أوبيريكا لتسأله عما ينوي رجال أوموفيا فعله إزاء هذا . لكن أوبيريكا لم يكن في بيته منذ الصباح . فظنت زوجاته أنه ذهب إلى اجتماع سري . واقتنعت إيزينما أن شيئاً سوف يفعل .

في الصباح ، وبعد توجيه منادي القرية الدعوة للاجتماع ، اجتمع رجال أوموفيا في ساحة السوق وقرروا جمع مائتين وخمسين كيساً من الوَدَع دون إبطاء لتهدئة غضب الرجل الأبيض . لم يعرفوا أن خمسين كيساً ستذهب إلى سعاة المحكمة الذين زادوا الغرامة لذلك الغرض .

فصل ٢٤

أطلق سراح أوكونكوو ورفاقه المسجونين فور دفع الغرامة . تحدث إليهم مفوض شرطة المنطقة مرة أخرى عن الملكة العظيمة . وعن السلام والحكومة الطيبة . لكن الرجال لم يصغوا . بل جلسوا فقط ونظروا إليه وإلى مترجمه . في النهاية ، رُدّت إليهم أكياسهم وسيوفهم المغمّدة وأمروا بالانصراف إلى بيوتهم . فنهضوا وغادروا مبنى المحكمة . لم يخاطبوا أحداً كما لم يتبادلوا حديثاً فيما بينهم .

كان مبنى المحكمة ، كالكنيسة ، مبنياً على مسافة قريبة خارج القرية . كان الدرب الواصل بينهما مزدحماً جداً لأنه كان يقود إلى الجدول ، وراء المحكمة . كان مكشوفاً ومترباً . وكانت الدروب مفتوحة ومتربة في الفصل الجاف . لكن الشجيرات كانت تنمو أثناء هطول الأمطار بكثافة على جانبيّ الدرب وتطبق عليه . أما الطقس الآن فكان جافاً .

فيما كانوا متجهين إلى القرية ، قابل الرجال الستة نساء وأطفالاً ذاهبين إلى الجدول بجرارهم . لكن ملامح الرجال كانت ثقيلة ومخيفة إلى حد أن النساء والأطفال لم يقولوا «ننو» أو « أهلاً » لهم ، بل ابتعدوا عن طريقهم ليفسحوا لهم طريقاً للمرور . في القرية ، انضمت إليهم مجموعات صغيرة

من الرجال حتى أصبحوا يشكّلون جماعة كبيرة . فمشوا صامتين . حالما وصل كل رجل من الرجال الستة إلى مجمّعه ، دخل إليه برفقة جزء من الجمهور . وساد القرية هرج صامت مكبوت .

هيأت إيزينما بعض الطعام لأبيها فور انتشار النبأ بأن الرجال الستة سيطلق سراحهم . فحملته إليه في أوبيّه . أكل وهو شارد الذهن . لم يكن يحسّ بشهية للطعام ، لكنه أكل منه ليرضيها . وتجمع أقاربه الذكور وأصدقاؤه في أوبيّه ، وحثّه أوبيريكا على الأكل . لم ينبس أحد من الآخرين . لكنهم لاحظوا الخطوط الطويلة على ظهر أوكونكوو حيث مزّق سوط السجّان اللحم .

طاف منادي القريـــة مرة أخرى في الليل . قرع قرصـــه الحديدي الدائري وأعلن أن اجتماعاً آخر سيعقد في الصباح . عرف الجميع أن أوموفيا عزمـــت أخيراً على إبداء رأيها فيما يحدث من أمور .

لم ينم أوكونكوو إلا لماماً في تلك الليلة . فقد امتزجت المرارة في قلبه الآن بنوع من الانفعال شبه الطفولي . قبل أن يأوى إلى فراشه ، تفقد لباس الحرب الذي لم يمسسه منذ عودتــــه من المنفى . هز تنورته المصنوعـــة من ليف نخيل الرافية المدخن وتفحّص خوذته ذات الريشة الطويلة ودرعه . فكّر : كلها في حالة مرضية .

فيما كان مستلقياً على سريره المصنوع من الخيزران ، فكّر في المعاملة التي لقيها في محكمة الرجل الأبيض ، فأقسم على الانتقام . إذا اتخذت أوموفيا قراراً بالحرب ، سيكون كل شيء على ما يرام . لكن ، إذا اختار أهلها أن يكونوا جبناء ، فسيخرج وينتقم لنفسه . فكّر في الحروب في

الماضي . فكّر : أنبلها كانت الحرب ضد إيسيسكي . كان أودوكو في تلك الأيام ما زال حياً . وقد أنشد أودوكو أغنية الحرب بطريقة لا يستطيع أحد أن يجاريه فيها . لم يكن محارباً ، لكن صوته كان يحوّل كل رجل إلى أسد .

. تنهد أوكونكوو وهو يتذكر تلك الأيام : «لم يعد يوجد الآن رجال نبلاء . لن تنسى إيسيسكي أبداً كيف ذبحناهم في تلك الحرب . قتلنا اثني عشر رجلاً منهم وقتلوا رجلين منا فقط . وقبل نهاية أسبوع السوق الرابع ، كانوا يطلبون السلام . تلك أيام كان الرجال فيها رجالاً حقاً» .

بينما كانت تراوده هذه الأفكار ، سمع صوت القرص الحديدي من بعيد . أرهف السمع ، وسمع صوت المنادي . لكنه كان خافتاً جداً . تقلّب في سريره وآلمه ظهره . وصرف بأسنانه . راح المنادي يقترب تدريجياً إلى أن مرّ قريباً من مجمّع أوكونكوو .

فكر أوكونكوو بمرارة : «إن أعظم عقبة في أوموفيا هي ذلك الجبان : إيجونواني . إن لسانه الحلو يستطيع تحويل النار إلى رماد بارد . وحين يتكلم ، يحرّك رجالنا نحو العجز . لو أنهم تجاهلوا نصائحه المخنثة قبل خمس سنوات ، لما وصلنا إلى هذه الحال» . صرف بأسنانه . «غداً سيخبرهم بأن آباءنا لم يخوضوا مطلقاً »حرب لوم» . إذا استمعوا إليه سأتركهم وأخطط لانتقامي» .

خفت صوت المنادي مرة أخرى ، فامتص البعد حدّة طنين قرصه المعدني الأجش . تقلب أوكونكوو على كلا جنبيه واستمد نوعاً من متعة من الألم الذي أثاره ظهره . «ليتكلم إيجونواني ما يشاء عن «حرب لوم» غداً ، عندئذ سأريه ظهري ورأسي» . وصرف بأسنانه .

بدأت ساحة السوق تمتلىء حالما أشرقت الشمس . كان أوبيريكا منتظراً في أوبيّه عندما مرّ عليه أوكونكوو ودعاه للخروج . علّق كيسه الجلدي وقراب سيفه على كتفه وخرج . كان كوخ أوبيريكا قرب الطريق ، فرأى كل رجل مَرّ وهو يتجه إلى ساحة السوق . وقد تبادل التحيات مع كثيرين ممن مرّوا في ذلك الصباح .

عندما وصل أوكونكوو وأوبيريكا إلى مكان الاجتماع ، كان هناك جمع غفير جداً من الناس إلى درجة أن الإنسان لو ألقى حبة رمل فوقهم ، لما وجدت طريقها إلى الأرض . توالى وصول الكثيرين من كل حيّ في القرى التسع . وقد أدفأت قلب أوكونكوو رؤية قوة أعداد كهذه . لكنه كان يبحث عن رجل بالذات ، الرجل الذي يرهب ويحتقر لسانه كثيراً .

سأل أوبيريكا :«هل تراه؟»

ـ «مَنْ؟»

قال : «إيجونواني» ، وظلت عيناه تجوبان زوايا ساحة السوق الهائلة من ركن إلى آخر . جلس معظم الرجال على جلد ماعز على الأرض ، وجلس القليل منهم على مقاعد خشبية أحضروها معهم .

قال أوبيريكا وهو يلقي نظرة على الحشد : «لا . نعم ، ها هو ، تحت شجرة القطن الحريري . هل أنت خائف من أن يقنعنا بألاّ نقاتل؟»

ـ «خائف؟ لا يهمني ما يفعله بكم . فأنا أحتقره هو وجميع مَنْ يستمعون إليه . سأقاتل وحيداً إن شئت» .

تحدثا بأعلى صوتيهما لأن الجميع كانوا يتكلمون ، وكانت أصواتهم أشبه بضجة سوق كبيرة .

فكّر أوكونكوو : «سأنتظر إلى أن ينتهي من حديثه . عندئذ ، سأتكلم» .

قال أوبيريكا بعد برهة : «لكن ، كيف تعرف أنه سيتكلم ضد الحرب؟»

قال أوكونكوو : «لأنني أعرف أنه جبان» . لم يسمع أوبيريكا بقية ما قاله لأن شخصاً لمس كتفه من الخلف في تلك اللحظة ، فاستدار ليصافحه ويتبادل التحيات مع خمسة أو ستة أصدقاء آخرين . لم يستدر أوكونكوو رغم أنه عرف الأصوات . فلم يكن في مزاج ملائم لتبادل التحيات . لكن أحد الرجال لمس كتفه وسأله عن حال أهل مجمّعه .

قال بلا اهتمام : «هم بخير» .

كان أول رجل يخاطب أومووفيا في ذلك الصباح وهو أوكيكا ، أحد الرجال الستة الذين سجنوا . كان أوكيكا رجلاً عظيماً وخطيباً مفوّهاً . لكنه لم يكن يتمتع بذلك الصوت المدوي الذي لابد أن يستخدمه أول المتكلمين لإحلال الصمت في اجتماع العشيرة . كان صوت أونييكا من هذا النوع ، لذلك طُلب منه أن يحيي أومووفيا قبل أن يبدأ أوكيكا بالكلام .

جأر ، رافعاً ذراعه اليسرى ودافعاً الهواء بيده المفتوحة : «أومووفيا كوينو !»

هدرت أومووفيا :«ياا !»

جأر مرة أخرى : «أمووفيا كوينو !» ، ومرة ثالثة ورابعة ، مواجهاً اتجاهاً مختلفاً في كل مرة . أجاب الحشد :«ياا !»

ساد صمت فوري كما لو أن ماء بارداً صب فوق لهب هادر .

وثب أوكيكا واقفاً على قدميه وحيا رجال العشيرة أربع مرات . ثم بدأ القول : «أنتم جميعاً تعلمون لماذا نحن هنا ، بينما كان يجب أن نعكف على بناء مخازن غلالنا أو إصلاح أكواخنا ، بينما كان يجب أن ننشغل بترتيب أمور مجمّعاتنا . لقد اعتاد أبي أن يقول لي : «كلما رأيتَ ضفدعاً يقفز في وضح النهار ، فاعلم أن هناك من يسعى إلى قتله» . عندما رأيتكم جميعاً تتدفقون إلى هذا الاجتماع من جميع أحياء عشيرتنا في مثل هذا الوقت المبكر من الصباح ، علمت أن هناك من يسعى إلى قتلنا» . توقف لفترة قصيرة وعاود الكلام : «جميع آلهتنا تبكي . إيديملي يبكي . إيجووجوو يبكي ، أجبالا يبكي ، وبقية الآلهة الآخرين . وآباؤنا المتوفون يبكون بسبب الانتهاك المخزي لمقدساتهم والآثام الشنيعة التي رأيناها بأم أعيننا» . توقف ثانية ليثبّت صوته المرتعش .«هذا حشد عظيم . ولا تستطيع أية عشيرة أن تفاخر بأعداد أكبر أو شجاعة أعظم . لكن ، هل نحن كلنا هنا؟ أنا أسألكم : هل جميع أبناء أوموفيا معنا هنا؟» وأجتاحت الحشد همهمة عميقة .

قال : «لا ، إنهم ليسوا كلهم هنا . لقد مزقوا العشيرة وسلكوا طرقاً مختلفة . نحن الذين نجتمع هنا هذا الصباح ظللنا أوفياء لآبائنا ، لكن إخواننا هجرونا وانضموا إلى رجل غريب في تدنيس أرض الآباء . واذا حاربنا هذا الغريب فسنصيب إخواننا وقد نسفك دم ابن من أبناء عشيرتنا . لكننا يجب أن نفعل هذا . فلم يحلم آباؤنا أبداً بشيء كهذا ، وهم لم يقتلوا أبداً إخوانهم . لكن رجلاً أبيض واحداً لم يظهر أبداً بينهم . لذلك يجب أن نفعل ما لم يكن آباؤنا سيفعلونه أبداً . فقد سؤل الطائر إينيكي لماذا هو دائماً مشرّع الجناحين ، فأجاب : «لقد تعلّم الناس إطلاق النار دون أن

يخطئوا الهدف ، فتعلمت الطيران دون أن أجثم على غصن» . يجب أن نقتلع هذا الشر من جذوره . اذا انحاز إخواننا إلى جانب الشر ، فيجب اقتلاعهم هم أيضاً من الجذور . يجب أن نفعل هذا الآن . يجب أن ننضح هذا الماء الآن بعد أن وصل إلى كواحلنا فقط . .» .

عند هذه النقطة ، انتاب الجمهور هرج فجائي وشخصت أبصار الجميع إلى اتجاه واحد . كان هناك منعطف حاد في الطريق المتوجه من ساحة السوق إلى محكمة الرجل الأبيض ، ثم إلى الجدول وراءها . لذلك لم يلاحظ أحد اقتراب سعاة المحكمة الخمسة إلا عندما داروا حول المنعطف ، على بعد خطوات معدودة من طرف الحشد . وكان أوكونكوو جالساً في طرف الحشد .

وثب واقفاً على قدميه حالما رأى القادمين . فواجه رئيس السعاة ، وهو يرتجف حقداً ، عاجزاً عن النطق بأية كلمة . كان الرجل غير خائف ووقف ثابتاً في أرضه ، وقد اصطف رجاله الأربعة خلفه .

في تلك اللحظة القصيرة ، بدا أن العالم يقف ساكناً ، ينتظر . ساد صمت مطبق . اندمج رجال أوموفيا في خلفية الأشجار والنباتات المعرّشة العملاقة الخرساء ، وانتظروا .

حطم رئيس السعاة السكون . أمره : «دعني أمرّ!»

ـ «ماذا تريد هنا؟»

ـ «أمر الرجل الأبيض الذي تعرفون مدى قوته جيداً بفضّ هذا الاجتماع» .

بومضة ، استل أوكونكوو سيفه . فقرفص الساعي ليتحاشى الضربة .

كان هذا بلا جدوى . هوى سيف أوكونكوو مرتين ، فوقع رأس الرجل بجانب جسده المكسو ببزته الرسمية .

قفزت الخلفية المترقبة وقد دبّت فيها حياة صاخبة مرة أخرى وانفض الاجتماع . وقف أوكونكوو شاخصاً ببصره إلى الرجل الميت . عرف أن أوموفيا لن تحارب . عرف هذا لأنهم تركوا السعاة الآخرين يهربون . لقد اندفعوا بفوضى بدلاً من أن يُقدموا . ميّز الخوف في ذلك الاضطراب . وسمع أصواتاً تتساءل : «لماذا فعل هذا؟»

مسح سيفه بالرمل وابتعد .

فصل ٢٥

عندما وصل مفوّض شرطة المنطقة إلى مجمّع أوكونكوو على رأس قوة مسلحة من الجند وسعاة المحكمة ، وجد جمهرة صغيرة من الرجال جالسة باعياء في الأوبي . أمرهم بالخروج ، فأطاعوا دون أن تصدر عنهم أية همهمة .

سأل عن طريق المترجم : «مَنْ منكم يدعي أوكونكوو؟»

أجاب أوبيريكا : «هو ليس هنا»

ـ «أين هو؟»

ـ «إنه ليس هنا !»

غضب المفوّض واحمر وجهه . حذرهم من أنهم إذا لم يسلموا أوكونكوو فسيسجنهم جميعاً . تمتم الرجال فيما بينهم ، ثم تكلّم أوبيريكا ثانية .

ـ «سنأخذكم إلى مكان وجوده ، فقد يساعدنا رجالكم» .

لم يفهم المفوّض ما قصده أوبيريكا حين قال : «فقد يساعدنا

رجالكم» . فكّر : إن أكثر عادة تثير الغضب عند هؤلاء الناس هي حبهم للكلمات الزائدة عن اللزوم .

قاد أوبيريكا وخمسة أو ستة رجال آخرون الجمع . تبعهم المفوّض ورجاله وأسلحتهم جاهزة للاستعمال . حذّر المفوض أوبيريكا من أنه اذا أقدم هو ورجاله على أية خدعة فستُطلق النار عليهم . وهكذا ساروا .

كانت تقع خلف مجمّع أوكونكوو أجمة صغيرة . والمنفذ الوحيد إلى هذه الأجمة من مجمّع أوكونكوو هو ثقب صغير مستدير في السور الطيني الأحمر ، ثقب يدخل ويخرج منه الدجاج في بحثه الدائب عن الطعام . لم يكن الثقب يسمح بمرور رجل من خلاله . إلى تلك الأجمة ، قاد أوبيريكا المفوض ورجاله . فداروا حول المجمّع ، وهم يكادون يلتصقون بالسور . كان الصوت الوحيد الصادر عنهم هو وقع أقدامهم وهي تسحق أوراق الشجر الجافة .

وصلوا إلى الشجرة التي كان جسد أوكونكوو يتدلى منها ، فتوقفوا مشدوهين .

قال أوبيريكا : «قد يستطيع رجالكم مساعدتنا في إنزاله ودفنه . لقد أرسلنا في طلب غرباء من قرية أخرى ليتولوا القيام بالعمل عوضاً عنا ، لكنهم قد يستغرقون وقتاً طويلاً» .

تغير مفوّض شرطة المنطقة على الفور . وحلّ مكان الإداري الحازم دارس العادات البدائية .

سأل : «لماذا لا تنزلونه بأنفسكم؟»

قال أحد الرجال : «هذا ضد أعرافنا . إن قَتْلَ الرجل لنفسه إثم عظيم .

إنه إساءة لربة الأرض ، ومَنْ يرتكب هذا الإثم لا يدفنه أبناء عشيرته . فجثمانه شر ، والغرباء فقط يستطيعون أن يلمسوه . لذلك نطلب من رجالك إنزاله ، لأنكم غرباء» .

سأل المفوّض : «هل ستدفنونه مثل أي رجل آخر؟»

ـ «نحن لا نستطيع أن ندفنه . الغرباء فقط يستطيعون هذا . سندفع لرجالك ليفعلوا هذا . وحين يدفن ، سنقوم بواجبنا نحوه . سنقدم القرابين لتطهير الأرض المدنسة» .

فجأة ، التفت أوبيريكا ، الذي كان يحدّق بثبات في جسم صديقه المتدلي ، إلى مفوّض شرطة المنطقة وقال بشراسة : «ذلك الرجل كان واحداً من أعظم الرجال في أوموفيا . لقد دفعتموه إلى قتل نفسه ، وسيدفن الآن ككلب . . .» لم يستطع مواصلة الكلام . فقد ارتعش صوته وخنق كلماته .

صرخ أحد السعاة بلا ضرورة على الإطلاق : «إخرس !»

أمر المفوّض رئيس سعاته : «أنزل الجسد وأحضره مع جميع هؤلاء الناس إلى المحكمة» .

قال الساعي : «نعم سيدي» .

ورفع يده بالتحية العسكرية .

مضى مفوض شرطة المنطقة ، آخذاً معه ثلاثة أو أربعة جنود . وخلال السنوات الكثيرة التي كدح فيها من أجل إحلال الحضارة في أنحاء مختلفة من أفريقيا ، تعلّم عدداً من التصرفات . أحد هذه التصرفات هو ألا يشغل

مفوّض شرطة منطقة نفسه مطلقاً بتفاصيل تافهة كقطع حبل رجل مشنوق متدل من شجرة . فمثل هذا الاهتمام يمكن أن يعطي السكان المحليين فكرةً سيئة عنه . وفي الكتاب الذي خطط لكتابته ، سيشدّد على هذه النقطة . فيما كان عائداً إلى المحكمة ، فكّر في ذلك الكتاب . فكل يوم يمده بمادة جديدة . وقصة هذا الرجل الذي قتل ساعياً وشنق نفسه ستشكل مادة مثيرة للقراءة . وبوسع الإنسان أن يكتب فصلاً كاملاً تقريباً عنه . قد لا يكون فصلاً كاملاً ، بل فقرة معقولة على أي حال ؛ فهناك مواد كثيرة أخرى سيدرجها في الكتاب ، وعلى الإنسان أن يكون صارماً في حذف التفاصيل . وقد سبق واختار عنوان الكتاب ، بعد تفكير عميق وهو : **تهدئة القبائل البدائية في حوض النيجر السفلي** .

مسرد لكلمات قبيلة إيبو وتعابيرها

أجادي ـ نوايي agadi - nwayi : امرأة عجوز .

أجبالا agbala : امرأة : تستعمل أيضاً عن رجل لا يتمتع بأي لقب .

تش chi : إله شخصي .

ايفوليفو efulefu : رجل لا شأن له .

ايجووجوو egwugwu : مُقنّع يجسّد إحدى أرواح أجداد القرية .

إيكوي ekwe : آلة موسيقية ، نوع من طبل مصنوع من الخشب .

إنيكي ـ نتي ـ أوبا eneki - nti - oba : نوع طائر .

إيزي ـ أجادي ـ نوايي eze - agadi - nwayi : سن امرأة عجوز .

إيبا iba : حمى .

إيلو ilo : قطعة أرض خضراء في القرية حيث تعقد اجتماعات للرياضة والنقاش الخ .

إينيانجا inyanga : التظاهر ، التفاخر .

إيسا ـ إيفي isa - ifi : إحتفال : إذا انفصلت زوجة عن زوجها لبعض الوقت ثم يُعاد الارتباط معه ، فإن هذا الاحتفال يعقد ليؤكد أنها لم تكن خائنة له خلال وقت انفصالهما .

إيبي ـ أوواiyi - uwa : نوع خاص من حجر يكوّن الوصلة بين أوجبانجي ogbanji وروح العالم . وإذا اكتشف إيبي ـ أووا ودُمر فلن يموت الطفل .

جيجيدا jigida : خيط خرز للخصر .

كوتما kotma ساعي محكمة : والكلمة ليست عن لغة الإيبو ، بل هي تشويه

للكلمة الانجليزية المركبة court - messenger .

كوينو kwenu : صرخة استحسان وتحية .

نديتشي ndichie : شيوخ .

نا آبي nna ayi : أبونا .

ننو nno : أهلاً .

نسو ـ آني nso - ani : إساءة دينية من نوع يمقتها الكل .

نزال nzal : طائر صغير جداً .

أوبي obi : كوخ رئيس العائلة الكبيرة .

أبودو ديكي obodo dike : أرض الشجعان .

أوتشو ochu : جريمة قتل أو مذبحة .

أوبانجي obanje : متغيّر : طفل يموت مراراً وتكراراً ويعود إلى أمه ويولد من جديد . إنه لمن المستحيل أن ينهي طفل أوبانجي دون أن يموت ، إلا إذا عثر أولاً على إيبي ـ أووا ودُمر .

أوجيني †ogene : آلة موسيقية ، نوع من جرس قرصيّ .

أوجي أودو أتشو ـ إيجيجي ـ أوه oji odu achu - ijiji - o : بقرة (أي البقرة التي تستعمل ذيلها لطرد الذباب) .

أوسو osu : منبوذ ، كُرّس إلى إله وكان الأسو تابو taboo ، ولم يسمح له بالاختلاط مع الأحرار بأية طريقة من الطرق .

أويي Oye : اسم أحد أيام السوق الأربعة .

أوزو ozo : أحد أسماء الألقاب أو الرتب .

توفيا tufia : لعنة أو شتيمة .

أودو udu : آلة موسيقية ، نوع من طبل يصنع من الفخار .

أولي uli : صبغة تستعملها النساء لرسم أشكال على البشرة .

أوموادا umuada : تجمّع عائلي للبنات ، حيث تعود القريبات الأناث إلى قريتهن الأصلية .

أومونا umunna : مجموعة واسعة من أقرباء : (الصيغة الذكورية لكلمة أومودا umuada) .

أوري uri : جزء من احتفال الخطبة حين يُدفع المهر .

أسئلة:

الأسئلة التالية من وضع المترجم .

الجزء الأول :

فصل ١

١ . ما سبب شهرة أوكونكوو في شبابه قبل عشرين سنة من وقائع هذه الرواية؟

٢ . صف بإيجاز الصراع الذي دار بين أوكونكوو والهِر أمالينز وأسلوب كل منهما في المصارعة .

٣ . صف المظهر الخارجي لشخصية أوكونكوو .

٤ . ما هي صفات شخصية أونوكا ، أبي أوكونكوو؟ أذكر حدثاً في الرواية يصوّر دهاء أونوكا في التخلص من دائنية .

فصل ٢

٢ . أذكر بعض المعتقدات المتعلقة بالأرواح الشريرة والحيوانات في قرية أوموفيا .

٢ .ما سبب غضب قرية أوموفيا على قرية مباينو؟ كيف حُلّت المشكلة بين القريتين؟

٣ . مَنْ الذي اختارته قرية أوموفيا مبعوثاً إلى قرية مباينو؟ لماذا؟ ما تأثير هذا على القرية الأخيرة؟

٤ . هل ترى أن أوكونكوو رجل ناجح في قريته؟ كم عدد زوجاته؟ كيف يعاملهن؟ كم عدد أكواخه؟

٥ . كيف كان يعامل ابنه الأكبر نوويي؟ ما تأثير هذا على التكوين النفسي لهذا الابن؟

فصل ٣

١ . أجبالا ، ما هو ، ما تأثيره في القرية؟ ما هو عمل كاهنة أجبالا هذا؟

٢ .ما هو طريق النجاح في العمل : تقديم القرابين أم العمل الجاد؟

٣ . ما هو الـ تشي؟

٤ . غابة الشر ، لماذا سمبت بهذا الاسم؟ لأي غرض تستعمل؟

فصل ٤

١ . صف موقفاً يبين قسوة أوكونكوو على ابنه الأكبر نوويي .

٢ . صف كيف أنسجم الرهينة إيكيميفونا مع أفراد أسرة أوكونكوو ، خصوصاً الابن الأكبر ، نوويي .

٣ . يتقيد البدائيون بأسبوع بمتنعونَ فبه عن الإساءة إلى الغير من أفراد أسرهم وزوجاتهم خوفاً من انتقام آلهة الأرض ، ويسمى هذا بأسبوع السلام ، ما هي كفّارة مَنْ يخالف هذا؟

فصل ٥

١ . متى يحل عيد اليام الجديد؟ هل الاحتفال بهذا العيد يتعلق بإلهة الأرض والخصب؟

٢ .صف الاحتفال بهذا العيد .

فصل ٦

١ . صف مباراة مصارعة بمناسبة عيد اليام الجديد .

فصل ٧

١ . إرو قصة إيكيميفونا .

٢ . الجَراد ، ماذا يشكل للقرية؟ ماذا بستفيدون منه؟ كيف يقاومونه؟

٣ . أذكر كيفية قتل إيكيميفونا .

٤ . صف حال أوكونكوو بعد قتله لإيكيميفونا .

٥ . ما هو مصير التوائم في أوموفيا؟

فصل ٨

١ . ما الذي يدور في بيت أوبيريكا؟

٢ . هل شارك أوبيريكا ، صديق أوكونكوو ، في قتل إيكيميفونا؟ لماذا؟

٣ . صف طريقة التقدم بطلب يد فتاة من أبيها . كيف يُحدد المهر؟

فصل ٩

١ . لماذا الخوف على إيزينما حين تمرض؟ تتبع مراحل الولادات عند أمها .

٢ . كيف أظهر المؤلف مدى أهمية إيزينما لأمها وأبيها؟

٣ . دائرة الولادة والموت الشريرة . إشرح هذا .

٤ . ما معنى كلمة أوجباني؟

فصل ١٠

١ . أذكر بإيجاز محاكمة من محاكمات القبيلة لفض الخلافات بين الأفراد والمجموعات . مَنْ هم القائمون على هذه المحاكمات .

فصل ١١

١ . بثّ المؤلف بين وقائع روايته هذه حكايات شعبية هي أقرب إلى الأساطير . أذكر بإيجاز حكاية أو حكايتين من هذه الحكايات .

٢ . ذُكر فيما بعد أن الحكايات تقسم إلى حكايات أنثوية وحكايات ذكرية ، أذكر خصائص كل نوع من هذه الحكايات مع اقتباس ما يتعلق بهذا من النص الروائي .

فصل ١٢

١ . صف إيجاز حفل زواج ابنة أوبيركا .

فصل ١٣

١ . مَنْ هم الإيجووجوو؟

٢ . كيف وقعت مأساة أوكونكوو وقتل الغلام أثناء الاحتفال ؛ هل يجري عندنا مثل هذه المآسي في الأعراس والاحتفالات؟ علّق .

٣ . ماذا كان عقاب أوكونكوو على هذه الفعلة النكراء؟

الجزء الثاني

فصل ١٤

١ . صف جنازة محارب عظيم .

٢ .كيف استقبل أوكونكوو من قبل أهل أمه في منفاه؟

٣ . كيف تأقلم مع البيئة الجديدة؟

فصل ١٥

١ . يبدأ الآن ظهور الرجل الأبيض ، أذكر كيف حدث هذا .

٢ . حلّ الرجل الأبيض في آبامي ؛ فحلّ شرّ عظيم في تلك القرية ، هل توافق على هذا؟

٣ . ما رد فعل أوكونكوو على ما سمعه عن قرية آبامي ؛ هل هذا الرد ينسجم وطبيعة أوكونكوو؟

فصل ١٦

١ . يتكرر في هذا الفصل الحديث عن الرجل الأبيض بعد مجزرة آبامي وإرهاب قبيلة الإيبو ، حيث تجري أحداث هذه الرواية ، وسيطرة الرجل الأبيض عليها . حمل الرجل الأبيض دينه المسيحي لينشره بين الوثنيين ، فاستعمل الترغيب تارة والترهيب تارات عديدة ، إشرح هذا بالرجوع إلى النص الروائي .

٢ . لماذا يبدو دخول نوويي ، ابن أوكونكوو الأكبر ، في الدين الجديد مقنعاً . ما هي المبررات التي تراها مبثوثة بين ثنايا وقائع هذه الرواية التي أدت إلى دخوله في الدين الجديد .

فصل ١٧

١ . قدّمت قرية مبانتا غابةَ الشر لتصبح موقعاً لكنيسة المبشرين وهم يعتقدون بأن مصير هذه الكنيسة في ذلك المكان المنحوس سيؤدي إلى دمار الكنيسة ومَنْ سيقيمون فيها شعائرهم . ماذا حدث ؛ هل هزّ هذا معتقدات هؤلاء البدائيين؟ هل ساعد في إقناع البعض لدخول الدين الجديد؟

فصل ١٨

١ . كان لا بد للدين الجديد أن يضع حداً لعادات قديمة بالية ومضرّة بالناس البسطاء حتى يتحول الناس البدائيون عن دينهم الوثني إلى هذا الدين الجديد . قدّم أمثلة عن هذا من النص الروائي .

٢ . بماذا وصف أوكوكوو أهل مبانيا لرضخوهم لسلطة وقوة ودين الرجل الأبيض؟

فصل ١٩

١ . صف التحضير لعودة أوكونكوو إلى أومووفيا ، قريته . صف عودته إليها .

٢ . كيف ودّع أوكونكوو قرية أمه؟

٣ . ما الجديد الذي رآه في قريته حين عاد إليها من المنفى؟ هل أعجبته هذه الحال؟

الجزء الثالث

فصل ٢٠

١ . كم سنة قضاها إوكونكوو في المنفى؟

٣ . ما الذي طلبه أوكونكو من ابنتيه في المنفى؟ هل انصاعتا لوجهة نظره؟

٤ . ما الذي جلبه الرجل الأبيض إلى البلاد إضافة إلى الكنيسة؟ ما الذي بناه الرجل الأبيض إضافة إلى هذا؟

٥ . مفوّض الشرطة ، سعاة المحكمة ، أذكر دور كل منهم في السلطة الاستعمارية .

٦ . كيف عبّر الرجل الأسود عن حقده على سعاة المحكمة السود؟

فصل ٢١

١ . ماذا ترى في نقاش السيد براون وآكونا؟ هل ترى أن رأي دين الوثنيين البدائي قريب من الدين المسيحي مع اختلاف الأسماء؟

٣ . أدخل الرجل الأبيض المدرسة ودور العلاج ، هل أثّر هذا على إقناع الناس بالدين الجديد؟ لماذا؟

فصل ٢٢

١ . ما الفرق بين سياسة السيد بروان والقسيس سميث الذي حلّ محله؟ هل قصدت سلطات الاحتلال هذا التغيير بعد أن سيطرت على البلاد؟

فصل ٢٣

١ . إيجووجوو أثار أحقاد الناس على الدين الجديد؟ إشرح .
٢ . كيف استطاع المفوّض خداع كبار رجال أومووفيا الست . أذكر ما جرى لهم مع المفوّض وسعاة المحكمة .
٣ . بثّ السعاة الرعب في نفوس ابناء القرية . ألا ترى أن الاستعمار يحكم المستعمرات من قبل أبنائها في كل مكان؟

فصل ٢٤

١ . الغرامة المدفوعة . كم هي وكيف وُزعت ؛
٢ . هل هدأ غضب أوكونكوو بعد سجنه وإهانته وإطلاق سراحه الخ؟
٣ . كيف أظهر المؤلف أن روح القتال في القرية قد ماتت؟ خطب أحد الخطباء خطبة حماسية دفاعاً عن الآباء والأجداد ، ماذا كان رد فعل الجماهير؟
٤ . منَ الذي قتله أوكونكو أثناء الاجتماع؟ هل لهذا تبرير معقول في ثنايا العمل الأدبي؟ ما نتائج هذا العمل؟

فصل ٢٥ .

١ . قال أوبيريكا : «سنأخذكم إلى مكان وجوده ، فقد يساعدنا

رجالكم» . هل فهم المفوّض هذا أم اعتبره كلاماً زائداً؟ متى فهم المعنى وكيف؟

٣ . ماذا قال أوبيريكا في تأبين صديقه المنتحر؟

٤ . فيما كان (المفوّض) عائداً إلى المحكمة ، فكّر في ذلك الكتاب (الذي خطط لكتابته) . فكل يوم يمده بمادة جديدة . وقصة هذا الرجل الذي قتل ساعياً وشنق نفسه ستشكل مادة مثيرة للقراءة . وبوسع الإنسان أن يكتب فصلاً كاملاً تقريباً عنه . قد لا يكون فصلاً كاملاً ، بل فقرة معقولة على أي حال ؛ فهناك مواد كثيرة أخرى سيدرجها في الكتاب ، وعلى الإنسان أن يكون صارماً في حذف التفاصيل . وقد سبق واختار عنوان الكتاب . . إلخ

في كتب التاريخ يقتصر المؤرخ أو الدارس الاجتماعي على فصل أو فقرة معقولة في تصوير أحداث ما قرأتَه . هل يكفي هذا ليعطينا الصورة الكاملة عن حقبة تاريخية أو شريحة اجتماعية؟

الرواية قدّمت لنا عالماً يعج بالأساطير والحكايات الشعبية والوقائع اليومية والشخصيات المفعمة بالحياة ؛ ومن هذا كله كُتبت رواية جيدة ، فالتاريخ والدراسات التاريخية والاجتماعية . . إلخ لا تستطيع أن تدخلنا في عالم حياة أخرى (جماعية أو فردية) على عكس الرواية الزاخرة بالحياة .

أكتب عن هذا الموضوع ما يمكنك الكتابة عنه ، مقتبساً من هذه الرواية ومن روايات عربية وأجنبية لتعزز رأيك بهذا الخصوص .

سؤال عام

يتابع المؤلف حياة الشخصية الرئيسية في الرواية ، أوكونكوو ، بتسلسل زمني ، يعود فيه إلى الماضي من وقت إلى آخر ليلقي ضوءً على هذه الشخصية أو تلك أو على أحداث ماضية ؛ تابع هذا التسلسل الزمني البسيط ولخص في أقل من صفحتين أطوار حياة هذه الشخصية مع الأحداث الرئيسية التي يعيشها هذا الرجل .

أشياء تتداعى

الأهلية
للنشر والتوزيع
المملكة الأردنية الهاشمية - عمّان / وسط البلد
خلف مطعم القدس / ص.ب ٧٧٧٢ - هاتف ٤٦٣٨٦٨٨
فاكس ٤٦٥٧٤٤٥ ◆ منشوراتنا في العام ٢٠٠٢م
◆ الغلاف : زهير أبو شايب .